



إبراهيم مشاركة

أوراق أدبية دراسات في الأدب والنقد

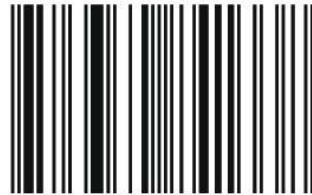
أوراق أدبية دراسات في الأدب والنقد

كتاب نقدي يتناول بالدراسة والتحليل بعض الآثار الأدبية الشامخة القديمة والحديثة والمعاصرة نشرت المقالات منجمة في مجلات عربية محكمة على مدى ثلاث سنوات ، فمن الأدب القديم دراسة لرباعيات الخيام وقصيدة لابين الرومي ومن الحديث دراسة لبعض آثار السياب و خليل مطران والشابي ودراسات عامة عن الرفض في الشعر الحديث والنزعة الإنشائية في الأدب المهجري ودراسة عن شعر العقاد وظاهرة الألم والإبداع ودراسة عن الشاعر فوزي المعلوف وغيرهم وتصدر الإشارة إلى أن دراسة عن زكي نجيب محمود وإخفاقات النهضة العربية فازت بالجائزة التقديرية عن دار ناجي نعمان ببيروت 2008. وقد تناول مقالات الكتاب بالتقريب والإعجاب بعض النقاد والكتاب العرب أثبت بعضها في الطبعة الورقية للكتاب في 2007 حين أصدرته وزارة الثقافة الجزائرية في إطار احتفالية الجزائر عاصمة الثقافة العربية، يجد القارئ بين صفحات الكتاب نقد انطباعيا ولكنه لا يهمل الجوانب السياسية والتاريخية والاجتماعية للآثار الأدبية مع بيان مكامن الجودة والإبداع فيها بلغة طيبة لا تعسر على القارئ المتوسط.

ناقد وكاتب وقصصي جزائري من مواليد عام 1967 بزمورة برج بوعريريج حاصل على شهادة الدراسات العليا في الأدب العربي "النقد الأدبي" أصدر مقالاته الأدبية بمجلات عربية محكمة كما له مؤلفات صادرة بالجزائر ومصر نال عدة جوائز أدبية يعمل حاليا إطارا بوزارة التربية الجزائرية.



NOOR
PUBLISHING



978-3-330-84133-8

إبراهيم مشاركة

أوراق أدبية دراسات في الأدب والنقد

إبراهيم مشاركة

أوراق أدبية دراسات في الأدب والنقد

Noor Publishing

Impressum

Bibliografische Information der Deutschen Nationalbibliothek: Die Deutsche Nationalbibliothek verzeichnet diese Publikation in der Deutschen Nationalbibliografie; detaillierte bibliografische Daten sind im Internet über <http://dnb.d-nb.de> abrufbar.

Alle in diesem Buch genannten Marken und Produktnamen unterliegen warenzeichen-, marken- oder patentrechtlichem Schutz bzw. sind Warenzeichen oder eingetragene Warenzeichen der jeweiligen Inhaber. Die Wiedergabe von Marken, Produktnamen, Gebrauchsnamen, Handelsnamen, Warenbezeichnungen u.s.w. in diesem Werk berechtigt auch ohne besondere Kennzeichnung nicht zu der Annahme, dass solche Namen im Sinne der Warenzeichen- und Markenschutzgesetzgebung als frei zu betrachten wären und daher von jedermann benutzt werden dürften.

البيانات القانونية

معلومات بليوجرافية للمكتبة الوطنية الألمانية : المكتبة الوطنية الألمانية تسجل هذا تفاصيل البيانات: <http://dnb.d-nb.de> المنشور في البليوجرافيا الوطنية الألمانية البليوجرافية موجودة على شبكة الإنترنت تحت الموقع التالي جميع العلامات التجارية والمنتجات المستخدمة في هذا الكتاب تخضع لقانون براءة اختراع ، وهي علامات تجارية مسجلة لأصحابها. استنساخ الأسماء التجارية، أسماء المنتجات ،أسماء مشتركة في هذا المنشور ،حتى من دون وضع العلامات الخاصة لا يعني أن هذه الأسماء هي معفاة من التشريعات التجارية لحماية العلامة ، وبالتالي يمكن استخدامها من طرف أي شخص.

Coverbild / صورة الغلاف

www.ingimage.com

Verlag / دار النشر

Noor Publishing

ist ein Imprint der / is a trademark of

OmniScriptum GmbH & Co. KG

Bahnhofstraße 28, 66111 Saarbrücken, Deutschland / Germany

Email / البريد الإلكتروني

info@omniscryptum.com

Herstellung: siehe letzte Seite /

طبع :انظر آخر صفحة

رقم دولي معياري للكتاب / ISBN:

978-3-330-84133-8

Copyright © إبراهيم مشاركة

Copyright / t © حقوق التأليف و النش

2016 OmniScriptum GmbH & Co. KG

Alle Rechte vorbehalten. / جميع الحقوق محفوظة.

Saarbrücken 2016

إبراهيم مشاركة

أوراقٌ أدبية

دراسات في الأدب و النقد

إهداء

إلى شريكة حياتي التي قاسمتني مر الحياة وحلوها
بصبر ووفاء وتضحية وإلى أولادي الذين أحبوا

المعرفة أهدي هذا الكتاب

عنوان محبة وآية تقدير

إبراهيم مشاركة

توطئة

فن المقال فن حديث في أدبنا العربي ارتبط ظهوره و تطوره بالصحافة العربية فكلاهما له على صاحبه دالة فظهور الصحف بعد الوقائع المصرية دفع الكتاب إلى التسابق في هذا المضمار وإلى إنتاج وفير ، ووجود الكتاب ووفرة ما يكتبونه أخصب الحركة الصحفية فتعددت الصحف الأدبية والسياسية والعلمية، ونظرة واحدة على قائمة الصحف الصادرة في القرن التاسع عشر في المنجد في اللغة والأعلام لصاحبه الأب لويس معلوف تؤكد صحة ما ذهبنا إليه من رأي

غير أننا لا نسرف على أنفسنا فنقطع صلة المقال بعصورنا الأدبية الزاهرة ، و نرى أنه ابن الصحافة والتواصل مع الغرب بعد رحلة رفاعة رافع الطهطاوي إلى باريس ، وما أدت إليه تلك الرحلة من فتوحات علمية وأدبية فالواقع أن أسلافنا عرفوا شيئاً يشبه المقال في نهاية الدولة الأموية وفي العصر العباسي ، و لعل أول من مارس ما يشبه المقال هو عبد الحميد الكاتب، فلقد كانت كتاباته عن الصيد والشطرنج توظفه لفن المقال، غير أن هذا النشاط الأدبي عرف أوجه في العصر العباسي مع ابن المقفع ، والجاحظ،

وأبي حيان التوحيدي ، والرازي، والبيروني وغيرهم ، ذلك أن النثر والمقال تحديدا هو سبيل الكاتب إلى الشرح والإفاضة والاستدلال والحجاج ، وقد كان العصر العباسي خير العصور الأدبية فكراً وأدبا ، عاشت في كنفه عقول عربية كبيرة أنتجت أدبا وعلماً أثرت بهما الثقافة الإنسانية ، وقد كان التوحيدي يكتب في شؤون الفكر والجاحظ في شؤون الأدب والنقد والبيروني في مجال الفلك والرازي في مجال الطب وغيرهم .

وما يلاحظ على تلك المحاولات من نقائص أن غياب الصحافة جعل تلك المقالات مشوبة بمجملة من النقائص لعل أهمها الإفاضة حد إملا القارئ ثم الخروج عن الموضوع كما هو الشأن عند الجاحظ الذي تعلل لذلك بدفع المثل عن القارئ ، ثم غياب المنهجية الصارمة أحيانا ، وربما التكلف أحيانا أخرى أي مراعاة الشكل أكثر من المضمون

ولكنها تبقى محاولات لتأسيس فن المقال في الأدب العربي، ولا ريب أن كل بداية محكوم عليها بالتعثر والقصور، وأن الرقي والنضج والاستواء إنما يحصل مع كر الأيام وإنتاج القرائح.

وذلك ما حدث مع المقال فقد أحدثت الوقائع المصرية رجة في صفحة سكوننا الراكد أيقظتنا من غفوتنا وأسلمتنا إلى نشاط كبير في حقول الأدب والعلم والدين والفلسفة ، فتسابق الكتاب يدجون المقالات في صحف ومجلات سيارة مخلصين مقالاتهم من عيوب أسلافهم يحترمون الحزم ويراعون المنهجية ويراعون التخصص كذلك ولا يسمح أحدهم لنفسه بالخروج عن الموضوع ، فكانت مقالات محمد عبده الدينية، وإبراهيم اليازجي اللغوية، ويعقوب صروف العلمية وغيرهم ثم مقالات العقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي وهي مقالات أدبية. ثم مقالات زكي نجيب محمود و محمود شلتوت وأحمد زكي وهي مقالات فلسفية و دينية وعلمية .

وقد جرت العادة أن يجمع الأدباء مقالاتهم في مؤلف خاص فالرافعي جمع تلك المقالات في كتاب مشهور هو(وحي القلم)، وأحمد أمين جمعها في (فيض الخاطر)، و أحمد حسن الزيات في (وحي الرسالة) و محمد البشير الإبراهيمي في (عيون البصائر) والدكتور أحمد زكي في كتابه المشهور (في سبيل موسوعة علمية) .

وهذه مقالات كتبها صاحبها في السنتين الأخيرتين و نشرها في مختلف مجلات المشرق والخليج والمهجر الأمريكي ، و الحق أن عهده بكتابة المقالات قديم ، فقد كتب أول مقال أدبي وهو طالب بالجامعة ولم يتم العشرين ونشر ذلك المقال بجريدة الشرق الأوسط اللندنية وكان ذلك المقال سجلا بينه وبين المرحوم حمد الجاسر عن العقاد و طه حسين وتوسعت دائرة النقاش لينظم إليه عبد الله باجبر صاحب عمود قهوة الصباح ، و تلقى كاتب المقال رسالة من مدير التحرير الأستاذ محمد خليفة التونسي يرحب فيها بمقاله ويسأله كتابات أخرى .

و كانت تلك البداية ، أما هذه المقالات فلها قصة فلقد صيف كاتبها في باريس عام 2003 ، وكان الصيف حارا وباريس مدينة تكاد تخلو من أهلها ، فلم يجد صاحب هذه المقالات وسيلة لدفع الملل والإحساس بالوحشة إلا تنظيم وقته بين التردد على معهد العالم العربي والمكتبة الوطنية والمركز الثقافي جورج بومبيدو ومتحف اللوفر في

الآحاد.

على أنه جلس في أحد الأيام على ضفاف السين وكان حينها مشغولاً بلزوميات أبي العلاء يقلب فيها النظر واسترعتة ظاهرة هي كثرة المسميات الفلكية في شعره وكان يحفظ من لزومياته الكثير ، فأمسك بالورقة والقلم وكتب أول مقال من هذه المقالات "أبو العلاء فلكيا" و أرسله من باريس إلى مجلة العربي الكويتية فنشرته في أحد أعدادها ، و كتب

مذكرات "حكاية جدي" على قارعة الطريق في الدائرة السابعة من باريس ، و نشره في الجليل اللبنانية ، وتوالى المقالات تباعا ، بعضها دراسات في الشعر الحديث كالرفض في الشعر الحديث ، وزمن السأم ، و نزعة الحرية عند شعراء العراق المحدثين ، وبعضها جمع بين النظر في حياة الأديب وشعره ، كبشارة الخوري "نشرة الفرح وحسرة الزوال" و "ملاك لبنان" الخزين فوزي المعلوف وتأمالات في شعر ميخائيل نعيمة ومي زيادة وصالونها الأدبي وغيرها .

أما النشر فما تعلق بالأدب المهجري فكان ينشره بمجلة المغرب العربي في كندا و صوت العروبة في أمريكا وأما المقالات الأخرى فكان ينشرها بمجلات الخليج والشام ، ثم نشرها جملة في ديوان العرب الإلكترونية لصاحبها عادل سالم ، كما نشر جزءا آخر منها في مجلات أخرى كصهيل و "أنهار الكويتية" و "أقلام ثقافية الفلسطينية" و ضفاف الإبداع الجزائرية وغيرها .

وقد رغب صاحبها في أن يستفيد منها جمهور القراء المهتمين وطلاب الجامعة وأسائذتها فرغب في إصدارها مجموعة في كتاب حتى تعم الفائدة وإنه ليأمل أن يكون الكتاب إضافة حقيقية إلى المكتبة العربية وأن يكون هذا الكتاب باكورة إنتاج أدبي يأمل له النجاح والتوفيق .

إبراهيم مشاركة

برج بوعريبيج /الجزائر يونيو 2009

جمانة حداد وأنطولوجيا الشعراء الغائبين⁽¹⁾

أحببت أن أعلق على هذا الكتاب الهام للشاعرة جمانة حداد لسببين: أهميته وكونه يسلط الضوء على جانب مظلم في الشعر المعاصر خاصة الشعر العربي، حيث تبقى حياة بعض الشعراء طلاسماً يصعب على قارئ الشعر فك خيوطها، وفي ثقافتنا العربية ميل كبير إلى التعتيم حتى لقد ألفنا حياة العتمة وتعودنا عليها فأصبحت قيمة من قيم حياتنا الفكرية.

وكتاب جمانة حداد من الكتب التي تضيف رصيذاً إلى مكتبتنا فلقد بذلت الكاتبة الشاعرة جهداً مميّزًا وحسبكم أنّها أتت على قرن كامل من الشعر في الشرق والغرب لترجم حياة الشاعر وتثبت نتفاً من أشعاره لترجمها من لغتها الأم وهو جهد مضاعفاً قمين بكل تقدير.

وهؤلاء الشعراء من القرن العشرين قد احتاروا أن يرحلوا بإرادتهم لأسباب عدة خاضت الكاتبة في تفاصيلها فكشفت الستار عن كثير من الغامض والمبهم واصطنعت عنوان قصيدة لشاعر إيطالي رحل بإرادته كذلك تشيزاري بافيزي 1950/1908 عنواناً للكتاب وعنوان قصيدته: "سيجيء الموت وستكون له عينك"

وكنت في إحدى مقالاتي قد عرّجت على هذه الظاهرة وتحديدًا في مقالة "بيدي لا بيدك عمرو" ظاهرة الانتحار في أدبنا الحديث" وذكرت في جملة من ذكرت الشاعر أحمد العاصي وصالح الشرنوبلي من مصر والشاعر الكبير خليل حاوي من لبنان.

وكنت أود والكاتبة أحصت من الشعراء المنتحرين مئة وخمسين شاعراً- حتى أنّها تكاد لم تترك زيادة لمستزيد- أن تذكر الشاعر النايق صالح الشرنوبلي من مصر الذي عاش بين سنتي 1924 و1951 والذي انتهت حياته تحت عجلات القطار مثل الشاعر التشيكي جوزيف أتيللا وقد خلف الشاعر دواوين عدة "أصداف الشاطئ" و"نسمات وأعاصير" و"وطنيات" و"في موكب الحرمان" و"أشعار ورسوم" و"ظلال وألوان" و"مع الريح" وكان الكاتب والشاعر صالح جودت قد أتى على ذكره في كتابه "بلايل من الشرق" وأثبت نتفاً من أشعاره وقد كان صديقاً له ومن أشهر أشعاره:

غدا يا خيالي تنتهي ضحككنا

(1) ديوان العرب تشرين الأول 2011.

وآمالنا تغنى وتغنى المشاعر

وتسلمنا أيدي الحياة إلى البلى

ويحكم فينا الموت والموت قادر

وقد كان العقاد قد أثنى على الشاعر وتنبأ له بمستقبل زاهر في الشعر الحديث وقد مارس الشرنوبلي التحديد قبل

السياب والملائكة في قصيدته "أطياف":

إذا ما لعاشق المجهول أغرى الشمس باللقيا

وراء الأفق الضاحي

فمتمته ومدت، كخيوط الوهم إشعاعاتها

الحمرا

كما منيتني يوما وفي خديك توريد

وسالت من شفاه السحب الترانيم

تمهد ربة الإشراق إذ أسكرها الحب

لكن لا تعجل الخطوا

وأسكرها نداء الحب فاستقبلت الليلا

وحيته وألقت ثوب نساك معايبد

وغيب خصرها البحر

فكانت في مرآي العين محرابا من التبر

وغنى الليل في الآفاق أنشودة أشواقه

وهوم ذاهل الحسن وفي كفيه مصباحه

وظلل جنحه الدامي نجوما مثل أيامي

توالى السعد والنحس عليها

واصطلت حرب ليال حصدت عمري

وعمر الأنجم الزهر

وماس الضوء

بربك إن صحا الفجر وسار الأفق بالبدر

وغادتك مع الأنسام أطياف الهوى الظهر

فلبى الهاتف المجنون قد ند عن الصدر

وذاب مع التسييم ندى ليوقظ ناعس الزهر

وتيمه شعاع الفجر فانساب مع الفجر

وشاقته معاني الروح راووق أشعاره

فمثل شوقه الملتاع أشباحا وأطيافا

وكنت أود أن تتحدث عن الشاعرة التعيسة ناهد طه عبد البر من مصر 1950/1920 كذلك وتعاستها زادت حين لم ينشر ديوانها بعد رحيلها وكانت أوصت بطبعه لكن الحظ السيئ يضاف إلى الحظوظ السوداء الأخرى، وقد ربطتها علاقة بالناقد أنور المعداوي ولها نفس شعري لا يخفى في سوداوية ظاهرة وقد ثارت على التقاليد التي تكبل الأنثى في الشرق فقالت في قصيدة: وفاء وحنان

إلهي أفى الغرب هذا الوفاء؟
أتحظى النساء بهذا الحنان؟!
وفي الشرق يظلمهن الرجال
ويقسو عليهنَّ صرف الزمان
أُتظلمُ حواءَ روح الحنان
وُجزي الوفاء بهذا العقوق؟!
أُتظلمُ بالشرق مهد الهداة
وأرض الشداة بنيل الحقوق؟!
أرى حكممة الله في شرعه
تردُّ الفساد وتهدى الضلالُ
ففيم التلاعب بالدين ربي
وباسم الشريعة يطغى الرجال؟!
يريدونهنَّ متاعًا لهم
تعدّدنْ معنى به أو رباغ
أهذا هو الشرع؟ يا ويحهم
لقد صيروه سبيل الخداع
أخذتم من الغرب تلك القشور

وحبَّ المظاهر دون اللَّباب
وأنتم لعمري لا تبتغون
سوى الجسمِ مثل جياح الدَّئاب
وأنكرتمُ الروحَ يا ويحكم
وأين هو الرِّفق؟! أين الحنان؟
ونبل النفوس؟ وصدق الوفاء
وأين التَّبيل بهذا الزَّمان؟
ويا لهفَّ من ضللتها المعاني
وحثَّت خطاها ابتغاء الكمال
فطاح الخيال بعذب الأمان
ولم تدرِ أين تحطَّ الرِّحال
ضننْتُ بأحلامها أن تُسام
صغارَ الجسوم وثقل الأثام
أهوي إلى الطَّين بعد التَّسامي
كما يسقط التَّجم فوق الرِّغام؟

وهذا النص يلقي الضوء على نفسياتها الغارقة في السواد والانطوائية ويبدو أن مرضها زاد في كآبتها فأنحت حياتها بيديها.

كتاب مهم لجمانة حداد تستحق عليه الشناء وهو كتاب خليق بأن يقرأ ففيه من الأشعار الجزلة المعبرة عن النفس الكثير وكنت أحب أن لا تسقط الكاتبة هذين الشاعرين القديرين من عالمنا العربي خاصة وأنها ذكرت الجميع أحمد عاصي، منير رمزي، أنطون مشحور، خليل حاوي مصطفى محمد ، تيسير سبول، عبد الله بوخالفة، فاروق سميرة ، إبراهيم زاير، قاسم جبارة وغيرهم.

طه حسين ورسالة التنوير العربي⁽¹⁾

(1) . ديوان العرب يوليو 2012.

أيها الأزهري، يا سارق النا

ر ويا كاسراً حدود الثواني

عد إلينا، فإن عصرك عصر

ذهبي ونحن عصر ثان

ارم نظارتيك ما أنت أعمى

إنما نحن جوقة العميان

سقط الفكر في النفاق السياسي

وصار الأديب كالبهلوان

يتعاطى التبخير، يحترف الرقص

ويدعو بالنصر للسلطان

نزار قباني في رثاء طه حسين

احتلَّ عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين (1889/1973) مركز الصدارة في العالم العربي في القرن العشرين، فقد كان بحق مالى الدنيا وشاغل الناس. ويرجع ذلك لأسباب عدة، لعل أهمها أنه هتك حُجُب الممنوع، وأشرف على مساحاتٍ في الوعي العربي ظلت من المسلّمات أو المسكوت عنها تحت هيمنة السلطتين السياسية والدينية، وهما تسوّغان ما يحفظ مصالحهما البحتة، إضافة إلى قدرةٍ لا حدود لها على المواجهة والمناورة بأسلوب ساحر مشوق يجمع بين عمق الفكرة ونصاعة البيان وقدرة على حشد الأشياع والمريدين.

لقد كان العميد سليلاً شرعياً للشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (1801/1873) الشيخ الأزهري الآخر الذي بثّ بتعبير الدكتور لويس عوض (1914/1990) أقوى لغم من ألام الديمقراطية الليبرالية في مصر أولاً وفي العالم العربي ثانياً فقد كانت مصر السبّاقة إلى كل جديد.

ولا شك أن الدكتور طه حسين قد وجد المناخ مهيأً لاحتضان الفكر الجديد، فكر التنوير والحدائثة، التي تعني فُتْح المجال أمام العقل الإنساني للمغامرة والبحث والاكتشاف بحرية، وغنيٌّ عن البيان أن الحدائثة في صميمها إنسانية المنطلق والمنتهى.

وما كان أشد حاجة العالم العربي إلى ثورة فكرية وإعصار شامل يجتث جذور التقليد! ويُحسب لمحمد علي باشا(1849/1769) والي مصر طموحه النهضوي وإدراكه أن الاحتكاك بأوروبا والأخذ عنها عن طريق البعثات العلمية التي تدرس العلم والأدب وتترجم روائع الفكر وتنقل فنون التمدن سوف يجعل ذلك من مصر بلدًا متطورًا يسير في طريق التقدم، ويبيّث بميلاد جيل جديد لا يتنكّر للماضي ولا يسرف في تمجيدهِ، ولا يغضُّ الطرف عن إنجازات الحاضر في مضمار الثقافة والعلوم والتمدن في الغرب. وقد كان من رواد ذلك الجيل الشيخ حسن العطار(1834/1766) شيخ الطهطاوي الذي اقترحه إمامًا للبعثة التي أرسلها محمد علي للدراسة في فرنسا، ثم علي مبارك(1893/1823) صاحب الخطط التوفيقية الذي أعاد تنظيم القاهرة الحديثة فشق ميادينها وشوارعها الفسيحة تمامًا كما فعل البارون هوسمان في تنظيم وتنسيق باريس الحديثة، وخير الدين التونسي (1890/1810) وغيرهم...

ثم إنه من الخطأ الفادح اعتبار الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 شرًا مستطيرًا، حَقًّا لقد كان نابليون بوناپرت يهدف فيما يهدف إليه زيادةً على الأجداد العسكرية إلى وضع اليد على التراث المصري، وفي صميم ذلك الحضارة الفرعونية المغلفة بحُجُب الأسرار وما يمكن أن تضيفه كنوزها إلى متاحف فرنسا ودور العلم فيها، ويمكن الآن أن نفهم الدور الذي لعبه العالم شامبليون(1832/1790) حين فكَّ رموز اللغة المصرية القديمة ومكّن الإنسانية جمعاء من قراءة وفهم الحضارة المصرية القديمة.

لقد كشفت هذه الحملة للعالم العربي عمق الهوة الفاصلة بين الشرق والغرب، الشرق النائم والخانع، المسلموب الإرادة والمقلّد، المغمض عينيه عن عجائب الطبيعة المكنونة، والحارم خلاياه من التجدد في رحاب الطبيعة والزمان. الشرق الذي أعطى عمره الفاني للميتافيزيقا والذي احتزل العلم في الجانب الفقهي البحث حتى انتهت إليه القدرة في استئصال الكلام من الكلام في شكل متونٍ وحواشٍ وتعليقات، وقد كانت حلقة الأزهريين في ذلك الوقت تتساءل عن اسم نابليون أهو معرب أم مبني؟

وشجعه الاستبداد السياسي والانصراف عن الطبيعة - الفانية - إلى الولوج بالتصوف كصيغة نهائية لتطبيق الزمان والمكان، عوض الاندغام فيهما، وفي الجهة المقابلة يتناول المارد الغربي-عاصب الغيم على المفرق- في صحة وشباب وقد نفى غبار القرون الوسطى عن عينيه مقتحما السماوات والأرضين باحثًا ومنقِبًا ومرَوِّضًا عنفوان الطبيعة، محقِّقًا الصيغة الإنسانية للحضارة بعد أن عاش أحقابًا طويلة في سراديب النص المقدس التي نفاها إليها رجال الإكليروس.

ولقد سجل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي(1822/1754) رواية النهضة والشاهد على وقائع الحملة الفرنسية عن جرأة العادات الاجتماعية الغربية والنساء الفرنسيات الساحرات المنطلقات في الشوارع وتحدث عن المسرح والمطابع والتجارب الكيميائية العجيبة.

وهاهو العميد يسجل بقلمه السلس وأسلوبه الرائع مظاهر الجمود والتخلف في راعته (الأيام) والتي تكتسي أهمية عظمى في توثيق الحياة الاجتماعية والسياسية لمصر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وإذا كان الطهطاوي قد سجل مشاهدات وانطباعات شرقي يعيش في باريس في الثلث الأول من القرن التاسع عشر في (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، سوف يصبح ذلك الكتاب ضياء تنبلج به الأصباح وجسرًا للتواصل الحميم بين الشرق والغرب،تماما كما سوف تصبح سيرة طه حسين الذاتية جزءها الثاني.

لا مرية أن عميد الأدب العربي مدين في مشواره العلمي لمبادرة محمد علي باشا ولبعثاته العلمية التي أثمرت في النهاية الجامعة المصرية الحديثة يعلم فيها المستشرقون وليف من أبناء مصر الذين تعلموا في أوربا تعليما حديثا كأحمد لطفي السيد مترجم فن الشعر لأرسطو إلى اللغة العربية والذي اكتشف مواهب طه حسين وطموحه فيسر له بعد ذلك السفر إلى فرنسا للاستزادة من العلم وتوجت تلك الجهود بشهادة الدكتوراه عن الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون.

إن قارئ الأيام لا شك تأخذ تلك الأجزاء الخزينة والتي برع الكاتب في رسم أجوائها الخزينة في قريته عزبة الكيلو في إقليم المنيا في صعيد مصر وهي أجواء كانت تميز كل الأقاليم العربية، فالأسرة كثيرة العدد والفقر مدقع والدخل محدود والمرأة ملفوفة في وشاح الجهالة صامتة كأنها جلود صخر وقد نظر لصمتها بمراسيم فقهية وأقطع من ذلك الحلاق الذي يمتنن التطيب فيذهب بنور العينين إلى الأبد.

ولعل المنطلق في التغيير هو التعليم ولعل الداء في التعليم أيضاً. إن التعليم غير الصحيح، غير المنسجم مع الواقع وتغيراته والذي يكتفي من الإرث الإنساني ومن الكون برمته بالمتون حفظاً واستظهاراً وبالشرح والحواشي والتعليقات دراسة سينتهي بصاحبه إلى شل قدراته العقلية وإبادة كل مظاهر الحيوية والديناميكية في خلاياه لينتهي حثة منحنطة تدعى الحياة وما هي بحية.

ولا عجب أن يجد الشاب الأزهرى طه حسين ملأً وفتوراً وهو يتردد على حلقات الشيوخ الأزهريين وسينتهي به المطاف إلى التمرد ثم الثورة على العلم الأزهرى والحملة الشعواء عليه في عبارته الشهيرة "لا بد من هدم قرطاجنة"

لقد تنسّم الفتى نسائم جديدة في الجامعة المصرية، وسمع بأداب ما أتيح له أن يسمع بها من قبل، وبعلم لا يعرفها الأزهريون قط، وكلها تويّج الأفق وتمهّدب الذوق وتفتح العقل على ثمار الحضارة، وسوف ينقل جرثومة النماء إلى الجامعة معلماً أدبياً ليس كما عرفه السلف على أنه الأخذ من كل شيء بطرف، وأن أصوله بيان الجاحظ وأمالي القابلي وأدب ابن قتيبة وخزاعة البغدادي، ولكن من حيث كونه إنتاجاً عاكساً للتاريخ في صيرورته وللبيئة ومعطياتها المتغيرة ملقياً على مسامع الطلبة أسماء جديدة كثيرين وبوالو وغيرهما.

وإذا كان الشك طريقاً إلى اليقين فما أحوجتنا- نحن العرب- إلى هذا المبدأ، إن إعجاب طه حسين بأبي العلاء ليس لاشترآكهما في آفة واحدة؛ ولكن لأن أبا العلاء عبّر في لزوميته عن مبدأ الشك هذا قبل ديكارت وأمعن فكره الثاقب في الثابت والمتحول وفي عالم الغيب وعالم الشهادة:

في اللاذقية قنته

ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يدق

ق ، وذا بممذنة يصيح

كل يعزز دينه

لبت شعري ما الصحيح؟

وهو يؤكد على حقيقة الشك الذي هو طريق إلى اليقين حين يقول:

أثبت لي خالقًا حكيماً

ولست من معشر نفاة

وُحْن في ميسس الحاجة إلى أن نشك في تراثنا الشعري القديم في غياب التدوين وانتشار الأمية في ذلك الوقت وظهور التنافس السياسي والمطامع الشخصية في الأحزاب السياسية التي دفعت إلى التقول على الشعراء ما لم يقوله دفعًا لضرر أو جلبًا لمصلحة وحتى الحديث النبوي لم يسلم من ذلك فما أكثر ما تقول الناس على الرسول الكريم ما لم يقوله!

ثم إن التسليم بأن ذلك التراث الشعري صحيح برمته ضرب من الخبل ومخافة لحقائق التاريخ ومنطق العلم، ومن المغالاة في الخطأ تقديس ما تناول بالشرح النص المقدس، إذ إنه جهد بشري في فهم النص يحتمل الخطأ أو جزءًا منه أو يحتمل الصواب أو نصيبًا منه.

لقد سبب ذلك تخلف العالم العربي فالجوهر الذي يحتمل حيزًا ضيقًا حين تمظهر في الفهم والممارسة صار بلا حدود وما المظهر إلا الفهم والممارسة لكنهما اكتسبا طابع المعيارية والإطلاق والسرمدية وبذلك انتفت مبادئ الاختلاف والتعددية والنسبية وقضية المرأة أحد التحليلات لهذه المعضلة التي قصمت ظهور الأوائل والأواخر.

لقد كان طه حسين مدرّكًا لنشر كتاب عن الشعر الجاهلي في ظل وجود سلطة دينية وصية على النص لها شرعيتها التاريخية في اللاوعي الجمعي المقهور والذي يعني رهابًا وفصامًا وهي يمكنها بجرة قلم تكفير رأي أو إهدار دم، ولكن لا مفر من نشر الوعي وبذر بذور الفكر العلمي، واحتمال الأذى بصبر وأناة، ولقد كانت تجربة مريرة أن يُعزّل الكاتب من منصبه، ويحاصر في بيته، ويعيّر بعاهته؛ ونظرًا لقوة التحالف القائم بين السلطتين السياسية والدينية وإدراكهما للخطر المحدق بمما نتيجة بذور التجديد والتغيير والاختلاف والشك الذي هو طريق إلى اليقين اضطر الكاتب إلى حذف فقرات أسخطت الساخطين عليه وهيجت المتظاهرين ولكن لا تراجع عن الكتاب وعن مبدأ الشك.

وكان الكاتب يقدم مثلاً للمناورة حين يقول الكاتب لا وهو يريد نعم، وحين يتظاهر بالعدول عن موقفه -لا جيبًا- ولكن حفاظاً على الحياة لمزيد من العطاء والمقارعة، ولقد اضطر جاليليو إلى التظاهر بالعدول عن فكرته في القول بدوران الأرض أمام محكمة التفتيش حفاظاً على حياته وعلى استمرار البحث، وأوصى كوبرنيكوس بنشر كتابه عن الهليوسنترزم (مركزية الشمس) بعد وفاته، أما جيوردانو برونو فالخرن على أفكاره قاده إلى الموت حرقاً، وهو نفس الخطأ الذي ارتكبه سقراط لما جاءه تلاميذه يعرضون عليه الهرب فأبى مكتفياً بالقول أن القانون الذي حماه بالأمس مواطناً يحمه هو اليوم مذنباً.

ترى لو لم يفعل ذلك طه حسين أكان علي عبد الرازق يجزؤ على نشر (الإسلام وأصول الحكم)، وزكي نجيب محمود (المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري)، وحسين أحمد أمين (دليل المسلم الخزين)؟ وصولاً إلى محمد أركون الطيب تيزيني وعبد الله العروي وبرهان غليون وغيرهم.

وحين تولى طه حسين وزارة التعليم أعطى المثل حين يمارس المثقف قناعاته ونضاله الفكري والتنويري، فقد دافع عن مجانية التعليم مطلقاً عبارته الشهيرة "التعليم كالماء والهواء"، أي: مجاني، مما جعل خصومه- وما أكثرهم - يطلقون عليه لقب "وزير الماء والهواء"!

ولقد حاض الكاتب الكبير معارك ضارية مدافعاً عن رسالة التجديد ومبدأ "الأدب للحياة"، واكتست تلك المواجهات على صفحات الجرائد السيارة طابع الشراسة - حد الألفاظ النابية- خاصةً مع الرافعي - شيخ المحافظين- حتى أن الرافعي تحمك من طه وكتابه عن الشعر الجاهلي في مقولته الشهيرة: "إسفنجة جاءت لشرب البحر، وشمعة تصدى لشمس الظهر، وطه في نقد الشعر"، فرد عليه طه حسين بقوله أن الرافعي حين يشرع في الكتابة يقاسي آلام الوضع، إشارة إلى التكلف.

ولا تكتمل رسالة التنوير إلا بمد جسور مع الفكر العالمي في صيغته التاريخية والحديثة عبر تعريب روائع الفكر الإنساني، ولقد كان المفكر الكبير مدركاً لقيمة الفكر والأدب اليونانيين فعرّف القارئ العربي بما في نظام الأثينيين ومسرحيات سوفوكليس، وأما الحديثة فترجمات لمسرحيات فرنسية ذائعة. فلا مستقبل لأمة تغمض عينيها عن ثمرات الفكر والأدب وسوف يعود إلى تأكيد هذا المبدأ في (مستقبل الثقافة في مصر): هو أن نأخذ من الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها، ما يجب منها وما يكره وما يحمدها وما يعاب"، وسوف يؤكد على بعدين أساسيين في نخضة

مصر الحديثة: أولهما البعد الفرعوني، وثانيهما المتوسطي، فمصر تشرف على البحر الأبيض وتربطها بأوروبا وشائج من القرباة التجارية والفكرية والجغرافية، أو لم يتجسد هذا التقارب في عصر البطالسة حين كانت الإسكندرية قطب العالم المتنور المتحضر المبدع؟

لكن طه حسين لم يقبل قط بفك الرابطة مع العالم العربي وهو رئيس مجمع اللغة العربية

وسفير العالم العربي إلى الإنسانية قاطبة، ليس في دعوته غلو كما في دعوة سلامة موسى بالأمس وأحمد رجب اليوم حين يدعو إلى جمهورية مصر الفرعونية محافياً منطلق التاريخ والجغرافيا معاً، ولا كان متنصلاً من قيم الإسلام وقد كتب روائع لعل أهمها: (على هامش السيرة، ومرآة الإسلام، والفتنة الكبرى، والوعد الحق والشيخان).

ولا يكتمل التنوير الفكري بغير تنوير سياسي ولقد انخرط الكاتب في حزب الأحرار الدستوريين الذي أسسه عدلي يكن، ويمكن القول أن تأثير فكر الثورة الفرنسية ومبادئ حقوق الإنسان التي سيطرت على عقول منخرطيه، وقد نور الطهطاوي عقول مثقفي ذلك العصر بترجمة القانون الدستوري الذي نشره جيزو وزير التعليم في حكومة الملك لويس فليب، وأهمها الترويج للفلسفة السياسية التي كان يستند إليها، ومن ركائزها: صيانة الحقوق والحريات الفردية، وإقامة نظام نيابي برلماني حر، وصيانة الحرية في الحياة الشخصية والاعتقاد والاختلاف والتعبير عن الرأي بكل الطرق الممكنة، ومن ضمنها حرية الملكية التي لا تقل احتراماً عن حرية التفكير التي تصونها السلطة القضائية والعدل الذي هو أساس العمران والشورى اللازمة للحاكم وتديير الدولة الحديثة.

وأخيراً ماذا يبقى من طه حسين للقرن الواحد والعشرين وللمستقبل العربي؟

من المؤسف أن الأمة العربية تسجل تراجعاً في التبشير بفلسفة الأنوار والسعي إلى دولتها والعيش في حماها، وكأن هذا العصر الرقمي زاد من سذاجتنا وغفلتنا فازددنا تعلقاً بالقشور على حساب اللباب وبالرماد على حساب الوهج، وبالأمس على حساب اليوم، وبالحنن على حساب الفرح، وانظر إلى قضية المرأة كأنها لم تبرح مكانها منذ كتابات قاسم أمين، واليوم يطلع علينا من يفتي بأن صوتها عورة ناهيك عن كشف وجهها وخوضها في شؤون الفكر ومعتك السياسة، وانظر إلى قضية الاستبداد تجدها معضلة المعضلات لم تجد نهايتها في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد) للكواكبي، واليوم يحف بالحاكم لفيف من أذعياء الفكر يسبحون بمجده بكرة وعشياً فيزيدون من تخلف القطعان

البشرية. وأين العلم الذي بشر به فرح أنطوان وشبلي شمائل ويعقوب صروف فما عاد إلا علم الإعجاز القرآني وكلما طلع علينا الغرب بنظرية قلنا لها سوابق في الكتاب الكريم!

إن الواقع العربي المتردي يفرض اليوم تنويرًا جديدًا، بل ثورة فكرية تغير واقعنا وتتجاوز المحاولات التأسيسية للرواد بمن فيهم طه حسين نفسه.

إن هذه الطفرة التنويرية هي من قبل الثورة التي دعا إليها الدكتور حسن حنفي في (قراءة عربية للنهضة الأوربية): أما عصر النهضة العربية فقد آثر قراءة انتقائية للنهضة الأوربية تتفق مع الموروث القديم دون أن تتخلص منه واكتفى بالتلميع للقديم نفضًا للتراب والصدأ عنه، وكان أقصى طموح للإصلاح الملكية المقيدة بالدستور دون تفويض جذري للنظم الثيوقراطية والإقطاعية والملكية، بالرغم من ثورات العرب الحديثة وكتاباتهم في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ظل الإيمان بالقديم قائمًا وكل من شك فيه تم تكفيره حتى ولو كان في الشعر العربي وقضية الانتحال أو في الحوامل الزمانية والمكانية واللغوية والإنسانية للوحي في فهم النص الديني استدراكا على أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

فما أحوج أمتنا إلى ثورة ثانية تغسل ما بها من درن وركود وتقليد تحت غطاء العلم وحنوع تحت ستار الطاعة، وعزوف عن الحياة بحجة الزهد في الدار الفانية وجبن عن اقتحام المجاهل حتى الموت حتف الأنف لنشرف على الحياة فنشبع من هوائها ومائها ومماؤها ووحلها فقد طال بنا الأمد في مغارات التاريخ وكأننا ما بقي متحجرًا من كائناها البائدة.

ابن الرومي باكيا (1)

رثاؤه لولده

شاعر فذ من شعراء العصر العباسي لم ينل حقه من الإعجاب والتقدير حتى العصر الحديث حين قيضت له الأقدار عباس محمود العقاد فكتب عنه كتابه المشهور "ابن الرومي حياته من شعره" واقفا على أسرار حياته، غائصا في أدق

(1) . مجلة أفلام ثقافية غزة 2007 .

دقائق سريره متحمسا لشعره، كاشفا عن مكامن الفن فيه وآيات، التفرد وللعقاد على ابن الرومي دالة بعد أن أنصفه كما أنصف غيره من الذين اعتقد أن الإجحاف والنكران لحقا بهم .

وإذا كان ابن الرومي غريب الأطوار وأخص خصيصة فيه تشاؤمه وتطيره بالناس إلى الحد الذي كان يلزم فيه بيته أياما إذا تطير بشخص، كما عرف عنه الشره، ولئن كان في حياته قد عانى من إهمال نقاد الشعر له وعدم احتفاء البلاط به فقد آذته هذه المعاملة الماكرة في نفسه وهو الذي كان يقدر مواهبه وعبقريته الشعرية التي بذت العرب في أخص خصيصة فيهم وهي عبقرية البيان لا جرم أنه شعر بالضيم واجتر المرارة ونزف الجرح في أعماقه غير مندمل فانقلب لسانه سوطا يسوم به خصومه سوء المقال تشفيا منهم ومن الزمن الذي غمطه حقه وبخسه ثوابه أوليس هو القائل:

نحن أحياء على الأرض وقد

حسف بنا الدهر ثم حسف

أصبح السافل منا عاليا

وهوى أهل المعالي والشرف

يسفل الناس ويعلو معشر

قارفوا الإقراف من كل طرف

ولعمري لو تأملناهم ماعلوا

ولكن طفوا مثل الجيف

ولقد تحول الهجاء عنده إلى فن عرف به وصار وقفا عليه وهو الهجاء الساخر والكاريكاتورى يلبس به جراحه ويفكه به خاطره بعد أن يتردى خصمه في دركات النقص والجهالة والبلادة ومن أمثلة ذلك قصيدته المشهورة في هجاء شخص يدعى عمرو من مخلص البسيط التي منها هذا البيت:

وجهك يا عمرو فيه طول

وفي وجوه الكلاب طول

وسخريته من صاحب لحية طويلة ربما أذى شاعرنا فتهكم منه في مثل قوله:

علق الله في عذاريك محلا

ة ولكنها بغير شعر !

غير أن ابن الرومي كان شاعرا حقا فإذا نفر منه الخلفاء والأمراء وأفردته العامة إفراد البعير الأجرع عاد ذلك على الأدب بالخير العميم ، فقد تنزه شعره عن أن يكون شعر المناسبات وقصائد المديح الرنانة الفارغة المضمون، وهو في وصفه لقالى الزلابية ووصفه لقرص الشمس وقت الأصيل وللأحذب أشعر منه من كبار الشعراء الذين وقفوا مواقف مخزية فرفعوا ممدوحهم إلى مصاف الآلهة ووقعوا في مبالغات كاذبة واهية لا تمت إلى روح الفن بصلة طمعا في عرض ينالونه ولو أدى ذلك إلى الكذب و البهتان .

بل ترى في شعره فلتات إنسانية ونفسا مرهفة الحس ووجدانا متعاطفا مع مظاهر النقص في بني البشر كقصيدته في وصف " الحمال الأعمى " ذلك الذي مر به فقهاء ورجال دولة وشعراء وأعيان وعامة فلم يلتفت إليه أحد ولا أحس بمعاناته فرد إلا الشاعر الذي قال فيه :

رأيت حمالا مبين العمى

يعثر بالأكم و في الوهد

محتملا ثقلا على رأسه

تضعف عنه قوة الجلد

بين جمالات و أشباهها

من بشر ناموا عن المجد

والبائس المسكين مستسلم

أذل للمكروه من عبد

فالشعر عنده كما ترى للحياة والشاعر هو قلبها لا يراعي إلا الصدق مع نفسه وفي فنه مطرحة عنه التقليد نابذا
التكلف واجدا الشعر في قرص الشمس وفي حجر يسقط في بركة ماء وفي وصف مائدة دسمة وفي هجاء إنساني
يخفف به الشاعر من غلواء الزمن وتبايح الحياة.

وقد مات للشاعر ولده الأوسط وكان صغير السن فرثاه رثاء إنسانيا حارا تحس فيه بشهقة الروح وسخونة الدمع
والعجز أمام جبروت الموت فكان في رثائه كما كان في سائر شعره مبدعا ، أصيل العبقرية مكين الأدوات الفنية .

والعجيب أن الشاعر اختار للقصيدة التي رثى بها ولده وهي من الطويل وقافيتها من المتواتر حرف " الدال " وهو
اختيار اتفق عليه كثير من الشعراء الذين رثوا أحبائهم منذ الأدب الجاهلي إلى الأدب الحديث فأحدى قصائد الخنساء
الشهيرة في رثاء أخيها صخر دالية :

أعيني جودا و لا تجمدا

ألا تبيكان لصخر الندى ؟ !

وقصيدة حسان بن ثابت الأنصاري في رثاء النبي - عليه السلام - دالية كذلك :

بطيبة رسم للرسول ومعهد

منير وقد تعفو الرسوم وتحمد

أما قصيدة المعري المشهورة في رثاء صديقه " أبي حمزة الفقيه " والتي هي في مضمونها رثاء للإنسانية جمعاء دالية أيضا:

غير مجد في ملتي واعتقادي

نوح باك ولا ترثم شاد

ومن الأدب الحديث قصيدة الشاعر محمود سامي البارودي في رثاء زوجته وهي كذلك دالية :

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي

تقوى على رد الحبيب الغادي

وفقيد شاعرنا هو ولده " محمد " وقد صرح باسمه في قوله:

محمد ما شيء توهم سلوة

لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد

وهو أوسط صبيته لقوله كذلك :

توحي حمام الموت أوسط صبيتي

فلله كيف احتار واسطة العقد !

وهو إن كان الأوسط فهو صغير وما أشد براعة الشاعر في الإشارة إلى ذلك بقوله :

لقد قل بين المهدي واللحد مكته

فلم ينس عهد المهدي إذ ضم في اللحد

ولقد مات الولد بنزيف حاد أبدله صفرة بعد حمرة الورد ونحوها وضعف قوى نتيجة لفقد الدماء:

ألح عليه النزف حتى أحاله

إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد

وظل على الأيدي تساقط نفسه

ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

ونحتاج إلى طبيب أديب متذوق للشعر ليشرح لنا مرض الولد الذي أودى به، فقد اهتم في العصر الحديث فريق من الباحثين من ذوي الاختصاص وهواية الأدب والتاريخ بدراسة أقداز من الماضي بل تشخيص أدوائهم التي أسلمتهم إلى الموت فنابليون بونابرت شخص دواؤه على أنه سرطان المعدة وابن سينا سرطان القولون بل قرأنا لطبيب أديب يشخص الحمى التي ذكرها المتنبي في قصيدته المشهورة والتي كان من أعراضها أنها لا تنتابه إلا ليلا وتصيبه بقشعريرة لا تدفعها عنه المطارف والحشايا :

وزائرتي كأن بما حياء

فليس تزور إلا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا

فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجلد عني وعنهما

فتوسعه بأنواع السقام

وقد أصيب امرؤ القيس بمرض جنسي خطير لعله " الزهري" نتيجة شبقيته وعلاقاته الجنسية المتعددة حتى سمي بذي القروح لقوله :

وبدلت قرحا داميا بعد صحة

فيا لك نعمى قد تحول أبؤسا !

و أنت إذا قرأت قصيدة ابن الرومي هذه في رثاء ولده تقع على وصف جاء بتمامه في وصف امرئ القيس لعلته على الرغم من تباين الداء والأعراض والعمر :

فلو أنها نفس تموت سوية

ولكنها نفس تساقط أنفسا

ويقول ابن الرومي في ولده :

فيا لك من نفس تساقط أنفسا

تساقط در من نظام بلا عقد

وأما داء الولد الذي أودى به فلا ترى فيه أثرا للذكر الحمى ولو اصطلحت على بدن الطفل ما أغفل الشاعر ذكرها وعهدنا بالصغار يقعون فرائس لها ولا إشارة لأي إسهال مميت وما أصيب الولد به أصلا ، وما كان شاعر وصاف مستقص لدقائق الأشياء أن يغفل أشياء خطيرة كهذه لو انتابت ولده، إنما هو استمرار النزف والنحول والنحطاط القوي الذي أسلم الولد الرطب العود إلى يد المنون .

وما من إنسان قرأ هذه القصيدة إلا وتعاطف مع مصاب شاعرنا تعاطفا وجدانيا يححو أثر الزمن الذي قيلت فيه وكأن الولد مات لساعته والشاعر حديث عهد بإبداع هذه القصيدة المؤثرة ، وترى كذلك الوالد حزينا ولكنه الحزن الهادئ ، والنفس الراضية بالقدر لأنه لا مرد لقضاء الله وهو الحزن الممض كذلك والجرح الدائم ولكن بغير عريضة وجموح وما أبدع وصف الشاعر لهول المصاب بمثل قوله :

وما سرني أني بعته بثوابه

ولو أنه التخليد في حنة الخلد

وفي القصيدة بيت ذائع جرى مجرى الحكم وهو قوله :

وأولادنا مثل الجوارح أيها

فقدناه كان الفاجع البين الفقد

ثم يستدل الشاعر على ذلك بتشبيه الأولاد بالحواس وأن حاسة لا تغني عن حاسة

وكأنه يرد ضمنا على الذين عزوه في ولده وذكره أن في ولديه الباقيين سلوى

وعزاء له إلا أن الشاعر في تشبيهه الأولاد بالحواس يصير على أن لكل مكانه وموقعه:

لكل مكان لا يسد اختلاله

مكان أخيه من جزوع ولا جلد

هل العين بعد السمع تكفي مكانه

أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي؟

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر في شعر الشاعر إضافة إلى دقة التصوير وتلك هي ملكة النفاذ إلى باطن المعنى والظفر بمكونه فتراه يخرجها لنا وقد استوفى الدقائق فلا نطلب مزيدا وهي تشبه ما نعرفه في النثر تحت اسم " جوامع الكلم " ، ويجوز لنا أن نسميها ملكة الإيجاز أو جوامع النظم قياسا على جوامع الكلم فهو بعدد محدود من الكلمات أو من الأبيات يقف على مضمون المعنى الذي يريد التعبير عنه ويترك الكلمات توحى

ودلالة تستنسل من دلالة دون أن يكلف نفسه عناء التطويل وقرأ قوله في القصيدة ذاتها :

على حين شمت الخير من لمحاته

وأنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عني فأسمى مزاره

بعيدا على قرب قريبا على بعد

وهو أبداع وصف للقبر ، أو كما يقول البلاغيون كناية عن موصوف فصاحبه قريب بجسده الذي فارقت الحياة بعيد بالروح التي عرجت إلى العالم الآخر ، ولا تقرأ البيت الذي قبله إلا أوحى إليك بما كان الشاعر يأمله من الولد وما كان يتوسم فيه من خير ومن مستقبل زاهر ولعله توسم فيه أن يكون خليفته في الشاعرية لولا خطفة الموت العاجلة ولم يشأ الشاعر أن يتقل قصيدته هذه بالتطرق إلى قضية المصير وحدوى الحياة ومعنى الوجود ولغز الموت كما فعل المعري في قصيدته المشهورة في رثاء صديقه أبي حمزة الفقيه وقد أتينا بمطلعها لما كنا بصدد الحديث عن اشتراك كثير

من قصائد الرثاء في روي واحد هو حرف " الدال " إنما حزن ابن الرومي حزن ذاتي نقي لا تخالطه شائبة الفلسفة ولا عكر الفكر هو أشبه بالحنن الطفولي في غضاضته وفي إبهامه وغموضه وأصالته التي هي سره فهو إذا البكاء المتجدد والحسرة الباقية ولو أن الزمن سوف يجعل الأحران أثرا بعد عين :

سأسقيك ماء العينين ما أسعدت به

وإن كانت السقيا من العين لا تجدي

والشاعر تراه عدل عن كلمة " أسعفت به " إلى أسعدت به عن قصد حتى تكون المسرة بالبكاء عنوان ذكرى دائمة ووفاء مستديم ، وعهدنا بالشعراء شرقا وغربا يستجدون العبرات لأن البكاء آية وفاء وتجدد ذكرى ولا ينسى الوالد المفجوع أن ينعى على الزمن جبروته وإعصاره الذي يذرو اللحظات السعيدة هباء فتغدو كسراب مستقبل ومستدير ألم يقل امرؤ القيس كذلك :

كأني لم أركب جوادا للذة

ولم أتظن كأعبا ذات خلخال

ولم أ سبأ الزق الروي مرة

ولم أقل لخليبي كرى كرة بعد إجحاف

وأما شاعرنا فيقول عن تلك الحسرة:

كأني ما استمتعت منك بضمة

ولا شمة في ملعب لك أو مهد

وأما أبلغ الأبيات تأثيرا في وجدان القارئ فهي تلك الأبيات التي يتحدث الشاعر فيها عن حسرته إذا رأى ولديه المتبقيين يلعبان لأتھما يذكرانه بمحمد واسطة العقد كما وصفه وقد ذهب فأورث ولده غصبة متجددة وكندا دائما:

أرى أخويك الباقيين كليهما

يكونان لأحزان أورى من الزند

إذا لعبا في ملعب لك لذعا

فؤادي بمثل النار عن غير قصد

فما فيهما سلوة بل حرارة

يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

وفي قوله " عن غير قصد " يكشف الشاعر لمرصديه أحد أسرار عبقريته وهي استقصاء أدق الأشياء مع الاقتصاد في الكلمات حتى يسلم شعره من الحشو وأفة التكرار، فالولدان يلعبان وبمرحهما يثيران الشجن لوالدهما ولا قصد لهما أن يؤذياه أبدا

وبعد أن قال القدر كلمته وسل الموت سيفه مغمدا إياه في قلب الولد مسلما إياه إلى وحشة القبر ، لم يبق للوالد الذي لا حول ولا قوة له إلا تحمل شدائد الكمد وأهوال الجزع متعزيا بولديه المتبقيين وهما أيضا منبع حزن ومصدر جزع لأتھما يذكرانه بالفقيد العزيز . فلا كلمة أجدى إلا الدعاء له بالرحمة واحتسابه عند الله والصبر طريق إلى الجنة :

وأنت و إن أفردت في دار وحشة

فإني في دار الإنس في وحشة الفرد

عليك سلام الله مني تحية

ومن كل غيث صادق البرق والرعد

وبعد :

فلقد عهدنا ابن الرومي شاعرا محبا للحياة ، شغوفاً بلذاتها متمسكا بأطاييها وهو لم ينس الثمار حتى وهو يصف النساء في مثل قوله :

أجنت لي الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان تفاح ورمان

وبين ذينك أعناب مهدلة

سود لهن من الظلماء ألوان

كما عهدناه ساخرا مبتكرا لهن الهجاء الكاريكاتوري ، فالدنيا التي تناولت على عبقرية الشاعر ولم توفه حقه من الإكبار والتقدير شأنه شأن غيره من الشعراء الذين كانوا دونه عبقرية وملكة شعرية، فهذه الدنيا لا تستحق غير السخرية والقهقهة منها ومن قيمها وأعيانها ومراتبها.

وها نحن في هذه القصيدة نعهد ابن الرومي شاعرا بأكيا من الطراز الأول، وصف حسرته أدق وصف بلا صخب أو ضوضاء كما فعلت الخنساء في رثاء صخر ، ولم يشأ أن يضمن قصيدته فلسفة ولا تأملات في الحياة والموت كما شاء - رهين الحبسين - أبو العلاء المعري، فجاءت قصيدته نضاحة بالدلالات الحزينة فضاحة للكمد المعشش في قرارة نفسه كأنه لبد !

ولئن رحل محمد ولم ينعم بالحياة كأخويه اللذين لا نعرف حتى اسميهما فقد عاش قرونا وسوف يعيش أخرى في قصيدة أبيه وحسبه أن يحيا حياة أدبية في ديوانه لا يناله كبر ولا يقوى عليه مرض ولا يمحو ذكره من الوجود زمن!

أبو العلاء المعري فلكيا ⁽¹⁾

أبو العلاء المعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ، وأحد كبار الشعراء العرب وأعمقهم ثقافة وأرسخهم قدما في علوم العربية والمنطق والفلسفة ، وأحد القلائل الذين لهم خبرة بالنفس الإنسانية و تقلباتها. ويزيد إعجابنا بسعة ثقافته إذا تقصينا شيئا من ثقافته الفلكية .

يبهر أبو العلاء المعري من له دراية بالفلك ، ويحار في الدقة التي يصف بها الشاعر المجموعات النجمية ، طلوعها وشروقها الواحدة تلو الأخرى وهو الضرير الذي حرم من متعة النظر إلى السماء !

ولقد أكثر المعري من ذكر النجوم والكواكب، ولا حرم أنه كان يعظم شأنها وهو القائل عن زحل :

زحل أشرف الكواكب دارا

من لقاء الردى على ميعاد

(1) . مجلة العربي الكويتية العدد 548 يوليو 2004.

والمعري كغيره من المثقفين في العصر العباسي الأول والثاني الذين اطلعوا ولا ريب على مؤلفات أفلاطون وأرسطو وبطليموس ، والإشارة هنا بقوله "أشرف الكواكب دارا " إلى كون زحل الكوكب الأبعد مدارا حول الأرض لا حول الشمس لأن النظرية البطليموسية وفحواها أن (الأرض مركز الكون) سادت حتى عصر كوبرنيكوس ، ولهذا وقف الإنسان القاسم في تعرفه على الكواكب عند زحل لأن الكواكب الأخرى

(أورانوس ونبتون وبلوتو) لا ترى إلا بالمناظير القوية. وقد كان المعري مؤمنا بفناء المادة وانحلال الكون من حيث هو نجوم وكواكب فيقول مباشرة بعد البيت السابق:

ولنار المريخ من حدثان الد

دهر مطف وإن علت في اتقاد

والثريا رهينة بافتراق الشم

حمل حتى تعد في الأفراد

واللبيب اللبيب من ليس يغتر

ريكون مصيره للفساد

اقتران الكواكب

وفي لزوميات المعري إشارات فلكية تخفى على كثير من المثقفين في عصره و في غيره من العصور . كإشارته إلى اقتران الكواكب ، وهو من الناحية الفلكية اجتماع كوكبين أو أكثر في برج من البروج في أقرب مساحة ممكنة ، وإذا علمنا أن بعض الكواكب لا يتم دورة واحدة حول الشمس إلا خلال عشرات السنين اتضح لنا أن هذا الأمر نادر الحدوث . ومن الاقترانات التي تناولها المعري ما تعلق بكوكبي المشتري وزحل وقد كان القدماء يتفاءلون خيرا بهذا الاقتران ، على العكس من تشاؤمهم من ظهور المذنبات . يقول المعري :

قران المشتري زحلا يرحى

لإيقاظ النواظر من كراها

غير أن المعري يخونه التوفيق في بيت من هذه القصيدة حين يؤكد ثبات مواقع النجوم :

تقضى الناس جيلا بعد جيل

وخلفت النجوم كما تراها

فالذي هو ثابت اليوم أن النجوم في حالة حركة، وأن كثيرا منها سيغير موقعه بعد آلاف السنين، فمجموعة "الدب الأكبر" لن يكون شكلها كما نراها اليوم بل سيغير نتيجة لحركة نجومها !

وفي قصيدة "عللاني" وهي قصيدة نظمها الشاعر في عهد الشباب حاول فيها أن يحاكي المبصرين في دقة الوصف ، متعاليا على عاهته ، وقد نجح في ذلك إلى حد الإعجاز ، وأدعو القارئ إلى قراءة هذه الأبيات ومراجعة ذاكرته حول أسماء النجوم الواردة في هذه القصيدة ، وعن الفصل الذي تشرق فيه وتغرب إن كان من الملمين بالفلك ، يقول أبو العلاء :

ليلتي هذه عروس من الزن

ج عليها قلائد من جمان

وكأن الهلال يهوى الثريا

فهما للوداع معتنقان

والمؤكد أن الشاعر نظم هذه القصيدة في أواخر الربيع ، لأن برج الثور حيث توجد مجموعة "الثريا" لا يكون بالأفق الغربي إلا في أواخر هذا الفصل حيث تنزله الشمس في شهر مايو فتنحجب عن الأبصار .

فإذا كان الهلال ابن أيام قليلة في أواخر الربيع نزل في برج الثور فيرى بعد مغيب الشمس في هذا البرج ، وقبل هذا البيت يقول المعري :

وكأني ما قلت والبدر طفل

وشباب الظلماء في العنقوان

نجم سهيل

وقد أولع المعري بذكر نجم "سهيل" وهو نجم عملاق أحمر يبعد عن الأرض بحوالي أربعمئة سنة ضوئية وهو جد مهم في الملاحة الفضائية لأنه يستخدم كنقطة مرجعية في توجيه السفن الفضائية في رحلاتها ما بين الكواكب ، ويقع هذا النجم في كوكبة (الجَوْجُو) التي تشكل جزءا من المجموعة النجمية العملاقة "السفينة" فماذا يقول الشاعر عن هذا النجم؟:

وسهيل كوجنة الحب في اللو

ن وقلب الحب في الخفقان

ضرجته دما سيوف الأعادي

فيكت رحمة له الشعريان

ولن نحوض في الجمال الأدبي الأخاذ الكائن في هذا الوصف، ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى أن هذا النجم لا يرى من العروض الشمالية "كسورية" حيث عاش الشاعر بسبب وجوده تحت خط الأفق وهو في جنوب الكرة السماوية. ولا تتأتى رؤيته إلا من جنوب الأرض (إفريقيا الجنوبية ، أستراليا ، أمريكا الجنوبية) . والشاعر قد أراد أن يدلل على سعة ثقافته الفلكية ولو لم يشاهد هذه النجوم !

ويختتم المعري قصيدته بالإشارة إلى شروق كوكبة "النسر الواقع" وفيها النجم اللامع "vega" وهي كوكبة تشرق في أواخر الربيع قبل الفجر ثم تتقدم غرب السماء يوما بعد يوم ، وبالتالي تكون محتملة للسمت في فصل الصيف . والعارف بالفللك يحار في دقة المعري في تقصي هذه المجموعات النجمية وهو الضيرير . يقول عن هذه المجموعة :

ونضا فجره على نسره الوا

قع سيفنا فهم بالطيران

ومن النجوم التي أشار المعري إليها في لزومياته وسائر شعره : الشعرى اليمانية والشعرى الشامية ، فأما الأولى فقد عبدتها العرب القدماء ، وقد فند القرآن الكريم هذه الأباطيل والوثنيات فقال تعالى مخاطبا العرب في سورة النجم : "وأنه هو رب الشعرى" . والشعرى اليمانية نجم يبعد عنا بحوالي ثماني سنوات ضوئية وهو من ألمع النجوم ويستأثر بلبنا طوال ليالي الشتاء ويوجد قريبا من مجموعة الجبار " Orion " أو الجوزاء كما أسمتها العرب . وحول هذين النجمين للعرب أسطورة جميلة فحواها أن الشعرى اليمانية هربت مع حبيبها نجم سهيل وعبرت نحر المجرة أي " درب التبان " ولهذا تسمى أيضا بالشعرى العبور ، وظلت أختها الشعرى الشامية تبكي على فراقها دون أن تتمكن من عبور نحر المجرة ولهذا تسمى أيضا بـ"الغميصاء " أي في عينها تفرح من شدة البكاء ، يقول المعري مخاطبا أحد أحواله المكترين للسفر :

إذا الشعرى اليمانية استنارت

فحدد للشامية الودادا

شاعر الفرقدين

وفي قصيدة المعري المشهورة " ألا في سبيل المجد " وهي التي نظمها في عهد الشباب وافتخر فيها بمركزه الأدبي وأخلاقه العالية يذكر نجما هو " السها " وهو نجم خفي في كوكبة الدب الأكبر في الذيل ، كانت العرب تتمحن به قوة البصر وقالت في المثل : " أريها السها وتريني القمر " وهو مثل يضرب للشخص تزيه الأمر الخفي فيضرب عنه صفحا ويتحدث عن الواضح الجلي ! يقول المعري مشيرا إلى هذا النجم :

وقالت السها للشمس أنت خفية

وقال الدجى يا صبح لونك حائل

وهو يشير من خلال ذكر هذا النجم إلى فساد القيم وانقلاب الأوضاع ، إلى درجة أن الحقير الصغير يطاول الشريف الكبير !

وكما ذكر المعري الكواكب وأولع بذكر المريخ و زحل (كيوان) ،

وذكر النجوم البعيدة وفي لروميته يترد ذكر الفراقد أو الفرقدن كما في رثائه لأبي حمزة الفقيه ، والفرقدان نجمان نيران في كوكبة الدب الأصغر أشد إضاءة من النجم القطبي الذي يشير إلى القطب الشمالي ، ومن أسمائهما " حارسا القطب " لأنهما يدلان على النجم القطبي لمن لا يعرفه، يقول شاعرنا مشيراً إليهما :

وكم رأيت الفراقد والثريا

قبائل ثم أضحت في ثراها

وفي مرثيته لأبي حمزة الفقيه يشير كذلك إليهما :

كم أقاما على زوال نهار

وأنارا المدج في سواد

ولم يغفل المعري الإشارة إلى السماكين وهما نجمان عملاقان أحدهما هو " السماك الرامح " في كوكبة " العواء " أو الراعي والآخر هو " السماك الأعزل " في كوكبة " العذراء البروجية " والسماك الرامح ألمع من السماك الأعزل وقد تردد ذكرهما كثيرا في شعر العرب . أما شاعرنا فقد رأى منزلته الأدبية سامية بين السماكين :

ولي منطلق لم يرض لي كنه منزلي

على أنني بين السماكين نازل

وهي قصيدة نظمها الشاعر في عهد الشباب وقد ألمه حسد البعض ومحاولتهم النيل من الشاعر، يصح حكيم المعرة على أن منزلته في الجوزاء ، وفي هذه الكوكبة التي ذكرها الشاعر خلط كبير فالعرب قد تطلقها على مجموعة الجبار " Orion " بدليل أن أحد نجومها وهو من النجوم المصنفة كألمع النجوم تسميه العرب " إبط الجوزاء " وبهذا الاسم عرفه الفلكيون الغربيون " Bételgeuse "

على أن الجوزاء الحقيقية كوكبة بروجية بين الثور والسرطان تنزها الشمس بين 22 يونيو و 21 يوليو وصارت تقع في السميت في العروض الشمالية بدل كوكبة السرطان بسبب مبادرة الاعتدالين وترنح محور دوران الأرض ، ولا نعلم هل

كان المعري يقصد بالجوزاء برج الجوزاء هذا كما شرحناه ، أم جرى على إلف العرب في إطلاقهم هذا الاسم على الجبار؟ المهم أنه يقول :

أفوق البدر يوضع لي مهاد

أم الجوزاء تحت يدي وساد؟

أما الشمس نجمننا الذي يبدد سواد الفضاء ووحشة الكون فقد شغل هذا النجم عقل المعري الجبار وتساءل عن زمن مولد الشمس وأدرك أنه قدم:

ومولد هذي الشمس أعياك حده

وخبر لب أنه متقادم

واستأثر الزمن بفكر الشاعر الفيلسوف كما استأثر بعقول الفلاسفة الإغريق ويعقل نيوتن وأينشتين ، وإن كانت نظرية النسبية قد فصلت في نسبية الفضاء والزمن فالمعري يرى أن تيار الزمن ينساب في الكون و يملؤه ولا توجد نقطة في الكون بلا زمن !

هذه لمحة وجيزة عن ثقافة المعري الفلكية ، فدارس شعره يقف على كثير من الإحالات في قصائده ، وهي كثيرة تستغرق مؤلفا مفصلا ، ولا يزعم كاتب هذا المقال أن الشاعر كان فلكيا ، وإن كان عنوان المقال يوحي بشيء من ذلك فالشاعر كان عقلا فذا استوعب ثقافة عصره واطلع على شيء من الثقافة الإغريقية وربما الهندية والفارسية ، ولهذا جاء شعره ممثلا لسعة اطلاعه و حيرته الفلسفية ، كما جاء ممثلا لطهارة نفسه ونقاوة ضميره من رذائل الكذب والنفاق والأناية وهو القائل:

ولو أني حبيت الخلد فردا

لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بأرضي

حقا إن المعري مفخرة من مفاخر الثقافة العربية وشاعر عظيم من أساطين الشعر و فرسانه الكبار.

أغار على شمسى أو الحنين الى الأوطان في شعر المهجريين⁽¹⁾

إذا كان لمصر فضل السبق في تجديد أدبنا العربي وبعثه في حلة قشبية، موفور الصحة، تام العافية، فقد كانت أرض الكنانة منذ عصر الفاطميين قبلة العالم العربي الثقافية والدينية، ففيها وجد أدباء الشام الحرية والمناخ الملائم للإبداع والنشاط الخصب ونذكر على سبيل المثال-لا الحصر- جرجي زيدان ويعقوب صروف ومي زيادة وغيرهم ، ولطبعة بولاق فضل لا ينكر ومزية لا تجحد في نشر الأدب والثقافة وتعميم نورهما على العالم العربي الخارج لتوه من ظلمات العصور الوسطى، المستفيق من سبات عميق حجب عنه نور العلم وثمره الفكر وإشعاع الحرية، وكيف يجحد فضل مصر وثلاثة من كبار شعرائها هم الذين أحيوا الشعر العربي؟ ونقصد البارودي وشوقي وحافظ، وثلاثة من كبار كتابها هم الذين بينوا الطريق الصحيح للأدب ووجهوا الناشئة إلى دروب الإبداع حسب المقاييس الفنية؟ ونقصد العقاد وطه حسين وإبراهيم عبد القادر المازني.

(1) . مجلة المغرب العربي كندا 2007.

على أن مصر لم تكن في المضمار فريدة فالشام رديفها وصنوها في التجديد والإحياء ورسم معالم النهضة الأدبية الحديثة ولعل هذا ما عناه شاعر النيل - حافظ إبراهيم - حين قال:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب * هنا العلاء وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لازالت ربوعهما * قلب الهلال عليهما خافق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورها * ولا تحول عن مغناهما الأدب
أيرغبان عن الحسنى وبينهما * في رائعات المعالي ذلك النسب؟

فأدباء الشام - سورية ولبنان - لهم في التجديد اليد الطولى وتحديدا أولئك الذين قست عليهم الحياة في وطنهم وشطف عيشهم بعد أن جف الضرع واستعصت سبل الرزق، وتأسن الوضع السياسي بفعل البطش العثماني، فلم يكن أمامهم من باب يطرقونه غير باب الهجرة، ولا من سبيل يلوذون بها غير سبيل الفراق أملا في عيش رغيد وحرية يتعشقونها ومناخ رياحه لواقع وترته بليلة تستنبت بذور الفكر والأدب.

وإنها لمنة نحمدها للأقدار ورب ضارة نافعة، فقد كانت تلك الهجرة فأل خير وبشرى بأدب حي وفكر صحيح وضمير صالح، ولسنا في حاجة إلى أن نذكر بقول شاعرنا أبي تمام:

وطول مقام المرء بالحي مخلق * لديباحتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة * إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

فهذان البيتان من محفوظاتنا المدرسية أتينا على ذكرهما لمجرد التذكير - والذكرى تنفع المؤمنين -.

وإذا ذكر أدب المهجر تبادرت إلى الذهن جماعة الرابطة القلمية في المهجر الشمالي - أمريكا -

والعصبة الأندلسية في المهجر الجنوبي - البرازيل والأرجنتين - وأهل الشام أحفاد الفنيقيين معروفون بارتباد البحار واصطياد الشمس والكمون للقمر تجري المغامرة في عروقهم مجرى الدم أو كما قال شاعر النيل عنهم:

بأرض "كولمب" أبطال غطارفة * أسد جياح إذا ما ووثبوا وثبوا

رادوا المناهل في الدنيا ولووجدوا * إلى الحجر زكبا صاعدا صعدا
أو قيل في الشمس للراحين منتجع * مدوا لها سببا في الجو وانتدبوا
سعوا إلى الكسب محمودا وما فئتت * أم اللغات بذاك السعي تكتسب

ولقد اغتنت أم اللغات بتلك الهجرة الميمونة بالشعر الصافي السلس المنبجس من الوجدان ومن الفكر الحي الصحيح الملقح بالتجارب الغربية حيث الصناعة والعلم والديمقراطية والحرية ودور المرأة الحي الفاعل في المجتمع، وهذا ما نجد صداه في أدب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وآل المعلوف وجورج صيدح وأميرن مشرق وميشال مغربي وعبد المسيح حداد وجورج صوايا وغيرهم ممن يضيق هذا المقال عن حصرهم.

إنما الذي يعيننا في هذا المقال كيف كان الحنين إلى الوطن وإلى الأم وإلى الحبيبة وإلى الشلة وإلى ذكريات العيد، ومرابع زحلة وشواهد صنين ونواعير حماة وخرير بردى سببا في هذا الإبداع الخالد المستل من الوجدان، المكتوب بدم الفؤاد، الممهور بشهقة الروح الفاعلة الخلاقة؟

إن الإنسان حين يهاجر يصاب بالفصام كل حسب استعداداته النفسية وطاقاته الروحية فقد تكونت شخصية المهاجر في وطنه، وتلونت روحه بأطياف الوطن من دين ولغة وعادات وطرائق معيشة بل ومناخ وتضاريس، فحاء فكره انعكاسا لحيطة، ثم ترك وطنه للأسباب التي ذكرناها آنفا فإذا به فسيلة أو شجرة تزرع في تربة غير تربتها الأولى، إنهما عادات جديدة وطرائق حياة مستحدثة وفلسفة في الحياة غير الأولى، والمهاجر مجر على هضم هذا الموضوع وتقبله لينجح في حياته-المادية على الأقل- ولكنه في الواقع وفي غياهب اللاوعي تكمن عادات ولغة وأسلوب معيشته الأول في الوطن الأم، هنا تتجلى المعاناة وتتضخم المأساة، وتنشظى الروح فنجد أشلاءها فيما أنتجه أولئك المهاجرون من شعر ونثر هو الدم والدمع بالنسبة لأصحابه وإكسير البهاء والنقاء لأدبنا الذي غفا في كهف السجع والتورية وشعر المناسبات، وأدب الرسائل الإخوانية المتسمة بالرياء المتسريل بالوقار والكذب المتشاح بوشاح الوفاء بالعهد. إنهما معاناة روحية وجودية وضعت صاحبها بين مطرقة الضرورة وسندان الحبيب الأول(الوطن). على حد قول شاعرنا:

كم من منزل في الأرض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لأول منزل

ونحن في هذا المقال راصدون أشتاتا من تلك المعاناة المتجلية في الحنين إلى مراعب الصبا وحضن الأم وسماء الوطن فيما أنتجه أدباء المهجرين- الشمالي والجنوبي- لنرى كيف كان التحديد في الشكل حين ذابت الأصباغ وتلاشت المساحيق وفي المضمون حين قبر الرياء الماكر والتقليد الأعجم، والانصراف عن الحياة وهموم الناس، وتطبيق المسؤولية الأخلاقية للأديب في مغالبة الفساد ومصارعة الاستبداد وقهر الرجعية وقهر نزعة الردة إلى عصر المغارة.

إن حب الوطن والحنين إليه والوفاء له هو المظهر من الإثم الذي يشعر به الأديب إن أصاب حظا من النجاح المادي والمكانة المرموقة في مجتمعه الجديد، إنه اللاوعي يتخلص من عقدة الذنب التي تسللت إلى نفس الأديب لرهافة حسه ونبيل ضميره وصفاء فكره.

وهاهو زكي قفصل الأديب السوري الذي ولد ببيروت عام 1917م وهاجر إلى الأرجنتين، فهو من جماعة العصبة الأندلسية يحن إلى مراعب الصبا وأماكن اللهو في نضارة الطفولة اقرأ هذا المقطع وتدوق جماله الفني واستشعر شيئا من الأسى وقدر هذا الحنين من الشاعر إلى وطنه:

أيها العائدون للشام هلا * نفحة من شميم أرض النبوه

علم الله كم صبونا إليها * واشتهينا تحت العريشة غفوه

وتحسس ألم الضلوع، وانظر عبء الشوق تتحدر من المآقي، وقدر ما في هذا القلب من شوق ومن حنين:

يعائدين إلى الربوع * قلبي تحرق للرجوع

تنهته فازداد تحنانا * وعريد في الضلوع

يعائدين إلى الحمى * قلبي به عطش وجوع

بالله هل في المركب * متسع للمهوف ولوع؟

وحزمت أمتعتي فيا * قلب ارتقب يوم الرجوع!

وهو يحسن وصف أوجاع الغربة وألم البعاد ومكابدة السهاد وسمعته يقول:

ويح الغريب على الأشواك مضجعه	*	وخيزه من عجين الهم والتعب
يعيش عن ربه بالجسم مغتربا	*	وقلبه وهواه غير مغترب
يستقبل الليل لا تغفو هواجسه	*	ويوقف الفجر في ليل من الكرب
يعلل النفس بالرجعى ويخدعها	*	فهل تحقق بالرجعى أمانيه؟

أما نعمة قازان المولود في لبنان عام 1908م والذي استقر في البرازيل وكان من جماعة

العصبة الأندلسية فهو كصاحبه يذكر التحنان ويقاسي وجع الغربة ويتعشق عهد الطفولة ويتمنى لو تطأ قدمه أرض وطنه لبنان:

بلادي أستطيع نكرها	*	إذن فاقبلوا الحب من بزرتي؟
ولبنان أمني به حفنة	*	سقتك السموات يا حفنتي
وأهلي وما أقول بأهلي	*	وماذا أقول بمحبوتي؟
أقول بقاع الدنيا حلوة	*	وأحلى بقاع الدنيا بقعتي
وكنت مع الله في قريتي	*	فصرت بلا الله في غربتي
وكنت غنيا مع القلة	*	فصرت فقيرا مع الكثرة
ولولا الحبيب وعودي الرطيب*		رماي اللهب إلى الشهوة
ولولا الرجاء بعود الرجا	*	قذفت بنفسي إلى الهوة

وفي شعر هذا الشاعر بعض الركافة اللغوية والفقر الفني كقوله: وماذا أقول بأهلي، وماذا أقول بمحبوتي؟.

وفي شعر المهجريين وأدبهم بعض الإسفاف والكثير من ركافة التعبير والخروج على قواعد اللغة - عن غير علم وبصيرة - وهو ما أخذ عמיד الأدب العربي الدكتور - طه حسين - على كبيرهم الذي علمهم السحر إيليا أبي ماضي، ولكن

يشفع لهم أنهم لم يتخرجوا من جامعة ولا ترددا على حلقات اللغة والأدب، وزد على ذلك حياتهم خارج أوطانهم يتكلمون بغير لغتهم وحسب المرء أن ينتج شيئا من هذا الشعر السلس الراقي ولسانه تعود على الكلام بغير لغته الشعرية.

إنما هي المهبة والسليقة والكد الشخصي والعصامية والتعلق باللغة العربية والقدرة على قرض الشعر والاسترسال في النثر كانت العوامل الداخلية ، زد عليها هم الغربة ونكدها وحال الشرق وسباته هي التي حدثت بمؤلاء إلى البروز في فن القول شعرا ونثرا.

وهاهو الشاعر حسني غراب الحمصي المولود عام 1899م يتحدث عن وطنه أجمل حديث كأنه كلام منتزع من سويداء القلب ومن يؤيؤ العين:

أبعد حمص لنا دمع يراق على * منازل أم بنا من حادثات هلع؟
دار نحن إليها كلما ذكرت * كأنما هي من أكبادنا قطع
وملعب للصبا نأسى لفرقتة * كأنه من سواد العين منتزع

وهذا شاعر آخر من فتوح كسروان اللبنانية شكر الله الجر والمقيم بالبرازيل والعضو في العصبة الأندلسية لا يخفي تخنانه والله ما أحلى ذكره لكلمتي الشيخ والعرار وهما موحيتان بخصائص الريف الشامي وبلاد العرب عامة ، اقرأ معي قوله:

ذكر الأرز بعد شط مزاره * أي جرح يسيل من تذكاره ؟

ليس أشهى على القلوب وأندى * من شذا شيجه ونفح عراره

واقراً معي هذا البيت الذي يذيب القلب ويقطع الكبد تحسرا فلئن يمس الشاعر من الأوبة إلى بلده فرجاؤه الوحيد أن يدفن في أرضه:

إن حرماننا من نعمة العيش فيه * ما حرماننا من مرقد في جواره

أما قصة هجرته وما لاقى في سبيلها من لجاح النفس وشك الضمير وتردد العقل فقد وصفها أبدع وصف نكتفي منها بهذا المقطع:

- ركبنا من اليم طودا يقل ال * عباد فكل إلى رغبته
فيا له من مشهد للوداع * يذيب الحديد على قسوته
فأم تضم إلى قلبها * وحيدا يسير لأمنيته
وأخ يكفكف دمع أخته * وزوج يرفه عن زوجته
فيا ليت شعري أيجظى المهاجر * فيما يرجيه من هجرته
ويا ليت شعري أيلقى المسافر * يوما سبيلا إلى أوبته؟
أم أن الليالي تزري به * فتذرو الفتى الحر في تربته؟
فلا أم تبكي على قبره * ولا أخت تسقي ثرى حفرته؟

وأما نعمة الحاج من غرروز بلبنان والمقيم بالولايات المتحدة فيزيد على أصحابه السابقين في ذكر الحنين والوفاء للأهل والوطن هم الصحوة والبعث والتحديد في الحياة العربية أدبا وفكرا وأسلوب معاش:

- ما نسينا ويشهد الله أنا * نحن بالروح حيث كنا
إن بعدنا وإن قرنا فلبنا * ن سناه يشع فينا ومنا
نحن في الأرض أنجم ونسور * حلت العاليات برجا ووكنا
هذه النهضة الحديثة منكم * قربت منذ نحن بالأمس بنا
قد نفتحنا بيوقها وأثرنا * نارها والعيون إذ ذاك وسنى
أيقظنكم من الكرى فهبتم * وأجدتم تجديدها فهي أسنى

وازدهى العمران والعلم والفن * تراه العيون أكمل حسنا

أما شفيق المعلوف شقيق فوزي المعلوف الزحلاوي والمولود عام 1905م والمستقر في البرازيل ففي قصيدته "بين شاطئين" استهلال لموضوع الحنين بالحديث عن الوداع والعبوات وخفق الفؤاد:

ذراع ملاق إثر كف مودع * تلوحان لي كلتاها خلف مدمعي

مناديل من ودعت يخفقن فوقهم * فلا ترهقيهم يا سفين واقلعي

بعدن فغشاهن معي كأني * أراهن من خلف الزجاج المصدع

ويزيد في هذه القصيدة وصفه لانبهاره بالعمران في أمريكا وبمضارتها:

خليلي بدت جبارة المدن تزدهي * بأعظم ما ازدانت به الأرض فاشتع

أدارت على الآفاق مشعل عزها * ومدت إلى الشمس كف يوشع

وأعلت بروجاً في الغمام رؤوسها * فما تظفر الحدثان منها بمطمع

مدينة جن جود الإنس نحتها * بأزميل جبار وحكمة مبدع

ثم اسمعه يقول صادقاً عن التحنان والوفاء:

أطل عليكم والمنى تزحم المنى * بصدري وأنتم ملء قلبي ومسمعي

لئن تسألوا ما في الجنوب فياني * حملت إليكم قلبه خافقاً معي

ويحتم ذلك كله بالمهمة الموكلة إلى أصحابه في بعث الأدب العربي وإحياء لغته:

وإن لواء نحن قمنا نهزه * خفوقاً على حصن البيان الممنع

لواء ظفرتم أنتم باكتسابه * ونحن ركزناه بأرفع موضع

ولا شك أنه يعني بقوله "ظفرتم أنتم" أدباء مصر وهو ما أشرنا إليه في بداية المقال.

وأما مسعود سماحة المولود في لبنان عام 1882م والمستقر في أمريكا فإن حنينه لوطنه ووفاءه له أنطقه بمذنين البيتين وهما دعوة إلى الثورة ومقاومة الاستبداد، اسمعه يخاطب أهل لبنان:

مشت القرون وكل شعب قد مشى * معها وقومك واقفون ونوم

لم ترتفع كف لصفعة غاشم * فيهم ولم ينطق بتهديد فم

وأما رشيد أيوب المعروف بالدرويش والمولود في نفس قرية ميخائيل نعيمة "بسكتنا" بلبنان عام 1872م والذي استقر في الولايات المتحدة ففي قصيدته المسافر يذكر المخاطرة والهجرة والآمال:

دعته الأمانى فخلى الربوع * وصار وفي النفس شيء كثير

وفي الصدر بين حنايا الضلوع * لنيل الأمانى فؤاد كبير

فحث المطايا وخاض البحار * ومرت ليال وكرت سنون

ولم يرجع

ويعد الشاعر القروي رشيد سليم الخوري المولود ببيارة بلبنان عام 1887م والذي عاش في البرازيل أمتم شعراء الجنوب لغة وأقدرهم على التصرف في القريض وأجودهم في تحوير اللفظ الموحى بمرارة الغربة ووحشة الأمل وأمل العودة واقراً معي هذا المقطع من قصيدة عند الرحيل لترى ذلك حقاً:

نصحتك يا نفس لا تطمعي * وقلت حذار فلم تسمعي

فإن كنت تستسهلين الوداع * كما تدعين إذا ودعي!

خرجت أحرك جر الكسيح * تثنين في صدري الموضع

ولما غدونا بنصف الطريق * رجعت وليتاك لم ترجعي

كفناك اضطرابا كصدر المحيط * قفي حيث أنت ولا تجزعي

سأقضي بنفسى حقوق العلى * وأرجع فانتظري مرجعي

وما أجمله من إجماء حين يذكر تركه لروحه في وطنه الأم وحمل جثته إلى المهجر!

ويأتي بعد القروي في متانة اللغة وجودة السبك والتصرف في القول إلياس فرحات من كفرشيماء في لبنان والمولود عام 1893م والذي أقام في البرازيل ولعل هذا المقطع هو من أشهر أشعاره تغنى بها المشرق والمغرب عن وحدة العرب:

إنا وإن تكن الشام ديارنا * فقلوبنا للعرب بالإجمال

نحوى العراق ورافديه وما على * أرض الجزيرة من حصا ورمال

وإذا ذكرت لنا الكنانة خلطنا * نرؤى بسائغ نيلها السلسال

بنا ومازلنا نشاطر أهلها * مر الأسى وحلاوة الآمال

أما جورج صيدح الدمشقي والذي أقام في الأرجنتين فله ما أحلى حديثه عن حنينه إلى دمشق ووفائه لها وألم البعاد عنها !:

أنا وليدك يا أماه كم ملكت * ذكراك نفسى وكم ناجاك وجدان!

منذ افترقنا نعيم العيش فارقني * والههم والغم أشكال وألوان

عهد الشباب وعهد الشام إن مضيا * فكل ما أعطت الأيام حرمان

وفي قصيدته "المهاجر" وصف للمعاناة النفسية وتباريح الجوى:

كيف يرتاح وتذكار الحمى * كلما أقعده الجهد أقامه؟

برجه العاجي من يقطنه * إنه يقطن بالروح نخيامة

ويبعث المال سلاما للحمى * فالحمى بلا مال يأبى السلامه

قل لمن يحميه في غربته * إن من أعدائه اللد غرامه

أما ما يلاقيه الغد من ازدراء في وطنه وتقدير في غيره فقد عبر عنه أجمل تعبير:

رب أحجار بما الشرق ازدرى * أصبحت في حائط الغرب دعامة

أما الشاعر المصري الكبير أحمد زكي أبو شادي (1892-1955م) والذي استقر في أمريكا وكان من مؤسسي جماعة أبولو التي حددت في الأدب خاصة الشعر منه وعرفت هذه المدرسة برومنطيقيتها فقد خاطب أمريكا - وطن الحرية- قائلا:

لحأت إليك يا وطننا تغنى * به الأحرار واعتز النشيد

فإنك منبري الحر المرجى * وبدء نهارى بل عمر جديد

وقد كان نزوح أحمد زكي أبي شادي إلى أمريكا هروبا من استئراء الفساد وتعفن الوضع السياسي وانعدام الحرية ولكنه في غربته في العالم الجديد يحن إلى وطنه فاسمعه يقول:

بكى الربيع طروب في مباحجه * وقد بكيت أنا حبي وأوطاني

أنا الغريب وروحي شاركت بدني * هذا العذاب بأشواقى وأحزاني

لي في ثرى مصر دمع نائح ودم * أذيب من مهجتي اللفهى ونيراني

تركته مثل غرس الحب ما ذبلت * أزهاره أو أغاثت روح لهفان

أشمها في اغترابي حين تلذعني * ذكرى الشباب وذكرى عمري الفاني

واسمع معي ميشال مغربي المغترب في ساو باولو يتأسف على عمره الضائع هدرا في بلاد الغربة وينصح شباب العرب بالبقاء في أوطانهم:

وأنا الذي باع الشيبية خاسرا * مجلاده وجهاده المتوالي

- أثر النضال على الجبين تروونه * ما الاغتراب سوى حياة نضال
- شطر المهاجر لا تولوا أوجها * كالحاسرين ربوعهم أمثالي
- أوطانكم أولى بكم وبسعيكم * وبما ملكتم من كريم خصال
- ولأنتمو أولى بطيب هوائها * وجمالها المزري بكل جمال

ويأتي إيليا أبو ماضي المولود بقرية "المحيدثة" بلبنان عام 1889م والذي استقر بأمريكا وكان من الأعضاء المؤسسين للرابطة القلمية في طليعة الشعراء الذين تغنوا بالأوطان ووصفوا الحنين إليها ولوعة البعد عن الخلان، واستذكروا عهد الصبا وقرأت معي هذا المقطع يخاطب لبنان ويناجيه لتقدر ألم الغربة:

- وطن النجوم أنا هنا * حديق أتذكر من أنا ؟
- أنا ذلك الولد الذي * دنياه كانت هاهنا
- أنا من مياهاك قطرة * فاضت جداول من سنا
- كم عانقت روحي رباك * وصفقت في المنحنى

وما أجمل قوله لوطنه لبنان يعتذر له فيه عن البعد عنه ويتعلل لذلك بركوب الأخطار والطموح إلى المعالي والنزوع إلى الأبحاد:

- لبنان لا تعدل بنيك إذا هم * ركبوا إلى العلياء كل سفين
- لم يهجررك ملالة لكنهم * خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون
- لما ولدتمهم نسورا خلقوا * لا يقنعون من العلاء بالدون

إذا فقد كانت الغربة وتباريحها مهمازا للقرحة وجناحا للتخليق في سماء الخلق الفني وقد استفاد أدبنا العربي من هذه الغربة فتجدد وجهه وازدان بهاء ورونقا، وأصبح الشعر على يد هذا اللفيف من الشعراء تعبيرا عن الوجدان، ووصفا لخلاجات النفس وخفقات الفؤاد، بلغة صافية قراقعة متخلصة من أصباغ التكلف وطلاء التصنع، متعالية على الخذلقة

البنيانية والبهلوانية الإنشائية، وفي هذا الأدب كثير من السقطات وسفاسف القول ولكنها لا تلغي أهمية هذا الأدب بل تجعل أدبائه في الطليعة، مع أدباء المشرق الذين تعاونوا يدا بيد ويراعا بيراع وتزاوجت خفقات قلب بقلب، وخلجات نفس بنفس، وطموح روح بروح على إخراج أدبنا من سبات الكهوف ونبض غبار القرون الوسطى عن حروفه حتى يصير كأداب الدنيا، أدب الحياة بما فيها من صحب ونشاط وهم وترح وفرح وما شئت من أطياف الحياة.

الجواهري شاعر الرفض والإباء⁽¹⁾

مازلت أذكر ذلك الشهر شهر أغسطس من عام 1997 حين نعت إلينا جريدة "الحياة" اللندنية رحيل شاعر العربية الكبير محمد مهدي الجواهري، وهكذا أسدل الستار برحيل الجواهري على آخر عمالقة الشعر الكلاسيكي من طراز بدوي الجبل وبشارة الجوري وعمر أبو ريشة وغيرهم.

كنت حينها بمدينة "جنيف" السويسرية ولم تستطع جنيف بحيرتها الخلابة ولا بنهر "الرون" وجسوره الأخاذة ولا بجزيرة "روسو" الجميلة أن تبدد الحزن الذي غمر نفسي والأسى الذي سكن روحي وأنا أقرأ الخبر في جريدة الحياة.

عاد الجواهري إلى دمشق ليموت فيها بعد العاصمة التشيكية براغ وغيرها من المنافي، كما عاد البياتي من منافيه في "موسكو" أو "مدريد" وغيرهما ليرقد رقدته الأبدية إلى جوار الشيخ محي الدين بن عربي، وكأن

"خلق" صارت بالنسبة إلى شعراء العراق جسر العبور إلى العالم الآخر، ينفحهم "بردى" و"الجامع الأموي" بنفحات العروية ويسمح ما بأنفسهم من ألم الغربة وأوجاع المنافي الأروبية .

وفي أدباء العراق - كتابه وشعرائه - ميزة لا تحظى العين برصدها وظاهرة لا يختلف بشأنها اثنان ألا وهي ظاهرة الرفض والثمرد وما ينجر عنهما من نفي وتشرد في بلاد الدنيا.

(1) . مجلة المنهل المملكة العربية السعودية العدد 596 أبريل 2005.

فالروائي العراقي غائب طعمة فرمان مات طريدا ودفن شريدا في موسكو، وفي أحد أعداد مجلة العربي الأخيرة حدثنا الدكتور محمد سليمان العسكري عن انتحار أديبة عراقية أجبرت على البقاء في العراق قبل سقوط بغداد وكانت تريد الخروج من العراق إلى بلاد الله فلما استعصى عليها ذلك خرجت هي من الدنيا بقتل نفسها !

والعراق أو أرض السواد كما أسماها أسلافنا حالة فريدة بين بلداننا العربية، فبالرغم من كونه أرض الخصب والنماء وأرض الرافدين، والبلاد التي عرفت أقدم الحضارات وأعرق الشرائع، وما أرض السواد إلا دلالة على كثرة النخيل التي تظلل الأرض والأفق فحيثما امتد بصر الإنسان رأى سوادا وما ذلك إلا فال خير وبشارة بمن.

ولقد ظل البلد على الرغم من بوادر اليسر وسمات اليمن أرض الفتن والخصومة والانقلابات، فالإمام علي - كرم الله وجهه- قتل بالكوفة . وفي كربلاء سقط الإمام الحسين شهيدا . وفي العراق نبه ذكر الحجاج بن يوسف

واستشاط أمره وتلطح بالدماء سيفه، بعد أن دوى بالتهديد لسانه، وسواء أكان العراق ملكيا أم جمهورية في العصر

الحديث فلقد كان بلدا قائما على الرمضاء ومستقرا على بركان وما تهدأ فتنة حتى تقوم فتنة وإن هدأت فبهوات البنادق وشغرات المقاصل .

والعراقيون مهما تعددت أطيافهم وتباينت نحلهم يميلون إلى الحرية ويأبون الضيم وتعاف نفوسهم الخسف فيثيرون وفي كل ثورة تسيل الدماء وتقطع الرؤوس .

وفي هذا البلد وفي النجف الأشرف ولد محمد مهدي الجواهري عام 1900 في بيت علم ودين وآل الجواهري أسرة عريقة نبغ فيها شعراء وأئمة وعلماء كلام، وفي بيت والده أتم حفظ القرآن وعلى يد مشايخ النجف الناهجين أتم علوم اللغة والدين.

غير أنه آنس من نفسه القدرة على قرص الشعر، وتحيأت ملكاته الفطرية لذلك، فجادت قريحته بالشعر منذ عهد الصبا وفي عام 1927 صدر الجزء الأول من ديوانه.

مارس الجواهري التعليم في الكاظمية ، ولكنه تركه ليتفرغ للصحافة فأصدر جريدة " الفرات " عام 1930 ، ثم " الانقلاب " ولما عطلت هاتان الصحيفتان ولاقى الشاعر من الحكومة القهر والعنت عاد إلى التعليم وفي سنة 1935

أصدر الجزء الثاني من ديوانه ، وفي سنة 1947 دخل المجلس النيابي نائبا عن كربلاء ، وقام برحلة إلى فرنسا وبولونيا ، ولا شك أن هذه الرحلة تركت في نفسه أعمق الأثر فلقد قارن بين ما ينعم به الأوروبيون من عدل ومساواة وتقدم وحرية وعصر صناعي وبين يقاسيه الشعب العراقي من جور وطبقية ورجعية وعصر حجري ، وفي سنة 1953 أصدر الجزء الثالث من ديوانه ، ولما قامت الثورة وأُنْهِت الملكية في العراق طمح الشاعر إلى الحرية والديمقراطية والمساواة ، ولم يستطع السكوت فأصدر جريدة " الرأي العام " ليجهر برأيه ويصدع بأفكاره التي تعارضت مع فلسفة الحكم والنظام القائم فاختار المنفى سبع سنوات في براغ بتشيكوسلوفاكيا وعاد بعدها إلى العراق ، ولكنه كان كدأبه ناقما على الجور أيبا للخسف عصيا على الهوان متعطشا إلى الحرية،توفا إلى العدل ، شعوقا بالمساواة ، طامحا إلى وثبة حضارية ونهضة علمية تدخل بلاده في ركاب الحضارة كغيرها من دول العالم المتمدن، فلاقى من كل الأنظمة الجهادية والتضييق على حريته وهو الشاعر الحر- الذي سجن في العهد الملكي جراء جهره بمعارضته وإبداء مخالفته لفلسفة الحكم القائم إلى أن رحل عن دنيانا نظيف اليد، صادق الوعد، سليم النية، مخلصا لعقيدته في الحياة .

فالجواهري من الشعراء الذين آمنوا برسالة الشعر وأمانة الشاعر التي استودعها عنده الشعب، ألا وهي اتخاذ الكلمة مصباحا يبدد الظلام ، وسيفا في وجه الجور ومنجنيقا يحرق بنيرانه الظلم والظالمين، والشعر كما يصلح لوصف النهود والأرداف، وتباريح الجوى، ونشوة المدام يصلح معلما هاديا ومنازة حق، وسوطا يلهب حماسة الخانعين من أبناء الشعب، وسيفا يقطع رقاب الظالمين من الحاكم وحاشيته .

إنه ما يدعوه جون بول سارتر بالالتزام ، وقد التزم الجواهري - وهو صاحب عقيدة اشتراكية- بقضية وطنه الراسف في أغلال الاستبداد، النائم في مغارة التاريخ الساكت على نُهب خيراته وتخفيف ضرعه.

اسمعه يخاطب المستبدين من حكام بلده :

ما تشاؤون فاصنعوا

فرصة لا تضيع

فرصة أن تحكموا

وتخطوا وترفعوا

وتدلوا على الرقاب

وتعطوا وتمنعوا

لكم الرافدان والزاب

ضرع فأضرعوا

ما تشاؤون فاصنعوا

الجماهير هطع

ما الذي يستطيعه

مستضامون جوع؟

فهي صريحة صريحة لا كناية فيها ولا تعمية لغتها مشبعة بالتحدي والرفض ، لغتها شديدة الإيحاء بمعاني الجور والظلم والنهب لخيرات البلد من جهة الحكام ، والخنوع والاستسلام من جهة المحكومين .

والجواهري يتصرف في اللغة تصرف الواثق من نفسه المطمئن إلى ملكاته فلا تعاني لغته الكلال أو الفتور ، ونفسه طويل لا يعرف الإرهاق ولاغرو في ذلك فهو قد امتلك زمام اللغة فأسلسلت له القياد وتشبعت روحه بفلسفة الحدائة ، وتعمقت ثقافته بالوعي التام بمعاني الحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية ، وزادته فناعته اليسارية ثباتا على الموقف وحرنا على الفكرة فلم يعرف نضاله الكلال أو الاضطراب لكأنه الرصاصة تمشي إلى هدفها بنفس القوة وفي نفس الخط بغير نكوص أو فتور .

وهذا التصرف في اللغة تصرف الواثق من نفسه ، والقدرة على إيصال الفكرة سليمة معافاة ، وحسن اختيار اللفظ الموحى بالمعنى المقصود كل هذه العوامل أشعرت الشاعر بجرئته التي زهت بما نفسه فلم يجد ما يدعوه إلى التخلي عن الشعر العمودي واللجوء إلى شعر التفعيلة استزادة من الحرية في القول و الأصالة في المعنى .

والجواهري شاعر من النسق الكرزماتي يشظي نفسه قتابل في وجه الظلم لا يهادن ولا يسالم ، وقرأ له هذا المقطع
يصف الخونة من أبناء البلد الذين كانوا خدما للاستعمار وأعوانا له :

ولقد رأى المستعمرون فرائسا

منا وألفوا كلب صيد سائبا

فتعهدوه فراح طوع بناهم

يبرون أنيابا له ومخالبا

أعرفت مملكة يباح شهيدها

للخائنين الخادمين أجانباً ؟

مستأجرين يحربون ديارهم

ويكافأون على الخراب رواتبا ؟

وكما نعى الشاعر على الحاكم بغيه نعى على الرعية استسلامها

وخنوعها ، فقدفها بالسنة من نار ونحسها بمهماز من فولاذ عليها تفيق من غفوتها ، وتقهر خوفها ومسكنتها وهو في
ذلك متفق مع قول أبي العلاء:

أعاذل قد ظلمتنا الملو

ك ونحن على ضعفنا أظلم

وذمه للشعب هو الذم البناء لا الهدام إنه الهجاء بغير حقد، الصادر عن حب وغيرة على الشرف والوطن، وقرأ له هذا
المقطع يذم خنوع الشعب وهو ذم شديد اللهجة، قاسي التبرات:

أطبق دجى أطبق ضباب

أطبق جهاما يا سحاب

أطبق دمار على حماة

دمارهم، أطبق تباب

أطبق على متبلدين

شكا خمولهم الذباب

لم يعرفوا لون السماء

لفرط ما انخت الرقاب

ولفرط ما ديس رؤوسهم

كما ديس التراب

أطبق على المعزى

يراد بما على الجوع احتلاب

أطبق على هذي المسوخ

تعاف عيشتها الكلاب

وقد ردد الشاعر كلمة " أطبق " سبع مرات في هذا المقطع القصير وهو فعل يوحي بئأس الشاعر من خمول الشعب وبلادته، والألفاظ شديدة اللهجة دالة على الغضب العارم والثورة الجارفة التي تضطرم في نفس الشاعر.

إن الذي يعرف الجواهري ويعرف ما جبلت عليه نفسه من تعطش للحرية وإلى العدالة وما لاقاه من وجع في المنافي وتضييق الحكام يستطيع أن ينسب إليه شعره فلا يختلط بأشعار غيره ، فقد كان شعره نفته من روحه الناقمة وشواظا من لهيب نفسه أو كان كما يقال مرآة نفسه عكست ما فيها من إباء وكرامة وشرف وكبرياء .

وهناك ميزة في شعره ظاهرة للعيان مسفرة للقارئ وهي روح السخرية ، وكأنها البلسم الذي يبلسم بما جراحه ، والشهقة التي يجد فيها الراحة والعزاء ، وهو يستخدمها في شعره طريقة من طرق التعبير عن تبدل الجماهير ، ومهمازا يستنهض به العزائم ويستثير به الهمم .

وأكثر ما تتجلى هذه الميزة في قصيدته " تنومة الجياع " وهي مطولة تنعي إلينا بلادة الشعب وغفلة الرعية ولا أدل على ذلك من تكرار الفعل

" نامي " في القصيدة حوالي أربعاً وخمسين مرة في قصيدة عدد أبياتها تسعة وتسعون بيتاً، ونكتفي منها بهذه الأبيات حيث تتجلى روح السخرية المرة و التهكم اللاذع:

نامي جياع الشعب نامي

حرسك آلهة الطعام

نامي على زيد الوعود

يداف في غسل الكلام

نامي تصحي ، نعم نوم

المرء في الكرب الجسام

نامي إلى يوم النشور

ويوم يؤذن بالقيام

نامي على نغم البعوض

كأنه سجع الحمام

نامي على البرص المبيض

من سوادك والجذام
نامي فحرز المؤمنين يذب
عنك على الدوام
نامي فنومك فتننة
إيقاظها شر الأتنام
إن التيقظ لو علمت
طليعة الموت الزؤام
نامي ! إليك تحيتي وعلي
ك نائمة سلامي !

وهي قصيدة كما أشرنا أنفا طويلة تتجلى فيها مرارة اليأس وروح التهكم وطابع السخرية .

لقد آمن الجواهري أن الشعب مصدر القوة ومنبع الحصانة وجرثومة النماء ، وأدرك أن جيروت الحاكم يستمد بقاءه من جبن الشعب ، ونهبه لخيراتهِ من سكوت الرعية ولا مبالاة واستهتاره من بلادة الناس، فصك الشاعر الآذان بالكلمات القاسية، وزلزل القلوب الواجفة بالمعاني القارصة، وحرك النفوس الغافلة بالتهكم البناء والذم الصادر عن حب وإخلاص أملا في حرية غائبة، وعدالة أعر من الأبلق ، ومساواة موعودة، ونخضة مؤجلة إلى يوم النشور.

الرفض في الشعر الحديث (1)

إذا كان لا بد من كلمة تقال في شعر التفعيلة أو الشعر الحديث كما يحلو للبعض تسميته تكون مفتاحه أو تلخص مساره أو مضمونه فلن تكون تلك الكلمة غير كلمة الرفض ، إنه شعر استهل مشواره الإبداعي بالتمرد على عمود الشعر الكلاسيكي ، ولئن حاول بعض الشعراء المحدثين التجديد في الشعر باطراح التقليد والتكلف اللغوي بانتقاء اللفظ البراق والحرص على الصدق الفني والتأكيد على التجربة الوجدانية شأن الرابطة القلمية وجماعة الديوان وجماعة أبولو، فإن رواد الشعر الحديث رفضوا هذا الموقف مصرين على الثورة حريصين على سلوك مسلك في الشعر فريد من نوعه لا يكتفي من التجديد بما سلف ذكره ، بل يرفض عمود الشعر ويتمرد على القافية لأنها تخنق روح الإبداع وتؤكد تبعية الشاعر للغة فضلا على الإصرار على روح التقليد ورتابة الماضي ، وهكذا فالشعر الحديث استهل رفضه بالثورة على القالب الشعري زاعما أن القالب التقليدي لا ينسجم مع روح العصر ولا يلي الاحتياجات الفكرية والجمالية المستجدة خاصة

وعصرنا هو عصر العلم والديمقراطية والحرية الإنسانية - حرية الفكر

والمعتقد - وعصر حصلت فيه المرأة على حقوقها ناهيك عن تأثير الاحتكاك بالثقافة الأروبية التي تدمر روح الجمود لحساب روح الابتكار وتؤكد على المضمون الإنساني وتحرص على احترام فردية الإنسان وتميز كيانه الفكري والأيديولوجي والتي هي في النهاية خلاصة التجربة الديمقراطية المنبثقة عن الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان.

هذه القيم التي تمثلها شعراؤنا المحدثون وتبنوها كتقناعات فكرية ومن ثمة تبلور الرفض وتحتمت الثورة كصرخة عميقة تزلزل الروح موقظة إياها من سبات عميق وخدر فكري زين للإنسان العربي أوهام الماضي على أنها حقائق وفي مقدمتها فكرة تاريخية عميقة تداولتها الأجيال على أنها مسلمة لا يأتبها الباطل من

(1) . مجلة ديوان العرب.

بين يديها ولا من خلفها وهي فكرة المركزية ونعني بما اعتقاد العربي أنه مركز التاريخ ودرة الوجود وحامل لواء الحقيقة وما عداه فذليل أو هو على الهامش ، لا هو في العير ولا هو في النير، وقد انتهت تلك الأفكار بالعربي إلى إدانة العقل وتبني التقليد وانتشار الثقافة الفقهية على حساب الثقافة العلمية ووثدت الحرية وأجهز على الروح الإنسانية في المرأة وهمشت أحقابا طويلة كما استبد الحاكم وعبث بالإنسان وبالمال العام فعمت الجهالة وانتشرت الفوضى وترسخت الطبقة وأصبحت الحياة العربية إلى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر

عام 1798 حياة عبثية مجردة من القصدية انتهت بالعالم العربي إلى الوقوع فريسة سهلة بين مخالب القوى الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية خاصة كنتيجة حتمية لتراكمات العصور السابقة بظلالها القائمة .

فهذه الأفكار شكلت القناعة الراسخة لدى شعراء الرفض في شعرنا الحديث وحركت في نفوسهم وضمايرهم مشاعر السخط والتمرد بجنا عن حرية افتقدوها في رحاب مجتمع غارق في دياجير الجهالة والعماء ، وكانت أولى بوادر هذا الرفض وإرهاصاته هي رفض القالب الشعري القديم لأنه اهتم بالقشور على حساب اللباب وبالزيف على حساب الحقيقة وبالمصلحة الفردية على حساب المصلحة الجماعية والتي تنأى بالشاعر عن دروب الحرية و تلقي به في قرار العبودية حارمة خلاياه من التجدد في رحاب الطبيعة والزمان. فرواد الشعر الحديث إذا أخرجوا الشعر من القمقم الذي وضعه فيه الخليل منذ القرن الثاني الهجري واضعا عنه أغلال القافية هادما حيضان البيت ذي الشطرين المتساويين واضعا هندسة جديدة وتصميما آخر هو صنو الحرية وابن التلقائية لا ابن التكلف ينسجم مع الانفعال و زخم الأفكار وفردانية التأمل ، إنه شعر هو الذي يضبط الموسيقى و يتحكم فيها و ليست هي بالمتحكمة فيه فالسطر يطول أو يقصر حسب حدة الشعور و أهمية اللحظة وموقف الشاعر منها، وفي الصميم يجتني هذا الشعر بالموسيقى الداخلية لا بالموسيقى الخارجية

ويكون النص الشعري في النهاية رؤيا وموقفا فردانيا للشاعر من الوجود في تداخل مظاهره وتفاعل عناصره وذلك ما يجعل من الشعر موقفا من العالم و إعادة صياغة له تتجاوز واقعه الموضوعي إلى علاقته الجدلية بالذات الشاعرة واندغام تلك الذات في هذا الواقع وفق صيغة إنسانية وليست ميكانيكية و في المحصلة أنسنة الوجود لا وصفه خارجيا وهذا هو الإنجاز الأول الذي حققه الشعر الحديث في رفضه لكل ما غدا دوغمائيا جاهزا أثر الماضي فيه أطفى من أثر

الحاضر، ولا عجب أن يبدأ الرفض من القالب الشعري ذاته وفي رفض النموذج الخليلي باعتباره مرحلة من مراحل التاريخ الثقافي والجمالي للأمة العربية .

ولعل أكبر الراضين في الشعر الحديث " أدونيس " ورفضه إنساني يشمل قيم الوجود وواقع الأمة في ماضيها وحاضرها وتحليلات هذا الواقع في السياسة والفكر والدين والعلاقات الاجتماعية يقول الشاعر:

أفتت العالم كي أمنحه الوجود

ضاربا بعصاي الصخر

حيث ينبجس الرفض

يغسل جسد البسيطة

معلنا طوفان الرفض

معلنا سفر تكوينه

وللطوفان دلالة خاصة ذلك أنه مصطلح ديني تداولته الكتب السماوية وهو يعني اجتثاث الواقع و سحقه إيدانا بميلاد عالم جديد لأن ذلك الواقع انتهى إلى العقم وإلى الجذب والتصالح معه لا يجدي ، ثم يأتي المصطلح التوراتي الثاني " سفر التكوين " الذي يعني البداية الأولى والمخلق من جديد ، وكأنه الواقع الذي تدنس أخلاقيا بدليل كلمة " يغسل " في السطر الثالث والتي تعني عقم الواقع وعطالته وتجرده من القيم الإنسانية والحرية حجر الزاوية فيها والتي ابتذلتها المؤسسات الرسمية السياسية والدينية والثقافية ، فغدا الإنسان رقما في العالم لا حزمة من المشاعر والرؤى والمواقف الفردية التي تتأكد بها أنيته ميزته عن باقي الموجودات

وأدونيس (علي أحمد سعيد) الشاعر السوري المعاصر أكثر الشعراء إثارة للجدل والاهتمام في ذات الوقت ذلك أنه شاعر ملغز، حلزوني الفكر لا يعطي سره للمرادة الأولى بل يظل محتفظا بسحره وبضبايته في ذات الوقت مع الاحتفاظ بقيمته كشاعر صاحب رؤيا وموقف ذاتي من العالم يلخص الأزمة الوجودية لكل واحد منا إذا ضرب بعضا

ه الصخر حيث ينبجس الرفض وقرر أن يتمرد على الدوغمائيات الدينية و السياسية بالمعايير الأخلاقية بحثا عن عالم إنساني لا يكون الواحد منا فيه رقما بل ينطوي فيه العالم الأكبر .

من أنت ؟

من تختار يا مهيار ؟

أني أتجهت

الله أو هاوية الشيطان

هاوية تذهب أو هاوية تجيء

والعالم اختيار

لا الله أختار ولا الشيطان

كلاهما يغلق عيني

هل أبذل الجدار بالجدار ؟

فيذا قيل : إن العالم اختيار فالشاعر يثور على هذه الكلمة لأنها تعني الاختيار القسري الذي هو اضطراب مادام الاختيار يقود إلى مسلكين عالم الله وعالم الشيطان وفي النهاية يتقلص حجم الحرية الإنسانية و يصيب الإنسان مسخ فيصبح كأنه فأر تجارب لا يمكنه أن يسلك إلا أحد المسلكين مسلك الإيمان والتسليم والقول بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، ومسلك التمرد والعصيان الذي غدا رتبيا تقليديا لأنه مسلك مرسم ومنظر له سياجاته وحدوده في الفكر والشعور وكلا المسلكين يرفضهما الشاعر لأنهما يحدان من نظرتة الإنسانية وطابعه الفردي وتأملاته في آفاق بكر وعوالم لم تطأها قدم إنسان من قبل وترى الشاعر في نظرتة إلى الوجود يصير على المسلك الإنساني فهو يرفض المتنافيزقا لأنها ارتبطت في اللاوعي بالقهر والرهاب وربما القمع المترسبة عواقبه في الوجدان من مغبة العصيان وارتكاب الخطيئة بالأكل من الشجرة المحرمة والخوف من فواجع القدر والباحث عن دروب الحرية وآفاق الإنسانية لا بد له أن

يرفض كرفض الشاعر البعد الرأسي ويصر على البعد الأفقي ليتأله الناسوت ويتأنس اللاهوت وهو ما توحى به كلمة " انحناء" في هذا المقطع :

مات إله كان من هناك
يهبط من جمجمة السماء
لربما في الذعر والهلاك
في اليأس والمناه
يصعد من أعماق الإله
فالأرض لي سرير وزوجة
والعالم انحناء

وإذا كان الرفض في المقطع الأول هو رفض وجودي وفي الثاني ميتافيزيقي فهو في المقطع الثالث سياسي ، والسياسة لها سياجها الدوغمائي و أطرها القهرية ومؤسساتها القمعية و آصارها الإنسانية فتختصر الإنسان إلى حزمة من الغرائز أو تجعله ككلب" بافلوف" رهين المنعكسات الشرطية بين مؤثر واستجابة ولعل المثقف العربي أكثر المثقفين تحملا لأعباء السياسة وقهرها ولا إنسانيتها فهي هرم كبير يجثم على الصدر ويكتم الأنفاس حجارتهما ازدادت صلادة مع كر الدهور منذ الأمويين وإلى الآن، ومؤسساتها أطر للتضليل والتدجين ولذا يرفضها الشاعر ويرفض دوغمائيتها مؤثرا دور المنبت الذي لا أرضا قطع و لا ظهرا أبقى !

ولكن هذا المنبت وبحكم إنسانيته وطبعه الاجتماعي وروابطه الإنسانية أقوى من أن يظل من الأوابد فالانفصال عن المجموع ما هو إلا جري وراء السراب في الحقيقة ، والإنسان يستمد بقاءه من الجماعة فهو يجيا فيها وبها وهي التي تلهمه الثورة والتمرد وتعزز فيه ذاتيته وتشحذ ذهنه للبحث عن اللباب والمضمون الإنساني في العلاقات الاجتماعية وفي أشكال الإنتاج والرفض يظل يترنح بين قطبي الاتصال والانفصال أي هو المتصل المنفصل والمنفصل المتصل:

تريد ونني أن أكون مثلكم

تطبخوني في قدر صلواتكم

تمزجونني بحساء العساكر وفلفل الطاغية

ثم تنصوني خيمة للوالي

وترفعون جمجمتي بيرقا

آه يا موتي ؟ تعيشون كالبلاط

يفصلني عنكم بعد بحجم السراب

لا أستطيع أن أحيا معكم

لا أستطيع أن أحيا إلا معكم .

ويأتي كذلك في طليعة الشعراء المحدثين الراضين الشاعر اللبناني خليل حاوي ولعل موته منتحرا بعد غزو إسرائيل للبنان واحتياح بيروت عام 1982 تعبير عن رفضه السياسي ذلك الرفض الذي كان صرخة في وجه الأنظمة العربية القابلة للواقع المملى عليها الراضية بالتدجين القانعة من الصراع بالتطبيع ، إنه رفض للهزيمة وعدم اعتراف بشرعية الواقع الذي صارت إسرائيل طرفا فاعلا فيه ورفض للأنظمة العربية الفاقدة للشرف وللعدوية والتي أسلمت فلسطين إلى مصيرها التراجيدي وتهاونت في قضية لبنان وسكنت عن احتلال الجولان وانتهت مصر لقمة ساعة بعد اتفاقيات كامب ديفيد، كل هذه الجروح لم تندمل في روح الشاعر وضميره الذي اقتنع بأن كل شيء في العالم العربي قد أجذب وأصيب بخضاء فكري وأخلاقي ووجداني بما فيه الحياة الثقافية ورأى أن المعادل الموضوعي لهذا المأزق الوجودي هو الموت فرحل بإرادته تعبيرا عن حالة رفض كالاني للواقع وعدم اعتراف بشرعيته.

وفي شعر خليل حاوي نقع على هذا الرفض بغير عناء كبير ففي قصيدته " ضباب وبروق " نقع على حالة يأس تام استسلم لها الشاعر وحالة عطالة انتهى إليها ولا أدل على ذلك من استخدام كلمة " المقهى " الموحية بالعطالة وأما حالة الجذب والخضاء واليأس فتعبّر عنها في هذا المقطع كلمة " اليوم " وأما لفظة " النسر " فدلالته هي الشموخ و الكبرياء إنها كلمات مشبعة بالرفض ومضمخة باليأس :

ضحة المقهى ضباب التبغ

مصباح وأشباح يغشيها الضباب

ويغشى رعشة في شفتي السفلي

يغشى صمت وجهي ووجوه

أفرخ اليوم

ومات النسر

في قلبي الذي اعتاد الهزيمة .

والشاعر لا ينسى أن يذكرنا بأحلامه الماضية ولعلها الشبابية حين كان طالبا في جامعة كمبودج ، وكيف كان الحلم ناصعا بغد عربي مشرق ووحدة عربية ومحنة فكرية وعلمية وأدبية واندحار للفكر الصهيوني المتطرف في بلادنا وتلاشي لكل التيارات العمياء المتطرفة الدينية

والسياسية في عالمنا العربي وقد جد الشاعر واجتهد باحثا عن المعرفة التي سيوظفها في خدمة هذا الحلم وعن النور الذي سينير به حلقات الطريق مضحيا بمصلحته الشخصية لحساب مصلحة المجموع:

طالما جمعت ، افترست الجمر

أتلقت الليالي

أتقي ما أشتهيه وأهاب

وأطيل الجوع حتى ينطوي الجوع

على موت الرغاب .

ثم جاءت ساعة الحقيقة ونجلى الواقع على قبض الريح وحصاد المهشيم فلا الوطن تحرر ولا العدو اندحر ولا المجتمع تقدم وانتهى الشاعر نازفا بالدماء كأنه أحد أبطال التراجيديا الإغريقية ، كأنه بروميثيوس بعد أن بدأ مشواره كأحد أبطال السير الشعبية وكأنه أبو زيد الهلالي، وهو في الأخير رفض لا يصنع شيئا ولا يغير واقعا غير حفظ الكرامة الإنسانية وصيانتها عن الابتذال لقاء أي عرض من أعراض السياسة أو الرفاه وإذا كان الأمر كذلك فلا جرم أن تدمر الذات إنقاذا لها من مزيد من المعاناة الصامتة:

في جبال من كوايبس التخلي والسهاد

حيث حطت بومة سوداء تجتر السواد

الصدى والظل والدمع جماد !

وأما الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي ذلك الشاعر الذي طوف في الدنيا منفيًا ومشردًا من موسكو إلى مدريد وإلى دمشق فقد جسد في شعره وفي حياته حالة الرفض للقهر السياسي واستبداد الحكام وحالة الرفض لكل السلطات الدنيوية والدينية كالإكليروس الديني والمؤسسات السياسية والثقافية الرسمية لأنها تمارس الإكراه على الحرية الإنسانية وتعتدي على الكرامة البشرية وقد امتد رفض البياتي هذا إلى الإعجاب برافضين من تاريخنا العربي ومن العالم الغربي، فمحي الدين بن عربي الشاعر الأندلسي صاحب فلسفة وحدة الوجود والفتوحات الملكية كان في تصوفه وفي حبه رافضا للثقافة السائدة والتدين الساري متبنيًا موقفًا إنسانيًا فريدا لا علاقة له بما هو جاري العمل به في الواقع، وقد نال هذا الشاعر احترام وحب البياتي إلى درجة أنه أوصى أن يدفن إلى جواره في دمشق.

ويمتد إعجاب البياتي إلى شاعر كبير من إسبانيا هو غارسيا لورقا وهو في الشعر الإسباني شاعر رافض ورفضه أدى إلى موته مقتولا على أيدي قوات فرانكو ديكتاتور إسبانيا .

لقد رفض لورقا الثقافة الرسمية التي تنص على مركزية أوروبا وهامشية العالم الآخر كما رفض النظرية التي تربط التفوق بلون البشرة والدم، وترجع تقهقر إسبانيا الصناعي والعلمي قياسا إلى فرنسا وألمانيا إلى الوجود العربي أيام الأندلس، فقد رفض هذا الشاعر البديع أن يعتبر الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا احتلالا حال دون تقدم شبه الجزيرة الأيبيرية، بل اعتبره وجودا حضاريا أفاد إسبانيا عمرانيا وعلميا وفكريا وفنيا لم يحسن الأسبان فيما بعد احتضانه وتمثله

فكانت همجية فردناند وإيزابيلا وجودها التي صنعت فضائع يندى لها جبين الإنسانية وقد عبر لورقا عن مواقفه هذه شعرا وفي لقاءاته الصحفية إلى درجة إقلاق النظام الحاكم فأعدته قوات فرانكو تخلصا منه ومن مواقفه.

إذا وجد البياتي في هذا الشاعر صديقا كما وجد ذلك في شاعر المتصوفة وصوفي الشعراء محي الدين بن عربي والبياتي يرفض تخاذل المثقف في السكوت على ظلم الحاكم والتعلل لذلك بقوة السلطان وجبروته وحاجات النفس والتمادي في هذا الموقف المتخاذل إلى درجة التحول من سيف يناضل ضد القهر والعماء إلى مروحة تجلب للحاكم النسيم العليل لقاء اتقاء شره والظفر بمغام الدنيا !

ولقد كان الشاعر مؤمنا أن الثقافة الحقبة يجب أن يتحلى الموصوف بما بصفة النضال ضد الطبقيّة والرجعية والتخلف والقهر لحساب النهضة والحرية والكرامة خاصة والمجتمع العربي في المنعطف لم يخرج إلى آفاق العلم والحرية والإبداع الرحبة كغيره من شعوب العالم المتمدن.

إنه يرفض المثقف المتحول إلى حزمة من الغرائز تنشد الإشباع في البلاط ساكنة عن جرائم السلطان مؤثرة المصلحة الفردية على حساب مصلحة الجماعة فهو يقول عن المثقف:

يداعب الأوتار

بمشي فوق حد السيف والدخان

يرقص فوق الحبل

يأكل الزجاج

ينثني مغنيا سكران

يقلد السعدان

يركب فوق متنه الأطفال في البستان

يخرج للشمس إذا مدت إليه يدها اللسان

يكلم النجوم والأموات

ينام في الساحات !

فهذا المثقف الذي كان يفترض فيه أن يكون طليعياً تحول إلى بملوان يجيد الرياء والتلاعب بمشاعر الأمة وخذاعها والتمويه عليها، لقد صار كالدرويش رمزاً للسذاجة والغفلة وقد غدا الأمر هزأة فهو ينام في الساحات ويكلم الأموات ويتعامل بغباء مع قيم الثورة والحرية والعطاء فيخرج للشمس إذا مدت إليه يدها اللسان !

ونأتي في خاتمة المقال إلى شاعر مثير للجدل لا تكف الألسن عن تداول اسمه وترديد شعره فهو في المحدثين كأبي الطيب في القدماء إنه الشاعر السوري نزار قباني فقد كانت حياته هو الآخر تجسيدا لمبدأ الرفض وكان شعره بلورة له وذهاباً به إلى أقصى المعمورة صراخاً وتشهيراً به، وأما رفضه فيتجلى في موقفه من المرأة ومن الحب حين رفض رواية المؤسسة الرسمية المليئة بالنفاق والتحايل والقهر والكذب والسادية واحتقار الكرامة الإنسانية المتجلية في الأنوثة وفي الخط من قدرها وتلخيصها في ميزات الجنسية لأنه مجتمع الكواليس، يبطن غير ما يظهر ويرى الحب جريرة والحديث عنه دعارة ولا يرى مانعا من ممارسته في الخفاء، ألا إنه مجتمع منحط حين يأتي الرجل والمرأة كلاهما فعلاً واحد فيرى الرجل بطلا والمرأة مومساً، وقد جسد هذا الرفض في انتقامه للأخت المنتحرة التي رفضت هي الأخرى زواجا قسرياً مفضلة الموت عليه بالتشهير بالحب وبنعيمه وبالتغني بمواطن الفتنة في المرأة وفي الإعلاء من شأن الأنوثة منذ صدور ديوانه الأول

" طفولة نحد" الذي تحول تحت ضغط المؤسسات الرسمية الوصية إلى

" طفولة نحر" .

وأما الرفض السياسي للشاعر فيه صولات وجولات منذ صدور

" هوامش على دفتر النكسة"، وقد كان الشاعر فضاحاً للمواقف المتخاذلة مشهراً بما لا يهادن ولا يسالم معتبراً حين السياسة وتخاذلم بل ونفاقهم هو الذي أسلم فلسطين إلى أعدائها ورهن مستقبل كامل البلاد العربية وفي قصيدته المشهورة التي بعث بها إلى جامعة الدول العربية بتونس والتي عنوانها "أنا متعب بعرويتي" يتجلى هذا الرفض في حالة من الثورة العارمة والانفعالات الحادة المعبرة عن عمق الجرح ونزيفه ولقد كتبها الشاعر على الطريقة العمودية ليرد على

مؤسسة رسمية بقالب شعري رسمي نظر له الخليل لا يعوزه التحكم فيه والسيطرة عليه وقد كان تأثير هذه القصيدة مدويا لأنها صادفت هوى جميع العرب وعبرت عن مكنون ضمائرهم فمن رفض طغيان الساسة :

من أين يأتي الشعر يا قرطاجة

والله مات وعادت الأنصاب؟

من أين يأتي الشعر حين نهارها

قمع وحين مساؤنا إرهاب؟

سرقوا أصابعنا وعطر حروفنا

فبأي شيء يكتب الكتاب؟

والحكم شرطي يسير وراءنا

فنكهة خبزنا استجواب

إلى رفض استبداد المؤسسات الثقافية ومثليها من الشعراء خاصة:

من أين أدخل في القصيدة يا ترى

وحدايق الشعر الجميل خراب؟

لم يبق في دار البلايل بلبل

لا البحترى هنا ولا زرياب

شعراء هذا اليوم جنس ثالث

القول فوضى والكلام ضباب

اللاهثون على هوامش عمرنا

سيان إن حضروا وإن هم غابوا

إذا لقد كان الشعر الحديث بتمثله لمبدأ الرفض شعرا تقدما وإنسانيا وكان هؤلاء الشعراء الأعلام فرسان الكلمة ورجال الموقف نأوا بالشعر عن قصور الحكام ونزهوا الشعر عن تضمنه العريضة المحببة إلى قلوب الجماهير، لقد طوحوا به في آفاق الإنسانية الرحبة ، والتزموا حقا- كما يلح جون بول سارتر على فكرة الالتزام في الأدب وعلى ضرورة تأميمه- بقضايا الوطن وتاريخه العريق وحاضره التعس ومستقبله المرهون بلا خطابية فجأة أو إيديولوجية مقبلة فحافظ شعرهم على طراوته ونكهته الوجدانية ومضامينه الفكرية والإنسانية، وقد ساعدتهم على ذلك نفس شعري قوي لا يخمد وروح تجديدية عنيدة لا تقهر ولا تخبو نارها، ووعي بالواقع في علاقاته المتشابكة خاصة مع الغرب سياسة وثقافة بل وقوتها، فجاء هذا الشعر في صيغته الحديثة شعرا إنسانيا - على الرغم من عثراته ونقائصه-وقد أثبت قوته وشبابه وحصانته وأنه قادر على اكتساح المنابر الثقافية وضم المريدين والأشباع رغم تمرده على الذاكرة والخطابية والترنم ، وهو رد حاسم على كل المشككين في جدوى الشعر الحديث.

المعاناة الخالدة أو الإبداع في حضرة الألم⁽¹⁾

لاشئ يجعلنا عظماء غير ألم عظيم "ألفريد دي موسيه "

الألم كظاهرة جسمانية أو نفسية مظهر من مظاهر النقص في الكائن البشري وآية عدم سويته، إنه يصيب الإنسان بالعجز ويحسسه بانسحاقه وبعدم قدرته على مواصلة حياته اليومية كغيره من بني جنسه.

وسواء أكان الألم جسدياً أم نفسياً فإنه يلقي بظلاله الشاحبة على عالم اللاوعي ويمسح بكآبته على سراديب الروح فيحس الفرد بنقصه وربما عدم كفاءته -على الأقل- في ممارسة الحياة العادية كعامة الناس.

ولأن الإنسان أناني بطبعه، وغريزة البقاء متأصلة فيه ، تأصل خلاياه وأنسجته ولأن الموت والنسيان هما خصمها اللدودان، فإنه يسعى لاستكمال ذلك النقص المتجلي في المعاناة بضربها الجسدي والنفسي بالتطلع إلى عوامل لا يرقى إليها الأشخاص العاديون وبالتحليق في سماوات تقصر مدارك الناس عنها إنه اللاوعي يقاوم الفناء ويؤكد خصوصية الذات ويستتبع بذور البقاء، ويشفي الغليل -غليل نفس مهما كانت إنسانية- فهي حاكمة على الصحة الموفورة والالتزان النفسي للجماعة -القطيع- ولهذا كان شاعرنا الكبير المتنبئ على حق حين قال:

● ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأحو الجهالة في الشقاوة ينعم

(1) . مجلة الراصد الإماراتية العدد 132 أغسطس 2008.

وإذا كان فرويد يفسر الإبداع على أنه التحول في اللبido فإن كارل جوستاف يونغ السويسري يفسره على أنه إحساس بالذونية ومن ثمة التسامي -عن طريق الإبداع- بهذه الذات إلى الظهور في مستوى الناس العاديين بله والتفوق عليهم والاستعلاء على مداركهم وطموحاتهم.

وقد كانت العرب على حق حين قالت: "كل ذي عاهة جبار" وهو قول علمي أكثر منه أدبي مضمونه جمع بين الفلسفة والعلم، وترك لعقل القارئ تحليل هذا القول واستقصاء جزئياته لإدراك مراميهِ البعيدة التي شرحناها من الوجهة النفسية والوجودية في بداية المقال.

وفي أدبنا العربي قديمه وحديثه مبدعون كبار -نثار وشعراء- ينسحب عليهم هذا القول وذلك التحليل المقدم آنفاً.

لقد كان الألم مهمازاً للقرينة، ووقوداً للسير في طريق الإبداع والخلود وأجنحة حلق بما أصحابها في عوالم الفكر والشعور، ومعارج عرجت بهم إلى قمة الأملب بين أقدام أبولون فباركها بأن منحها الخلود ومنح إبداعها إكسبير البهاء والبهاء.

والعجيب في أدبائنا الشعراء والكتاب المتألمين كانوا كالشهب في سماء الخلق الفني أضاءوا وإضاءات سريعة واحتفوا عن الوجود لم يثبتوا ثبات النجوم حتى ليملها الرائي، فقد كانت حياتهم قصيرة، كان الألم والنشيج والأنين حجر الزاوية فيها، وأشد ما يلفت النظر في الشهاب سرعة حركته واندفاعه في السماء وشدته ضيائه الذي يكاد يحظف الأبصار ويكشف ما حوله من نجوم عتيقة.

وكذلك كانت حياة هذا نفر من الأدباء ولعل شاعرنا الصداح فوزي المعلوف (1899 / 1930) خير من يمثل هذه الفئة وهو إن لم يصبه الداء العياء في صدر شبابه، بل كان مثالا للصناعي الناجح في البرازيل والغني المتألق الوسيم، ولكن معاناته كانت نفسية وجودية رأت الحياة بمنظار أبي العلاء، وتشربت معاني رباعيات الخيام فبدا لها الوجود غفوة والموت صحوة والمال والبتون والصحة والوسامة مظاهر خداعة تستر على هاوية العدم وقاع الفناء، وعانى هذا الشاعر من النفاق والرياء والكذب والغرور والحسد تلك الصفات المميزة للإنسانية في ملمحها العام اسمعه يقول:

وهو حي يستهون الموت مره * من يمّت ألف مرّة كل يوم

كل ما قال فيلسوف المعره * تعب كلها الحياة وهذا

واقراً معي هذا المقطع الذي تجد فيه الشاعر قد نفذ إلى لباب الوجود

-حسب رأيه- فإذا هو الزوال والفناء:

أنت مثلي في الكون للكون كاره * نظرت وردة إلي وقالت

أجتنى بين آسه وبهاره * ويح نفسي من الربيع ففيه

على رغمها بلفحة ناره * ومن الصيف فهو يحرق أكمامي

قاتلي بين وصله ونفاره؟ * والنسيم البليل هل هو إلا

فيحجفو والعطر ملء إزاره * يتصابى حتى أسلمه نفسي

وكان آخر ما نظم هذا الشاعر:

التهاما وينهش القلب نهمنا* مرحبا بالعذاب يلتهم العين

ناقعا غلة إلى الدم عطشى* مشبعا نعمة إلى الدم حرى

وقد خاطب قلمه أجمل خطاب مرة:

لي منذ امتزجت بي وستبقى * يا يراعي مازلت خير صديق

باكيا من تعاسي حين أشقى * باسمنا من سعادي حين أهنا

وأما الشاعر اللبناني الآخر إلياس أبو شبكة (1903 / 1947) بودير الشرق هذا الشاعر الذي أبدع في وصف

الغواية، وتتبع العورة والسقطلة، فقد كان الألم دافعه في الإبداع وحاديه في الكتابة اسمعه يقول:

ولم ينكر وجنتيه السقم * من لم يذق في الخبز طعم الألم

من يمنع الأهوال أن تطعمه * من لم يغمس في هواه دمه

ومن لم يسمر في الهوى أنمله * من ليس يرقى ذروة الجللحه

ولن يرى أماله في رؤاه * لن يعرف العمر شعاع الإله

وفي البيت الثالث استلهم الشاعر قصة صلب المسيح أجمل استلهام واللافت في هذا الشاعر البارح في وصف الغواية والمدرك لحقيقة الشعر والحياة معا وهي قول وليم بليك " اذهب وطور قابليتك على رؤية الرؤى حتى تصل بها إلى أفضل ما يمكن أن تكون عليه " أنه عانى ألما جسديا ونفسيا معا عجلا به إلى هاوية العدم وما أجمل قوله:

فعدن ميراث لمن تألما * إن الشقا سلم إلى السما

وأجمل منه هذا المقطع الظاهر فيه التأثير بالرومنطيقية الفرنسية الحزينة:

احرج القلب واسق شعرك منه * فدم القلب خمره الأرقام

وإذا أنت لم تعذب وتغمس * قلما في قرارة الآلام

واشق ما شئت فالشقا محرقات * صعدت من مذابح الأرحام

رب جرح صار ينبوع شعر * تلتقي عنده النفوس الطوامي

وزفير أمسى إن قدسته الروح * ضربا من أقدس الأنعام

وعذاب قد فاح منه بخور * خالد في مجامر الأحلام

وكذلك كان شاعر مصري الذي لا يعرفه إلا القليل صالح الشرنوبي (1924-1951)

رفيق صالح جودت، جرته كآبته ومعاناته النفسية وقلقه الوجودي إلى الموت تحت عجلة القطار وهو القائل:

وآمالنا تفتى وتفتى المشاعر * غدا يا خيالي تنتهي ضحكاتنا

ويحكم فينا الموت والموت قادر * وتسلمنا أيدي الحياة إلى البلى

وقد كان الشاعر خليل شيبوب (1891م-1951) صريع الداء مكدود البدن تساقط نفسه أنفسا على حد وصف امرئ القيس لعلته، وزاده الألم النفسي قهرا وعذابا فانفجر يقول:

ذهبت صبوتي وضاعت حياتي * أنا بين الأمراض والحسرات
علما أن راحتي في مماتي * كم دعوت السماء دعوة بأس
تاعس الحظ قد سئمت حياتي * حبذا الموت يا ظلام فإني

وأما الشاعر السوداني التيجاني بشير يوسف (1912-1937)

فقد كان الألم هو الآخر - وألمه هنا نفسي- كألم صاحبه دافعه إلى الإبداع وسلمه إلى التحليق في سماء الابتكار، وقد كان كسابقيه شهابا خطف الأبصار سناه ثم انتهى رمادا ، اقرأ معي هذا المقطع الدال على معاناته:

بعد خلوصي وصفائي؟ * ثم ماذا جد من
أرى ما أنا راء * أظلمت روحي ماعدت
في صحو سمائي * أبهذا العثير الغائم
وللموت رجائي * للمنايا السود آمالي

وفي قصيدته قلب الفيلسوف يقدم لنا الشاعر ملامح شخص مرهف الحس، شديد الألم، تغطيه أسمال بالية على هيكل مكدود وهو يعني نفسه ومن على شاكلته:

أطل من جبل الأحقاب محتملا * سفر الحياة على مكدود سيماه
عاري المناكب في أعطافه خلق * من العطف قضى إلا بقاياه
مشى على الجبل المرهوب جانبه * يكاد يلمس مهوى الأرض مرقاه
هنا الحقيقة في جنبي ، هنا قيس * من السموات في قلبي ، هنا الله

أما شاعر العربية الكبير وبلبلها الصداح ونسبتها المنعشة وعبيرها الفواح ، شاعر تونس الخضراء أبو القاسم الشابي (1906 / 1934) فالألم الجسدي وقصور قلبه كانا سبب نكبته ومعاجزه إلى سماء الخلود وطريقه إلى الشعر بعد أن امتلك أسبابه وتهيأت له فواتحه، ولسنا نتحدث عن الشابي المجدد والرومانسي وصاحب رائعتي إلى الطغاة وإرادة الحياة وإنما نتحدث عن الشابي المكدود العليل الصارخ من الألم المستشعر نحايته القريبة في شرح الشباب ونضارة العمر ونكتفي بمقطعين يعبران عن معاناته الجسدية والنفسية من قصيدته "الصباح الجديد" وكأنه يؤمن في هذه القصيدة بتناسخ الأرواح، أو بفكرة البعث بعد الموت واستمرار الحياة إلى الأبد في أطوار وحيوات مختلفة، ولكنها حيلة اللاوعي وغريزة البقاء تسكن لوعته وتهدأ من روعه حتى تحين القاضية ، اسمعه يقول مخاطبا آلامه وجراحه:

أسكني يا جراح * واسكني يا شجون
 مات عهد النواح * وزمان الجنون
 وأطل الصباح * من وراء القرون
 في فجاج الردى * قد دفنت الألم
 وثرت الدموع * لرياح العدم
 واتخذت الحياة * معرفا للنغم
 أتغنى عليه * في رحاب الزمان

أما شاعر العراق الكبير ورائد شعر التفعيلة بدر شاكر السياب (1926 / 1964) فكانت معاناته جسدية، جسد ذوي كأوراق الخريف ونشاز خلقي سبب له الألم وهو الشاعر المفتون بالنساء العاشق للمرأة الراغب في امتلاكها الساعي إلى موافقتها نزولا عند رغبتها واستجابة لاستعطافها، لقد كان السياب ظاهرة فريدة طواه الموت قبل الأربعين وأخرس صوت الألم فيه ولكن الألم خالد في شعره يصيبنا بفيروسه كلما قرأنا شعره وإن كنا لسنا كالمقايض على الحجر، وفي قصيدة "دار جدي" وهي من أجمل قصائده التي توحى بحبيبة صاحب الجلالة - الزمن - وتشعرنا بتفاهتنا

وتفاهة الموجودات أمام عرشه الأزلي الأبدى، في هذه القصيدة إشارة إلى مرضه وألمه وآهته وأنه ليؤثر تأثيرا بالغا في وجدان قارئه حين يقول:

وفي ليالي الصيف حين ينعس القمر

وتذبل النجوم في أوائل السحر

أفيق أجمع الندى من الشجر

في قدح ليقتل السعال والهزال

ولما استبد بالشاعر الألم وأعياء الصراخ وجفاه النوم وانتحرت خلاياه بأسا وسكن الموت في سراديب روحه وتلايف مخه، ورأى هاوية العدم تفتتح لتبتلعه لم يجد غير الله يلوذ به ولربما أدركه اليأس حتى من الله ولكنها حيلة اللاوعي وغريزة البقاء تعمل عملها وتحيي سنتها في مخلوقاتها اقرأ معي قوله:

شهور طوال وهذي الجراح

تمزق جنبي مثل المدى

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

وقد جاءه الردى أخيرا فمسح الأوجاع وطوى الأهات وأخرس الأنات ولكنها خالدة في دواوين الشاعر.

هذه لحظة عجزى عن الألم - النفسي والجسدي- وعلاقتهما بالإبداع، استقصيناها عند بعض شعرائنا المحدثين، وإن كانت ثنائية الألم والإبداع ظاهرة موجودة في كل آداب الدنيا قديما وحديثا، وسيظل الألم هو الطريق إلى ذروة اللوحة على حد وصف شاعرنا إلياس أبي شبكة، ولكن المشكلة أنه ليس في مقدور أي إنسان أن يخلد معاناته ويؤيد ألمه ويفرض على الزمان اسمه وإبداعه وبذلك ينفلت من هاوية النسيان، فالإبداع في الأصل موهبة لها ملكاتها الفطرية في

وجدان صاحبها ويكون الألم عند البعض الوقود الذي يلهب مشاعر الأديب فيسابق الريح ويحرق المراحل ويخلد في شرح الشباب وفي نضارة الصبا.

النزعة الإنسانية في الأدب المهجري⁽⁴⁾

حظي الأدب المهجري بعناية الدارسين ونقاد الأدب ومازال كذلك، ولهذا الأدب محبوبه ومتذوقوه ، فقد كان فتحا في أدبنا الحديث، فتح عيوننا على مباحج الحياة، وروعة المغامرة وإغراء الحرية ، بعد أن ظل أدبنا أحقابا طويلة نائما في مغارة التاريخ مغمضا عينيه على مستجدات الحياة مكتفيا بالاجترار من الكتب القديمة ، وكذال ذلك لا في توليد المعاني البكر، بل في تنميق الكلام والولوع بالأسجاع واللهات وراء التورية وفي مباركة الأوضاع القائمة وهي أوضاع مزرية تميزت بالركود الاجتماعي والتأسن الثقافي والاستبداد السياسي وكانت غاية الأدب أن يصل إلى البلاط مسبحا بحمد الحاكم آناء الليل وأطراف النهار لتحقيق مآرب شخصية مضحيا بمصلحة الجماعة لحساب المصلحة الشخصية . خرج الأدب المهجري إذا من رحم المعاناة مبشرا بعصر الخصوبة وقيام طائر العنقاء من رماده صحيحا معاف وهو يحمل معول الهدم منقضا على سفاسف الماضي معليا صرحا جديدا من الأدب الخلاق المتميز بصدق الشعور ونزعة التجديد والغيرة على حاضر الأمة ومستقبلها متزودا من الثقافة العربية الأصيلة والغربية

البناء ، مستفيدا من أرض ترعرع فيها هي الأرض الجديدة - أمريكا الشمالية والجنوبية - حيث للفرد قيمة وللعلم المكانة الأولى - إنها مجتمع الصناعة والتقدم والإبداع والرفاه المادي والمعنوي وكل هذه العوامل مجتمعة وحدت صداها في عقول وضمائر وإنتاج أدباء المهجر الأدبي والفكري .

(4) . مجلة الواشنطن العربي العدد 33 .

ونحن في هذا المقال راصدون لقيم إنسانية تضمنها الأدب المهجري تاركين القيم الأخرى كالجمايلية والفكرية لمقالات أخرى وإنه تحقيق بنا نحن ورثة هذا التراث الأدبي الضخم أن تتمثله كما يتمثل الجسم الغذاء صانعا منه نسغ الحياة وأسباب الحصانة وعوامل القوة خاصة ونحن نعيش في عصر تميز بالتطرف الديني والنزاع الطائفي وسيطرة الفكر العبي السلفي أو العدمي التغريبي خاصة ومجتمعنا العربي يحمل في ثناياه اختلافات مذهبية هي في الأصل مصدر ثراء له ولو أنه يراد لها أن تكون عوامل تصدع وفرقة

أضف إلى ذلك انفتاح العالم وتطور المعلوماتية في أرقى تجلياتها - أي الثورة الرقمية - وسيطرة المؤسسات الاقتصادية العابرة للقرارات والتي غزت أسواقنا بمنتجاتها الغثة والسمنية وما نحن في حاجة إليه وما نحن في غنى عنه والتي أدت في النهاية إلى تسطيح الفكر والشعور والجري وراء بريق الألفاظ دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن المضمون، إنهما عملة حولتنا إلى كائنات طفيلية مستقبلية ومستحجية لكل المثيرات الواردة من الضفة الأخرى ، وكأن صرخة المهجريين في النصف الأول من القرن الماضي ذهبت أدراج الرياح فقد عدنا إلى الدجل على حساب العقلانية وإلى الطائفية على حساب التسامح الديني وإلى التقليد على حساب الاجتهاد وإلى العبودية على حساب الحرية وإلى الشكلائية على حساب المضمون ، وما أحرانا اليوم أن نعود إلى تلك القيم الإنسانية التي تضمنها الأدب المهجري وصدع بها وعاش لأجلها فهي التي ستعصمنا من الغرق في حضن الحضارة الحديثة . فما يحمل القيم الإنسانية التي تضمنها هذا الأدب ؟ لعل أول قيمة من قيم الأدب المهجري هي التسامح الديني ولقد عبر عن هذا المعنى بأبلغ تعبير الأديب اللبناني الكبير مارون عبود ، وهو إن لم يكن مهجريا فقد تميز في حياته وفي فكره بمهذه الخصيصة ، خصيصة التسامح الديني قال عبود : " سميت ابني محمدا نكالا في أبي الذي أسماني مارون " .

وإن كان فحوى هذه المقولة التأكيد على مبدأ العروبة فاسم محمد أ لصق بالفكر والانتماء العربيين من اسم مارون، إلا أن العروبة الإسلام لصيقتان لبعضهما لا يمكن الفصل بينهما وهذا ما عناه كاتب عربي ماروني هو الأستاذ مارون عبود ، وهو بذلك يؤكد انتماءه لحضارة الإسلام ، لقد كان شعراء المهجر وجلهم من المسيحيين يعتبرون الإسلام بعدا روحانيا وفكريا مهما في تكوينهم النفسي والعقلي فضلا عن كونه رابطة قومية لذا تراهم يذكرون الإنجيل إلى

جانب القرآن ومحمدا إلى جانب يسوع في تألف ومودة . قال الشاعر رياض المعلوف وقد كان مغتربا في البرازيل من قصيدة " الله والشاعر":

يا صاحب الملك الذي لا ينتهي

بدا وسدته المأ والسرمد

فالشعر في إنجيلنا وكتابنا

والشاعران هما المسيح و أحمد

و تأمل أيها القارئ استخدام الشاعر لضمير الجماعة في قوله " كتابنا " وهو يقصد القرآن الكريم مؤكدا انتماء المسيحيين العرب لحضارة الإسلام.

وأما الشاعر القروي رشيد سليم الخوري المغترب في البرازيل والذي عرف بنزعة القومية الحارة وغيرته على الأمة العربية وقد كرس شعره داعيا إلى الحرية والعزة ،

هاهو في صرخته ضد الباطل يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة والتضحية في سبيل عزة الوطن مقتبسا عن القرآن الكريم معنى الآية الكريمة : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل " ولم تكنه مسيحيته عن الانتصار لهذا المبدأ القرآني يقول القروي :

أحبوا بعضكم بعضا وعظنا

بما ذئب فما نجت قطيعا

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب

بسيف محمد واهجر يسوعا

وتراه في قصيدة أخرى بمناسبة عيد الفطر بمتدح النبي محمدا- عليه السلام- ويفرح لرؤية الهلال يعانق الصليب بعد أن
تنجلي غاشية الاستبداد والاستعمار:

أكرم هذا العيد تكريم شاعر

يتيه بأيات النبي المعظم

ولكنني أصبو إلى عيد أمة

محررة الأعناق من رق أعجمي

إلى علم من نسج عيسى و أحمد

وآمنة في ظله أخت مريم

و يصير الشاعر إلياس فرحات المعترب في البرازيل على انتمائه العربي فوطنه هو الشام والعراق وأرض الكنانة وأرض
الجزيرة التي توحى في الوجدان العربي بظهور الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام وهذا المقطع من أشهر ما انتشر من
شعر المهجريين:

إنا وإن تكن الشام ديارنا

فقلوبنا للعرب بالإجمال

نحوى العراق ورافديه وما على

أرض الجزيرة من حصا و رمال

وإذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا

نرؤى بسائغ نيلها السلسال

بنا ومازلنا نشاطر أهلها

مر الأسى وحلاوة الآمال

وكذلك كان الشاعر السوري ميشال مغربي المغترب في ساو باولو بالبرازيل فهو أيضا يحلم بغد عربي مشرق يتعانق فيه الصليب والهلال ويعمل العرب جميعهم - مسلمون ومسيحيون - لما فيه خير الأمة العربية :

الأم تحمل في عين وليدها

حتى ولو في أحلق الأسمال

حي الحيا دون المواطن موطننا

فيه أرى داري و أنظر آلي

ويظلني علمي الذي في قلبه

يثوي صليبي في حوار هلالي

أما زعيم أدباء المهجر وكبيرهم الذي علمهم السحر جبران خليل جبران فقد تميز بتسامح ديني ظاهر في كتاباته وهو كصحة يعتبر الاختلاف المذهبي في الشرق مصدر غنى وما ذكر المعبد في كتاباته إلا ذكر الجامع وما ذكر الهيكل إلا ذكر المحراب ولو أن فلسفة جبران وموقفه من الأديان يختلف عن موقف صحبه إلا أن الجامع بينهم جميعا هو نبذ العصبية الطائفية والفرقة على أساس اختلاف الدين، فالدين لله والوطن للجميع .

وتسلمنا قراءة آثار المهجرين إلى اكتشاف خصيصة ثانية تنم عن نزعة إنسانية مكينة في أديم أصيلة في أنفسهم وهي الصفح حين الخطأ في حقهم مع الحب الخالص ولسان حالهم يقول مع المثل العربي: " إذا عز أحوك فهن "

يقول الشاعر زكي قنصل المغترب في الأرجنتين:

أنا إن شكوت فدمعتي من جفنكم

وإذا شدوت فصوتكم قيثاري

مرحى بني أُمي لأنتم مفزعي

في النائبات وأنتم أظفاري

في ظلکم نبئت خوافي شهري

وزها جناحي واستطار غباري

واقراً هذه الأبيات للشاعر ندره حداد المغترب في أمريكا وتأمل ما احتوت عليه من تسامح ومغفرة وإنها لكنوز أخلاقية
حقيق بنا أن نتمثلها في الحياة أحسن تمثيل :

أنا راض بالعصا يا

أيها الحامل رمحك

وسأرضى خبزك الـ

أسود في الحب وملحك

وسأنسى جرح قلبي

كلما شاهدت جرحك

وإذا أخطأت نحوي

فأنا أطلب صفحك

ونفس النزعة نزعة التسامح تطالعك وأنت تطالع الشاعر مسعود سماحة المغترب في أمريكا تصدر عن الحب المحض
للإنسانية :

كأني لم أترك للغير شؤونه

كأني عالجته غير شؤوبي

وكم من صديق لم أخنه فخانني

ومؤمن قد بات غير أمين

إذا جزت سهلا في الزمان وإنما

ستسري بوديان به وحزون

ولإيليا أبي ماضي صاحب " الجداول " و " الخمائيل " في هذا المضمار صولات وجولات وهو صاحب القصائد البديعة الداعية إلى الحب الإنساني والتحلي بأداب الاختلاف والاعتصام بمبدأ التسامح وهذه الأبيات خير ما ندلل به على هذه النزعة :

إني إذا نزل البلاء بصاحبي

دافعت عنه بناجذي ومخلمي

وشددت ساعده الضعيف بسا

عدي وسترت مكنبه العري بمنكبي

وأرى مساوئه كأني لا أرى

وأرى محاسنه كأن لم تكتب

وألوم نفسي قبله إن أخطأت

وإذا أساء إلي لم أعتب

ولا يمكن أن نغفل " ناسك الشخروب " ميخائيل نعيمة المغترب في أمريكا قبل التوحد في مغارة بمسقط رأسه " بسكتنا " وله قصيدة رائعة طافحة بالمعاني الإنسانية النابذة للحرب الداعية إلى الأخوة والتسامح وهي من قبيل الشعر المهوس كما وصف هذا اللون من الأدب الناقد الكبير المرحوم الدكتور محمد مندور، ذلك الأدب الخافت الصوت الذي يلج إلى القلب مباشرة ويستقر في قراراته محولا سلوك الإنسان إلى سعي حثيث نحو معارج الإنسانية الحقة يقول نعيمة:

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله

وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا

بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام

لنبيكي حظ موتانا

وتأمل أيها القارئ استهلال المقطع بكلمة " أخي " وهي كلمة استهل بها الشاعر كل مقطع من مقاطع القصيدة، وما

تفعله في القلب - قلب القارئ - عريبا أو أعجميا كان !

وأما الثورة على الظلم والتنديد بالطبقية واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان فالشعر المهجري خير شعر جاهر بذلك

وقد هرب أولئك المهجريون من بطش العثمانيين وآلمهم ما تركوا فيه أوطانهم من جور وفساد وامتصاص الأقوياء لدماء

الضعفاء واستشراء الفساد والإقطاع وقد أمدهم وجودهم في العالم الجديد بمعاني العدالة الاجتماعية والمساواة والكرامة

الإنسانية ويزاد وفيها منها بل امتد نقدهم حتى إلى المجتمع الأمريكي ذاته، وخير أديب ندد بذلك هو فيلسوف "

الفريكة" أمين الريحاني حين فضح استغلال البيض للسود وتردي إنسانية الإنسان بهذا الانتهاك الصارخ للكرامة

البشرية في بلد تغنى بالحرية واتخذ لها النصب .

وفي مطولة " على بساط الريح" للشاعر الشاب فوزي المعلوف الذي قضى في ريعان العمر تنديد بهذه المظالم يقول

فوزي:

أنا عبد الحياة والموت أمشي

مكرها من مهودها لقبوره

عبد ما ضمت الشرائع من جور

يخط القوي كل سظوره

بيراع، دم الضعيف له حبر

ونوح المظلوم صوت صريه

وشارك الشاعر شفيق المعلوف أخاه فوزي هذه الخصيصة فامتد حذبه حتى على الفلاح ورأى على جبينه النور ولم يره
على جبين السلطان:

وفي الحياة ديونها

كرما وما وفيت ديونه

عرق الجهاد همى على

عينيه فانطبقت جفونه

هلا نظرت جبينه

كم فيه لؤلؤة تزينه

ضنت عليه بالدموع

عيونه فبكى جبينه

وتعتبر قصيدة " المواكب " لجران إنجيل الثورة ضد تردي القيم وميوعة الإنسان وتحلل القيم ونشاز النفس الإنسانية
فيصير الاستغلال قيمة والظلم مبدءاً إنسانياً يقول جبران :

والعدل في الأرض يبكي الجن لو سمعوا

به ويستضحك الأموات لو نظروا

فالسجن والموت للجائين إن صغروا

والمجد والفخر والإثراء إن كبروا

فسارق الزهر مذموم ومختقر

وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر

وأما الحرية تلك الحورية التي لهج بذكرها الشعراء وضحي في سبيلها الأعيان والعلماء والتي هي الغاية والمبتغى من الوجود الإنساني والتي يؤدي غيابها إلى عبثية الوجود بل عدميته، وهل الإنسان إلا ذلك الكائن الذي يتميز عن غيره من الموحودات بالتنوع إلى الحرية والوعي بما؟، فهي قيمة إنسانية تستحق أن يضحي لأجلها الإنسان، وقد أخذت من اهتمام أدباء المهجر الكثير، وما لجأوا إلى العالم الجديد إلا سعياً لأجلها وهروباً من أغلال الاستبداد وقيود الحاجة التي تحيل الكائن البشري إلى ورقة زاوية تتقاذفها الرياح ذات اليمين وذات الشمال، بعد أن كان برعماً في فن الوجود يبشر بالإثمار والإيناع .

وكما قال نعمة قازان المغترب في البرازيل:

هي النفس تحيا بإحساسها

وليس على الحس من قدرة

ربت طليقا على فطرتي

وما أحيلى طفولتي!

ويستثنى من شعراء المهجر هذا الشاعر الذي تجد في شعره قلقتا في التعبير ولغة شعرية ساذجة وأخيلة مبتذلة إلا في القليل النادر.

وإذ يتأمل الأديب المهجري من موقعه الجديد في واقع عالمه العربي المتردي في دركات الجهالة، المتخبط في غياهب الاستبداد، يحزنه غياب الحرية فتراه يثور في أدبه محولاً شعره أو نثره إلى شواظ من جمر ولهب من نار عسى أن ينتفض الشعب في سبيل نيل حريته وقرأ هذين البيتين للشاعر السوري نسيب عريضة المغترب في أمريكا يخاطب وطنه:

مشت القرون وكل شعب قد مشى

معا وقومك واقفون ونوم !

لم ترتفع كف لصفعة غاشم

فيهم ولم ينطق بتهديد فم

واقراً الشاعر القروي تلقه نفساً نائرة وضميراً معذباً وعقلاً حرنأ على شيء واحد هو الحرية:

أنت حر فاستوطن البلد الحر

وصاحب من أهله إخوانا

مثلك الكون والزمان فلا تلح

مكانا ولا تسب زمانا

ليس في قضمك الحديد هوان

إن في بثك الشكاة هوانا

ويلفت نظرنا الشاعر الدمشقي جورج صيدح المقيم في الأرجنتين إلى مفهوم أوسع للحرية يتجاوز المفهوم المؤلف الساذج يقول صيدح:

غير أني عشت عمري في الشدا

فعرفت الفرق ما بين الورود

إنما الشعر انطلاق للذرى

واندفاق نحو أغوار وييد

إنه البحر الذي أمواجه

تتنالى حرة ضمن الحدود

وهذه حرية الإبداع والتصور والفكر والشعور !

ولا يمكننا أن نغفل شاعرا كبيرا ونعني الدكتور أحمد زكي أبا شادي فما كانت هجرته إلى أمريكا إلا رحلة بحث عن الحرية في وطن جديد اتخذ للحرية تمثالا ضخما في مرفأ مدينة نيويورك:

جلأت إليك يا وطننا تغنى

به الأحرار واعتز النشيد

فإنك منبري الحر المرجى

وبدء نهارى بل عمر جديد

كما يعتذر إيليا أبو ماضي لوطنه لبنان حين هجره لا ملالة بل بحثا عن الحرية وهروبا من الفساد والقمع:

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم

ركبوا إلى العلياء كل سفين

لم يهجروك ملالة لكنهم

خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون

لما ولدتهم نسورا خلقوا

لا يقنعون من العلاء بالدون

ولا ننسى جبران فهو كعادته يتجاوز في فهمه وإدراكه لحقائق الوجود المألوف والعادي فهو زلزال يهدم يقينيات القارئ وإعصار يجتث جذور المعاني الهرمة في عقولنا ونفوسنا ولعله يبالغ أحيانا إلى درجة بث الفوضى العقلية والحياتية

حين يحمل معول الهدم منقضا على البنى الاجتماعية والتاريخية غير عابئ بالمعطيات الأنثروبولوجية والسوسولوجية والتي لا شك يجهل الكثير منها غير أن غيرته على الشرف الإنساني

واستماتته في الدفاع عن حرية الإنسان المغيبة أحقابا هي ما يشفع له تطرفه، يقول جبران بعقل فلسفي ثاقب ونفس بجائنة شكاكاة: " إن بلية الأبناء في هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آباءه و أجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات " .

ويقول أيضا : " أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ، ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم " .

ونحنم هذا المقال بذكر قيمة إنسانية أخرى حوم حولها الأدب المهجري وما كان له أن يغفلها وهو الأدب الباحث عن دروب الحرية والكادح في سبيل كمال الإنسان ونعني بما نزعته التأمل تلك النزعة التي تنتهي بصاحبها إلى رمي القشور والاكتفاء باللباب

ولا تقع بالألفاظ وأكثرها براق ورصيدها من الحقيقة الإنسانية قليل ، وقد حوم الأدب المهجري حول مفهوم السعادة ونسبيتها وركز على ما هو جوهرى في الوجود الإنساني وما الرفاه المادي إلا وسيلة يفترض أن تزيد من سعادة الإنسانية ككل لا أن تتحول إلى غاية وامتياز للبعض دون الآخر ومظهر من مظاهر الطبقيّة والاستغلال . إذا فقد حوم الأدب المهجري حول هذه المعاني وامتد حومانه إلى الميتافيزيقا ووقف أمام الموت وقفة الخاشع لمواجهة هذا المصير الختمي لا على أنه عدمية بل رحلة إلى عالم آخر وليس شرطا أن تكون هذه الرحلة متفقة مع المفاهيم الدينية بل بعضها مستمد من الفلسفة الإشراقية والهندية وكالقول بوحدة الوجود أو الفيض أو تناسخ الأرواح وكلها بهدف تفسير الوجود الإنساني والموت وبث السكينة في النفس الإنسانية الحائرة المعذبة القلقة من مواجهة الموت، وقد قال إيليا أبو ماضي متعمدا الإحالة العلمية والفنية :

إن الحياة قصيدة أعمارنا

أبياتها والموت فيها القافية

متع لحاظك في النجوم وحسنها

فلسوف تمضي والكواكب باقيه

وهي دعوة إنسانية إلى الاستمتاع بهاء الكون والانغماس في مظاهر الوجود وتدوق حلاوة الحياة تناسيا للموت والعدمية ، غير أن جورج صوايا المغرب في الأرجنتين تراه في تأمله الإنساني يذهب مذهب أبي العلاء ويتفلسف على شاكلته ناصحا إيانا بنشدان الراحة في المهجوع الأبدي مادامت الدنيا دار أوصاب و مظاهر خادعة وسرابا مضللا وفناء حتميا :

أيها الواحف من طيف الممات

ينشد الغبطة في طول البقاء

ليس لولا الموت في الكون حياة

فتوجه صامتا نحو السكون !

أيها الهاجع في الوادي الظليل

حاضرا كالحلم في فكر الدهور

بدد الحلم انقضى الليل الطويل

فمتى اليقظة من هذا المهجوع

يذوي المرء ويذبل كالزهور

هل ترى ينعشه ظل الدموع ؟

وندره حداد الحمصي المغرب في أمريكا ينتهي في تأملاته الإنسانية إلى الإقرار بالحياة الاضطرارية وهامو ينصحنا بالعيش لأنه لا خيار إلا ذلك متحملين أخف الأضرار :

كم تمنينا صغارا

أن نرى يوماً كباراً

ثم صرنا نتمنى

اليوم لوعدنا صغاراً

هي دنيا كيفما دا

رت عليها المرء داراً

وكما سن لنا نحياً

ولم نعط الخياراً

واقراً هذه التأمّلات الشعريّة وما تنطوي عليه من معاني إنسانية تبحث عن الحرية الكاملة ونبالة الحس ستحزم أنّها ثمرة فكر وقاد وبصيرة ناقبة وسوف يأخذك العجب لو علمت أنّها لشاب مات يافعاً في حدود الثلاثين من عمره وأظنك تعرفه هو فوزي المعلوف :

بين روحي و بين جسمي الأسير

كان بعد ذقت مره

أنا في التراب وهي فوق الأثير

أنا عبد وهي حرة

عبد عصر من التمدن نلهو

ظلة عن لبابه بقشوره

عبد مالي أسعى إليه فأحظى

بعد طول العنا بوطأة نيرة

عبد اسمي أذيب نفسي وجسمي

طمعا في خلوده وظهوره

عبد حي جعلت قلبي مأوا

ه فأضرمت أضلعي بسعيه

واقراً إيليا أبا ماضي ثانية تراه ينصحنا بالحياة والاستمتاع بما ولو في أحلق الأسمال ، ذلك أن السعادة ليست في القصور والرياش ، بل إنها شعور نفسي غامر يفيض من القلب على المحيا مشعا إشعاعا نورانيا :

أيها الشاكي الليالي

إنما الغبطة فكره

ربما استوطنت الكوخ

وما في الكوخ كسره

وخلت منها القصور

العاليات المشمخره

تلمس الغصن المعرى

فإذا في الغصن نضره

وإذا رفث على القفر

استوى ماء وحضره

وإذا مست حصاة

صقلتها فهي دره

وما أروع قول القروي على لسان الطبيعة - وقد انتهى في تأملاته الإنسانية إلى أن الإنسان الحقيقي لم يولد بعد-
وكأن رحم الغيب مازالت تحتل به مؤجلة ميلاده إلى أمد مازال بعيدا حتى تكدح الإنسانية وتجاهد في سبيل الحق
والخير والعدل فحينها تستولده من تلك الرحم يقول القروي :

مررت بأترابي التاجرين

فلم ألق إلا العبوس الوقورا

فملت إلى الحقل حيث الصغار

تناغي الطيور وتحي الزهورا

فهل صار كل رفاقي كهولا

وهل أنا وحدي ظللت صغيرا؟

فأسمعني الطير عند الصباح

جواب الطبيعة لي تنشد

بني ولدتك طفلا حديدا

فقل للرفاق الألى تعهد

لقد ملأ الأرض أولادكم

وأنتم إلى الآن لم تولدوا

والخلاصة أن هذا الأدب كان إذا فتحا جديدا في حياتنا الأدبية والفكرية وهو ميراث في وفكري وإنساني نعتز به ، فقد خرج من رحم المعاناة وجرم الغربة وكدح المعرفة ، وقد جدد وجه أدبنا ونفض عنه غبار الماضي وحققه بمصل الحيوية والقوة فاستوى يافعا، جلدا، زخارا بالقيم الجمالية والشعورية والإنسانية ، لم تكن لغته لغة القواميس بل تتبنى البساطة فوجد فيها الإيجاء والجمال، وصان عرضه عن التكلف والرياء والمديح

الزائف ، والتزم بغير رعونة الإيديولوجيا وخطابية المنابر وحماسة الصالونات بقضية النهضة والكرامة العربية والإخلاص للأمة والوفاء لماضيها العريق ، ولئن عرف عن بعض أدبائه تساهل في اللغة عن عدم معرفة وخروج على قواعد العروض أحيانا ، ولئن شاع عن البعض الآخر تمرد حد الانحراف والمبالغة المضللة فيشفع لهم جميعا حرصهم على غد عربي مشرق ومودة إنسانية خالصة متسامحة، متضامنة مستمسكة بالسلم ، نابذة للحرب معتصمة بالحرية ، عاشقة للفن ، متذوقة للجمال ، آخذة بسبب القوة والرفاه — أي العلم ، فحسبهم ذلك وحسبنا أن نتمثل هذه القيم في حياتنا ونغرسها في أجيالنا الشابة في وطننا العربي من المحيط إلى الخليج متجاوزين قيود العصبية الدينية والمذهبية، ساعين إلى تحضة أوطاننا وإلى إمداد العالم بالقيم الإنسانية الخالدة ، وهي لباب الحياة ، تلك القيم التي طفح بها الأدب المهجري وعاش لأجلها وهي كذلك لباب هذا الأدب بل لباب الوجود الإنساني .

النهر الخالد: تأملات في شعر ميخائيل نعيمة (1)

يعتبر الأديب والكاتب والناقد والشاعر اللبناني ميخائيل نعيمة حالة فريدة في دنيا الأدب والثقافة العربية الحديثة ليس لغزارة إنتاجه فحسب ، وإنما لعوامل شتى جعلت منه مثالا نادرا للأديب الفذ والمثقف الواعي والشاعر الحي الوجدان والإنسان الطافح بالمودة والتسامح والإخاء ولكأنه وعى في صدر شبابه مقولة أبي حيان التوحيدي :

" الإنسان أشكل عليه الإنسان " فاستبطن ذاته ونزل إلى قرارة نفسه بمبضع الفكر والضمير فاستأصل منها بذور الأنانية والحسد والشرة المادي والغرور والكبرياء الزائف ، وتعهد فيها بذور التضحية والشرف وصدق القول والفعل والتواضع والزهد في متاع الدنيا فأينعت تلك البذور دوحه استظل بها في صحراء الحياة القاحلة ودعا إلى ذلك الظل من تاقت نفسه إلى الحقيقة والجمال وكمال الخلق .

وفي حياة الأستاذ ميخائيل نعيمة هدوء وسلاسة وانسياب تلقائي فهو أشبه بالنهر يجري إلى المصب بلا ضوضاء ولا تيه ، وقد أدرك مصبه منذ فجر شبابه إنه مصب الوجود حيث تتوحد الموجودات وتتناغم فتكون وحدة في كثرة ولونا موحدًا في أطراف شتى وحياة واحدة في حيوات متعددة وما الإنسان والدودة والحجر والودق إلا مظاهر للوجود الواحد الحي الفاعل .

وبلا شك فمولده في بلد الأديان والتسامح (بسكنتا) بلبنان ودراسته في الناصرة ثم في روسيا القيصرية وأخيرا في أمريكا كانت تلك الرحلة منافذ للروح والعقل والضمير حررته من عصبية الدين والقومية الرعناء بلا رقيب من الفكر والشعور وأدخلته في رحاب الإنسانية الخالدة فجاء أدبه صورة لفكره ولوجدانه بلا تزويق أو أصباغ فهو الأديب المسفول والشاعر الهامس على حد وصف أستاذنا الدكتور محمد مندور لجماعته ، ليس في حياته الخصام والنقد الجارح

(4) . مجلة صوت العروبة أمريكا 2007

والكلام النابي على عادة كتابنا في ذلك العهد أو ليس هو القائل : " عجبت لمن يغسل وجهه كل يوم ولا يغسل قلبه مرة في السنة ؟" بلى وأهميته الشعرية تكمن في تحرير الشعر العربي من الخطابية والحماسة الزائفة والرياء الماكر .

صحيح ففي النصف الأول من القرن العشرين ظهرت مدارس شعرية جددت الشعر العربي شكلا ومضمونا وتخلت عن طرائقه القديمة وقصرته على الوجدان وهموم الحياة الحديثة فجماعة "أبولو" و"جماعة الديوان" ولفيف آخر من الشعراء حقق هذا الإنجاز .

أما النتاج الشعري لجماعة "أبولو" فغلبت عليه الغنائية الحزينة وكثر فيه النحيب وطغت عليه السوداوية والاندفاع الصارخ وأما النتاج الشعري لجماعة الديوان

- وأخص العقاد بالتحديد- فجاء في معظمه فلسفة وعمارة منطقية، وغير هاتين المدرستين ممن جرى مجرى حافظ وشوقي فوقع بين مطرقة التصنع والتخلدق البياني وسندان المناسبات.

أما شعر ميخائيل نعيمة فقد تخلص من هذا كله كان كالمنهل أو كانت نفسه غورا مسها بعصاه فانبجست منها عيون رقاقة سلسلة تغذي العقل والوجدان توحى إليك كلماتها دون أن ينضب معيها ويهمس لك شاعرها في أذنك حتى يكون قريبا من وجدانك وقلبك دون أن تذهب الكلمات أدرج الرياح إن اعتلى المناير.

اقرأ معي هذا المقطع من قصيدته "أخي" تجده يقول:

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله

وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا

بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام

لبنكي حظ موتانا.

فهذا المقطع يستعلي على المنابر ويتجاني عن الجماع ، لا تجد فيه أثرا للخطابية ، إنه مقطع يخلو فيه الإنسان إلى نفسه ويقرؤه لنفسه يغذي به وجدانه وعقله ، وفي هذا المقطع دلائل شتى لعل أهمها منزعها الإنساني المتجلي في كلمة " أخي " ونزوعها السلمي وعهدنا بشعرائنا القدامى يتحمسون لساحات الوغى ويهيبون بالمهند والرديني وقراع الكنائس .

إنه شعر يلج من الأذن ليستقر في القلب فيغير ما به وليس بالشعر الذي يردد في المناسبات بالتفخيم ومد الصوت فيلج إلى الأذن الأولى ليخرج من الأذن الثانية وفي قصيدته " صدى الأجراس " هنا نقبض على الخصائص الفنية التي تميز شعر ميخائيل نعيمة فالتصنع والتكلف وانتقاء اللفظ والبراق والتفتيش في لسان العرب والقاموس المحيط عن اللفظ الدال على الملكة اللغوية أو كد الذهن في البحث عن استعارات رائعة أو تشبيهات غير مسبوقه والنزوع إلى الأبحر الطويلة النفس (الطويل، الكامل، البسيط) وحشد الشعر بالإحالات العلمية والفلسفية ليست من الخصائص الفنية لشعره .

فالشعر عنده سليقة والسليقة بنت الطبيعة والطبيعة أطياف وأحياء ومشاعر وأفكار قد قرأ معي هذا المقطع من قصيدته " صدى الأجراس " لتقع على صحة هذا الرأي:

بالأمس جلست وأفكاري

سرحت تستفسر آثاري

وترود الحاضر والماضي

أملا أن تدرك أسراري

وأفاق الشك وأنصاره

آلام العيش وأوزاره

بالله شكوكي خلني

وحدي ذا الصوت بناديني

ذا صوت صباي يردده

الوادي وشواهد صنيبي

العالم مملكتي وأنا

سلطان العالم والدهر

الزهر يعطر أنفاسي

والزهر يولد في رأسي

أشباحا راقصة لخزير

الماء وصوت الأجراس

ما بال سكينتي اضطرت

وجحافل أشباجي هربت؟

قد عاد الشك وأنصاره

آلام العيش وأوزاره

وقد تصرفنا في هذه القصيدة الطويلة للدلل على صحة رأينا في شعره إنه الشعر الهادئ الذي يجد مصبه في وجدان القارئ لا في أذن السامع والشاعر هنا يتعبد في محراب الطبيعة بفرح طفولي ويستذكر شوامخ صنين ويعاين الزهر وينبغي النهر لولا تباريح الشك وتصاريف الحياة ونكد الفكر . وقد كان شعرنا العربي بحاجة إلى هذا النوع من الشعر - شعر القلب والعقل - شعر الاندغام في الطبيعة والوجدان ، فتصير الطبيعة والشاعر واحدا بعد أن كانت موضوعا .

فمخائيل نعيمة ليس الشعر عنده معرفة (أي علما) وليس الشاعر هو الذي يعدد لك الأشياء ويتلاعب بتشبيهاها، ويقول لك ما هو ذلك الشيء بل الشعر عنده قبسة من نور الوجود ورشفة من محيط الحياة وحبل سري موصول

بمشيمة الكون يحس من خلاله قارئ شعره بإنسانيته تفيض على الوجود وبأخوته حتى للدودة وقد خاطبها مرة في إحدى قصائده بـ "ياأختاه".

ومازلت أذكر أيام الصبا وأيام الدراسة الابتدائية حين كنا تلامذة في الصفوف الابتدائية كيف كنا نحفظ قصيدته " لست أخشى " وزددها في الأزقة بل ويردها كل لنفسه وأنا واحد منهم.

كيف استطاع هذا الرجل أن ينفذ إلى قلب الطفولة العميق الغامض وإلى نفسها العجيبة المتقلبة فتأبى الطفولة أن تنسى تلك القصيدة التي منها هذه الأبيات؟ :

سقف بيتي حديد

ركن بيتي حجر

فاعصفي يا رياح

وانتحب يا شجر

واسبحي يا غيوم

واهطلي بالمطر

واقصفي يا رعود

لست أخشى خطر

من سراجي الضئيل

أستمد البصر

كلما الليل طال

والظلام انتشر

وإذا الفجر مات
والنهار انتحر
فاختفي يا نجوم
وانطفئ يا قمر
باب قلبي حصين
من صنوف الكدر
وازحفني يا نحوس
بالشقا والضجر
لست أخشى العذاب
لست أخشى الضرر
وحليني القضاء
ورفيقي القدر

وقد استخدم الشاعر مجزوء المتدارك ، والشاعر معروف باستخدامه الأجر النادرة لأنها تحقق مأربه في التحديد .

فلما كبرنا واتسعت مداركنا ودرسنا نظريات الفن والشعر وألمنا بالمذاهب الأدبية ومستويات الدلالة وحفظنا عشرات القصائد القديمة والمحدثة أدركنا ما في هذه القصيدة من جمال في ، ففي عهد الطفولة الغض فهمنا مظاهر الطبيعة على حقيقتها المطر، الليل ، الفجر ، القمر ، ركن البيت ، سقف البيت ، وهذه الدلالات تناسب عهد الطفولة وأما دلالاتها الأخرى فهي فلسفية عميقة إنها الحلولية الكونية ، حيث تتماهى ذات الشاعر مع الموجودات الموحدة في كثرتها فتستمد من ذلك الوجود السكينة

والوداعة والرضا بالقدر وتتنعم بإنسانيتها الواعية الخلاقة بلا كبرياء أو جبروت زائف إنها النهر يجري منسابا ثابت الخطى إلى مصب الوجود العظيم.

لهذا نفهم لماذا أعرض ميخائيل نعيمة عن الزواج والنسل والإغراق في المتع الحسية وتعبد في "الشخروب" فلقد وجد هناك بھجة الروح وسلوى الخاطر وتناغمت خفقات قلبه مع حفيف الشجر وانسجمت أنفاسه مع خرير الماء وجاء شعره تعبيرا عن هذا الموقف الفذ والحالة الإنسانية الفريدة التي أضفت إلى شعرنا ما كان ينقصه وسدت ثغرة كان من حق الغير أن يعتبرها مثلبة ونقيصة في أدبنا فتحية إلى ناسك "الشخروب" في رقدته الأبدية ولنا في شعره الغذاء للروح والفرح الطفولي والموقف الصوفي النبيل.

بشارة الخوري⁽¹⁾

نشوة الفرح وحسرة الزوال

ليس في أدباء لبنان المحدثين من مثل روح لبنان فكان صورته الصادقة مثل الشاعر الكبير بشارة الخوري أو الأخطل الصغير (1885-1968)، فقد كان نسيمه المنعشة تهب على القارئ فتنفحه بأريج الخزامى والعرار، فشعره انعكاس لطبيعة لبنان وأطيافها الأخاذة المازجة بين بمرج الألوان وتناسقها في غير نشاز أو تكلف، إنه الصوت الذي يبرعم في وجدان القارئ وينشر أفنائه في روحه على مدى العمر مذكرا إياه بشواهد صنين ومرابع زحلة ودروب كفرشيما وسواحل صيدا وصور حيث زرق البحر تلقي بأواجها معانقة الشاطئ الذهبي وقد استلقت عليه الأبيكار يتضاحكن ويتغامزن على المار قبالتهن شارد الذهن مفتونا بسحرهن، وقد أشعلن في القلب نارا وبثن في الروح حنيناً لمعانقة الجمال والإمسك به حتى لا تحجبه غيوم الزمن وعواديته.

كذلك كان بشارة الخوري شاعرا فذا أدرك طبيعة الشعر وسره فنزه شعره عن أن يكون نظاما، وألقى به في أحضان الجمال متعبدا في محرابه، محرقا البحور بين أقدام "أبولون" لعله يبارك شعره ويمنحه إكسير البقاء.

وليس يعني هذا عند الأخطل الصغير التنكر للقضايا الوطنية والقومية وقصر الشعر على وصف لواعج الهوى ونشوة المدام مادام الشعر هو الإمساك باللحظة. والإنقاذ لها من العدمية وإصباغ المعنى عليها تنزيها لها عن العبيثية والعماء، وليس الشعر ما يثير الغرائز فقد تتكفل بذلك أحط الصور وأحط أنواع الموسيقى وفي ذلك إهانة للشعر وتناول على عصمة الروح الشعرية المصونة عن الإسفاف والتردي، وما خلق الله الشاعر ليكون شاعرا تحت الطلب يديج القصائد إرضاء للحاكم وبطائه ويمجد الأيام والوقائع بناء على طلبات سياسية أو إيديولوجية فالشاعر قلب كبير يرفض الإكراهات والإملاءات ويتمرد عليهما، وكما يفهم الشعر على أنه رؤيا تنزل منه منزلة اللحمية وينزل الإيقاع منزلة السدا لا تفوته أبدا نكبات أمته وأفراحها وتعشق أبناء الوطن للرفاه والتقدم والحرية، فتراه يدلي بدلوه في القضايا

(1) . مجلة ديوان العرب 2008

الوطنية والقومية عن غيرة صادقة وود خالص وشهامة إنسانية بلا تكلف أو رياء حتى لا تسف به الإيديولوجيا وتقصيه عن مملكة الشعر .

وهو لم يطوف في العالم الجديد كما طوف شعراء الرابطة القلمية أو العصبة الأندلسية وأقام في لبنان إلى وفاته إلا أنه أدلى بدلوه في القضايا السياسية لوطنه الصغير لبنان ووطنه الكبير العالم العربي ، يدفعه إلى ذلك حرصه على تحضة الأمة وتحطيم أغلال الاستعمار الأجنبي أو الاستبداد السياسي وإذ أصدر جريدة " البرق الأدبية " الأسبوعية ثم اليومية فقد كان حريصا على نشر الأدب الرفيع والارتقاء بالبيان العربي إلى عصره الزاهر ولم يشمل أدباء لبنان لتكون البرق منبرهم الحر، وهو إن تردد على بغداد أو دمشق أو القاهرة وهي حواضر الثقافة العربية فلإلقاء قصيدة أو تأبين

زعيم، يحده في ذلك الأمل في وحدة عربية يكون الشعر باني أساسها وموطد دعائمها:

فلولا خلال سنها الشعر ما درى

بناة المعالي كيف تبنى المكارم

و إنه لتحقيق بإمارة الشعر التي بوع أميرا عليها في بيروت عام 1961 فقد كان استمرارا لجيل الشعراء الكبار كالبارودي وشوقي وحافظ ومطران كما كان قلبا رؤوما تشغله قضايا أمته فيفرح لفرحها ويحزن لحزنها .

وها هو الشاعر في مراثاته لسعد زغلول (1927/1857) يكشف عن حس قومي ونبالة عروبية ونزعة إنسانية واقراً له هذا المقطع يرثي زعيم مصر الكبير ومؤسس حزب الوفد لتقع على صحة هذا الرأي :

قالوا دعت مصر دهباء فقلت لهم

هل غيض النيل أم زلزل الهرم ؟

قالوا أشد وأدهى قلت ويحكم

إذن لقد مات سعد وانطوى العلم

لم لا تقولون أن العرب قاطبة

تبتيموا كان زغلول أبا لهم ؟

لم لا تقولون أن الغرب مضطرب

لم لا تقولون أن الشرق مضطرب ؟

لطف المسيح مذاب في حناجره

وعزم أحمد في جنبه يستخدم

صلى عليه النصارى في كنائسهم

والمسلمون سعوا للقبر واستلموا

وفي البيت الأخير ترى الشاعر يذكر النصرانية إلى جانب الإسلام كما كان ذلك دأبه مؤكداً الأخوة العربية حيث يتعانق الهلال والصليب، فلن يكون اختلاف الدين سبباً في الخلاف والبغضاء والفرقة فالمسيحية والإسلام دوحتان وارفقتان يستظل بهما أهل لبنان ومصر درأ لقيظ السياسة ووعتاء الطائفية في ود كبير وهما دوحتان نبتتا في تربة المشرق فكانتا من مآثره وآيات تفرده وفي ديوان الأستاذ بشارة الخوري

"الهوى والشباب" قصائد كثيرة تميزها سلاسة اللغة مع حرية الشاعر وتمكنه من البيان العربي وأصالة الخيال الذي يتوكل عليه الشاعر فيسعفه أحياناً بالصور الشعرية الفريدة وأما الموسيقى في ثنايا النص ذاته أو خارجه فهي روح شعره كأنها النخاع الذي يملأ تجويف العظم ويمده بأسباب القوة والبقاء .

ولا شك أن قارئ شعره يقف على حقيقة مفادها أن شعره يحوم حول الجمال أنى ترصده الشاعر في الوجوه أو في الموسيقى أو في النصوص الأدبية ، ولا شك أن طبيعة لبنان قد أيقظت حواسه لتذوق الجمال كما أنه أفاد من إتقانه الفرنسية واطلاعه على عيون الأدب الفرنسي خاصة أدب هوغو ولامارتين، وألفريد دي موسيه وألفريد دي فينه، ورامبو وبودلير ، وفي ديوانه بعض النصوص المعربة عن الشعر الفرنسي التي تكشف تأثره بالثقافة الفرنسية غير أن ميوله العربية أشد وأقوى .

لقد كانت حياة الأخطل الصغير كشاعر وإنسان تترنح بين ثنائية لامناص من الإفصاح عنها إنها ثنائية السرور والحسرة ، فما ذكر الجمال والحب والخمرة والأنس والنشوة إلا أعقبه بذكر الخوف والزمن الحامل معوله لهدم الأحلام وإحراق الرؤى وإصابة الخلايا بالعجز والتلف ، ويدفع الشاعر رغما عنه إلى الحنين إلى طفولته وشبابه حيث القوة و اللامبالاة وشرح الشباب الفتان :

هل لي إلى تلك المناهل رجعة

فلقد سئمت الماء غير قراح ؟

رجعى يعود بي الزمان كأمسه

صهباء صارخة وليل ضاحي

أشف روحها وأعطي مثلها

روحا وأسلم ليلتي لصباحي

روح كما انحطم الغديرعلى الصفا

شعبا مشعبة إلى أرواح

للحب أكثرها وبعض كثيرها

لرقى الجمال وبعضها للراح

ولعل الشاعر قد كفى القارئ والباحث كليهما مشقة البحث في خصائص شعره وسر حياته لما تلقب بالأخطل الصغير فهو قد طمح في حياته الأدبية إلى أن يضاهي شاعرية الأخطل ويمتلك رؤيته الشعرية وقدرته البيانية ولعل الأخطل الكبير كان قدوة الأخطل الصغير الذي يقول في الكأس والوتر داعيا إلى الصخب ودرء النوم الموحى بالهجوم :

يا صارف الكأس عنا لا تضن بما

ويا أخوا الوتر المكسال لا تنم

أدر علينا من الصهباء أفتكها

وخدر العصب المحموم بالنغم

قد يشرب الخمر من تعلو الموموم به

وقد يغني الفتى من شدة الألم

و كأن الإنسان عند الأخطل الصغير لا يعيش إلا لأجل سويجات صفاء يمسح بها الكدر عن قلبه وينتشي بسرور يراه مهيمنا في مجلس أنس ولا يذكر الشاعر الخمرة إلا قرئها بالنغم و كأن نشوة المدام لا تتأني إلا بنشوة الإيقاع .

والأخطل الصغير شاعر غزلي وهل يغض الشاعر طرفه عن الجمال الكائن في الخد الأسيل والقذ المياس والعين النجلاء والصدر المرمرى ؟ والمرأة ملهمة الشعراء ودرة الوجود ومعقد السحر والفتنة والقرب منها من نعيم والبعد عنها من ححيم وفي غزل الشاعر كبرياء رجولة وشهامة نفس وأنفة لا ترضى التهتك والفتحش، إنه غزل إنساني على الرغم من تصريحه بذكر النهود والصدور والقبلات ، ولا يمكن للشاعر أن يسف بالهوى إلى دركات الغريزة ، وفي ديوانه قصيدة تجري مجرى القصة الشعرية عن فتى عب من اللذة المحرمة وأكل من الشجرة الملعونة في أحضان ساقطة حتى أسلمته الفاحشة إلى الداء العياء و أسلمه هذا إلى ظلمات القبر .

ولم يكن الأخطل الصغير في غزله مثل جميل بن معمر أو قيس بن الملوحي يكتفي بامرأة واحدة تختصر في وجدانه مملكة النساء بيئها هيامه ويشكوها سهاده ويستعطفها وصلا ويستجديها نظرة حانية ، بل كان فراشة حوامة تطير من روض إلى روض

وتخط على زهرة وعينها على زهرة أخرى، مادامت الغاية الاستمتاع بفتنة القذ وسحر الخد وسعار القبلة المنجونة ، وتتولى الخمرة مباركة الوصال ومضاعفة

النشوة :

فتن الجمال وثورة الأقداح

صبغت أساطير الهوى بجراحي

ولد الهوى والخمر ليلة مولدي

وسيحملان معي على ألواح

يا ذابح العنقود خضب كفه

بدمائه بوركت من سفاح

أنا لست أرضى للندامي أن أرى

كسل الهوى وتناؤب الأقداح

وقارئ شعره لا تفوته ميزة تميز شعره وربما حياته ، وما كان الشعر إلا مسفرا عنها وتلك هي أنة التحسر وهي حاضرة في جميع مجالس أنسه جنبا إلى جنب مع الفرح والانتشاء فمهما سعى الشاعر إلى الصفاء و أخلص في طلب السرور ، فالزمن سيدرو ذلك حطاما ولن يجد الشاعر في يده غير الخواء ورماد الذكرى ، وصاحب الجلالة الزمن سيقهر الشاعر بأن يعطب خلاياه ويثقل خطاه، ويتكفل المشيب ببقية الديكور الموحى بالعجز والضعف وما أحسن بلاغة الشاعر في الترميز له بالثلوج في قوله :

إلفان في صيف الهوى وخريفه

عزا على غير الزمان الماحي

دعني وما زرع الزمان بمفرقي

ما كنت أدفن في الثلوج صداحي

من كان من دنياه ينفض راحه

فأنا على دنياي أقبض راحي

إني أفدي كل شمس أصيلة

حذر المغيب بألف شمس صباح

وقد كانت حسرة الزوال قاسما مشتركا بين كثير من الشعراء من طراز الأخطل الصغير ألم يقل امرؤ القيس :

كأني لم أركب جوادا للذة

ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي مرة

ولم أقل لخليلي كرى كرة بعد إجحاف

وبعده الشاعر الفارسي عمر الخيام :

فجدد مع الكأس عهد غرامك

وحل مرارتها بابتسامك

وعجل فجوقة هذي الطيور

قد لا تطيل الطواف بجامك

فهؤلاء جميعا قد نحبوا اللذات نحا وسابقوا سيف القضاء وفي النفس خوف من جيروت الزمن وتسليم فطري بانتصاره

وقد جر صخب الحياة ونعيم الأنس وفتنة الجمال شاعرنا إلى النفور من النوم فعشاق الأنس يمتقونهم لولا أنه ضرورة بيولوجية تجدد العافية ، ألم يقل الخيام:

فما أطال النوم عمرا ولا

قصر في الأعمار طول السهر؟

بلى فلا مناص من النفور من النوم لأنه يذكر بالهجوم الأبدي ، ومحاكاة لعالم الموتى والشاعر يريد صخب الأُنس
وضحيج الحياة يقول الأخطل الصغير :

يا صارف الكأس عنا لا تضن بها

ويا أcha الوتر المكسال لاتتم

وأما الملكة اللغوية وسلاسة التعبير وعذوبة الجرس وخصوصية الخيال فهي من خصائص شعر الأخطل الصغير لا تعاني
لغته ضعفاً أو قلقاً في التعبير ، فقد كان الشعر ينبجس من نفسه بتلقائية كما ينبجس الماء من المنبع ، وعلى الرغم من
أن الشاعر مارس شعر التفعيلة ركوباً لموجة التجديد كما ركبها شعراء العراق الكبار ولغيف من شعراء مصر ولبنان إلا
أن الأخطل الصغير ظل في شعره الكلاسيكي الأنضج والأكثر إغراء ، وأما شعر التفعيلة الذي مارسه فليس بذى بال
بالقياس إلى شعره العمودي ، تماماً كما كانت قصائد صلاح عبد الصبور العمودية لا أهمية لها قياساً إلى شعره كما
قرأناه في الظل و الصليب وغيره . فالأخطل الصغير مدين للبنان بالسحر الذي لف فيه شاعرنا مذ كان صبياً ويفاعا
وكهلاً ثم هرماً والشعر الحديث مدين لشاعرنا بعمقيرته الشعرية التي أبدعت رؤى شعرية جميلة ولغة سلسة طبيعة وصوراً
مبتكرة ، تحاشت المديح الزائف ، والتملق الكاذب والطابع النظمي الساذج والتقليد الأعمى ، ولئن عانى الشاعر من
فجيعة الزمن وحسرة الزوال - زوال ساعات الصفاء ولحظات الأُنس - ثم زوال الشاعر نفسه فعزأؤه وعزأؤنا تلك
الروح الشعرية الباقية والرؤى الخالدة والقصائد التي لا يناها الزمن بسيفه المسلط على رقابنا جميعاً .

بيدي لا بيدك عمرو⁽¹⁾

ظاهرة الانتحار عند أدبائنا

وأما العنوان فهو مثل أطلقته ابنة الزباء ملكة الجزيرة وفسرين لما وقعت في أيدي قصير وعمرو وكان لها خاتم فيه سم فمصته مفضلة أن تقتل نفسها قبل أن يقتلها عمرو.

هكذا يخبرنا صاحب فرائد الأدب في الأمثال والأقوال السائرة عند العرب.

وأما عمرو الذي نعنيه هنا في هذا المقال فهو القضاء أو القدر ويكون المثل بعد التحوير بيدي لا بيدك أيها القضاء ، وهكذا ينجلي المعنى ويتضح المقصد أي ظاهرة انتحار بعض أدبائنا وهي ظاهرة تستحق الالتفات إليها والكتابة عنها لأن الأديب أو المفكر هو صوت الأمة ولسانها وضميرها وعقلها وذهابها حسارة تصيب الأدب والفكر.

كان ميشال فوكو معنيا بالوضعيات الصعبة كالجنون وقد استمعنا إليه في حديث خاص مسجل عبر الفيديو وهو من أريشيف المركز الثقافي جورج بومبيدو في باريس يركز على هذه الوضعيات الصعبة لفهم العقل الإنساني وآلية تصرفه في حضم الحياة الاجتماعية والسياسية المعقدة.

وكان أستاذنا الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي رحل عن دنيانا منذ عهد قريب معنيا بمجده المآزق والوضعيات الحرجة فكتب " شخصيات قلقة" و" من تاريخ الإلحاد في الإسلام" إسهاما منه في كشف وتحلية المواقف الصعبة والحرجة بل والشاذة في تاريخ الفكر إنصافا للحق وأمانة في ذمة التاريخ.

أما ظاهرة الانتحار عند أدباء الغرب فهي ظاهرة مألوفة يعرفها قارئ العربية جيدا وليس في حاجة إلى أن أذكره بانتحار كوستلر، وهمنغواي، ويسنين وماياكوفسكي، وكاواباتا، وفرجينيا وولف ، وجاك لندن وغيرهم، إنما تجدر الإشارة إلى انتحار الأدباء اليابانيين ذي الطقوس المعروفة بـ"الهراكيري" ولقد نقل التلفزيون الياباني في السبعينات على المباشر انتحار الأديب مشيما بأن غرس السيف في صدره بينما تولى شخص آخر قطع رأسه والعجيب أن ذلك كان على المباشر وقد كتب عن هذا الحدث في إحدى مقالاته الأستاذ أحمد بجاء الدين الذي تصادفت زيارته إلى اليابان مع حدث الانتحار هذا.

(1) . مجلة العالمية المركز العربي الأمريكي للدراسات والأبحاث والنشر 2008

وللانتحار أسبابه والسبل المؤدية إليه ، فقد يكون الداء وأوجاعه واستحالة البرء منه ذريعة للعبور إلى ضفة العدم، ولكن الشائع في الانتحار عند الأدباء هو رفض المجتمع وقيمه واستحالة التكيف مع نواميسه فيلغي الأديب ذاته ويشطب نفسه من قائمة الأحياء بعد أن يدب اليأس في قلبه ويسكن في سرايب روحه وتلافيف مخه ، وعند بعض الأدباء والمفكرين حالة خاصة تصل بهم إلى الاعتقاد بعثية الوجود الإنساني وبعماء الكون وانتفاء القصدية في الطبيعة والبشر وهذا يستلزم الوحدة والكآبة وتخلخل التوازن الذهني والنفسي يجعل بصاحبه إلى قعر الهاوية.

على أن الفشل والخيبة وعدم إدراك النجاح المتوخى والشهرة الكاسحة بعد عمل أو عملين أديبين أو فنيين يصيب صاحبه باليأس وينتهي به إلى الموت الإرادي وهذا ما حدث بالتحديد للأديب الألماني هينرش فون كلايست الذي عاش في زمن غوته فشغل مسرحيته " الإبريق المكسور" عجل به إلى الموت الإرادي .

وكان المعري كعادته في طرق المسكوت عنه والإفصاح عن المكبوت قد تناول ظاهرة الانتحار في لزومياته ورأى بأنها حيلة الأنا في إنقاذ نفسها من تصاريح الحياة لولا الخوف من المجهول وهو خوف لا شعوري ، يقول المعري:

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة

مخشية لاعتراها الناس أفواجا

وكل من ألقى الدنيا عليه أذى

يؤمها تاركا للعيش أمواجا

كأس المنية أولى بي وأروح لي

من أن أعالج إثراء وإحواجا

وأغرب حادثة انتحار في أدبنا الحديث ما رواه الأديب الأستاذ إدوارد الخراط عن الشاعر الشاب المصري منير رمزي وهو من جيل الأستاذ الخراط وكان حينها أي في الأربعينات طالبا جامعيا، رهيف الحس، رجب الخيال ، سيال القلم ، أنس من نفسه القدرة على كتابة الشعر فاستجاب لمواهبه فنظم الشعر ولا شك أنه كان شعرا رومانسيا ، يصف خفقات القلوب ولواعج الهوى وألم السهاد والبعاد، وكان ذلك عهد صعود "أبولو" وشعراء الرومنظيقية الكبار رامي

وناجي وصالح جودت وأبي شادي وغيرهم وكان منهم منير رمزي الذي أحب فتاة جامعية ونظم فيها الشعر ولما كان حبيبا خجولا لم يجد القدرة على الحديث معها حتى شجعه الأصدقاء ولعل الأستاذ الخراط واحد منهم فلما لم تأبه الفتاة لكلامه ولا وضعت لحيه اعتبارا ولا لشعره قيمة قضى على نفسه ومات في ميعة الصبا.

أما الشاعر أحمد عاصي وأحسب أن مجلة الفيصل السعودية وفي عدد من أعدادها الصادرة في الثمانينات تناولت قصة حياته وتفصيل موته منتحرا.

وكان أحمد عاصي كتيب النفس يحمل في وجدانه معاناة الوجود واليأس من الحياة وتباريحها، وربما لم يحقق أحمد عاصي ما طمح إليه من شهرة كاسحة ودوي يخترق الأذان، خاصة والإنسان في حياته الأولى وفي صدر شبابه يتعشق الشهرة تعشق الفراش للنور ويسعى لشيوخ الذكر سعيا غير كلييل ، فقد يكون ذلك سببا لاختيار الشاعر الموت مختنقا ، بعد أن اكترى غرفة في أحد الفنادق وفي ليلة الرحيل تناول مخدرا أو نموما بعد أن فتح أنبوب الغاز يتسرب بهدوء وهكذا مات هذا الشاعر الشاب مختنقا بالغاز.

ويقص علينا الأستاذ صالح جودت في كتابه الصادر عن دار المعارف في سلسلة "اقرأ" وأذكر أن عنوان الكتيب هو " بلابل من الشرق" والأستاذ صالح جودت شاعر معروف كان من جماعة "أبولو" وكان صديقا لناجي وعلي محمود طه ،أقول يقص علينا قصة الشاعر صالح الشرنوبلي(1924/1951) وكان شاعرا نزع من قرية من قرى مصر إلى القاهرة ، وعرف هذا الشاعر بليونته وتسامحه حتى أنه كان يتأبط ذراع راهب من رهبان الكنيسة وهما بممشيان سويا في شوارع القاهرة وهو القائل :

غدا يا خيالي تنتهي ضحكياتنا

وأمالنا تغنى وتفنى المشاعر

وتسلمنا أيدي الحياة إلى البلى

ويحكّم فينا الموت والموت قادر

وقد كان شاعرا يائسا من الحياة ، يحمل هم الوجود وتصاريف الفكر وأعبائه فضل إنحاء حياته بإلقاء نفسه تحت عجلة القطار على طريقة الشاعر التشيكي جوزيف أتيليا بعد أن ترك في جيبه ورقة كتبها إلى أهله أوصاهم فيها بطبع ديوانه الشعري، هكذا يخبرنا صديقه الشاعر صالح جودت في كتابه الأنف الذكر.

أما الكاتب إسماعيل أحمد أدهم(1940/1911) فهو حالة خاصة ، درس الرياضيات العليا في روسيا وجاء إلى مصر وهو من أصول تركية يعلم بالجامعة ويكتب في الأدب وعرف بمحصولته الشديدة لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، ولربما أراد الشهرة لنفسه بافتعال الخصام ومعارضة الناهجين والمشهورين، غير أن إسماعيل أدهم كان مضطرب الفكر متقلب النفس، ميلا إلى الإلحاد ولربما كان إلحاده انتقاما من الله بنفي وجوده وانتهاك محرماته أكثر مما هو جدل عقلي واستدلال منطقي وهو ما ندعوه بالإلحاد النفسي، وقد كتب كتابا بعنوان " لماذا أنا ملحد؟"، وحاول النيل من طه حسين بالتشهير به وتسفيه آرائه في الشعر الجاهلي واتخاذة مطية للصعود، أضف إلى ذلك كله مرضه بالربو ومعاناته من هذا الداء العضال كل هذه الأسباب اجتمعت فأقعته بالتخلص من حياته فأغرق نفسه في البحر في مدينة الإسكندرية.

ولازال قراء العربية وأنصار الشعر الحديث والمتحمسون للشاعر الأردني تيسير سبول وهو من رواد الشعر الحديث في الأردن أقول لازالوا يذكرون انتحاره ياسا من الحياة العربية وإخفاقات الواقع ونكد السياسة وعريضة إسرائيل بعد نكسة حزيران 67 واحتلال الجولان والضفة الغربية وسيناء وهو الشاعر القومي الطموح المتغني بأمجاد قومه، المتوثب لنهضة عربية تعيد بماء صورة الأمس ، وإلى حرب تستأصل فيها الصهيونية ، ولكن الطموح الكامن في روح الشاعر لم يجد الواقع الذي يتجسد فيه هذا الطموح ، فرحل تيسير سبول بيده لا بيد القضاء.

ويأتي في قائمة المنتحرين الشاعر اللبناني الكبير خليل حاوي (1982/1925) الشاعر والأستاذ الجامعي ، صاحب السمعة الذائعة والشهرة المدوية وهو شاعر كبير من رواد الشعر الحديث استملك أدواته وأتقن فنه فصار من الكبار من ففة صلاح عبد الصبور وأمل دنقل والسياب والملائكة والبياتي، واللافت في هذا الشاعر خريج الجامعة الإنجليزية والمتمكن من الثقافة العربية ميله إلى الوحدة والكتابة في سني عمره الأخيرة وكأنه استشعر راحة اليأس واستلذ مرارة الكتابة بعد عمر حافل خفق فيه القلب للأمجاد القومية، وتوثبت الروح للنهضة المنشودة واستشرف الشاعر قيام طائر العنقاء من رماده صحيحا معاني، مبشرا بعصر الخصوبة والربيع وهماية الكابوس باندحار العدو – إسرائيل – ولكن الأيام

أظهرت للشاعر غير الذي تمثله في خاطره، وتمناه في حلمه، فانطوى على نفسه وكان آخر دواوينه الشعرية يومئ بمذه
الكآبة والإخفاق واليأس الوجودي ولا أدل على ذلك من عنوان الديوان ذاته " نحر الرماد" وهو عنوان يوحي بالخيبة
والعقم بعد أن تحولت الجذوة الملهبة نورا ونارا رمادا وقرأ هذا المقطع من هذا الديوان لتستشعر اليأس وتعرف الكآبة
وتقدر الإخفاق:

خلني للبحر للريح لموت

ينشر الأكفان زرقا للغريق

مبحر ماتت بعينيه منارات الطريق

مات ذاك الضوء في عينيه مات

لا البطولات تنجيه ولا ذل الصلاة

وأحص مفردات الكآبة واليأس والخيبة والقرف من الوجود في هذا المقطع من مثل :

(موت ، الأكفان، الغريق ، ماتت ...) وأدرك هذا اليأس الذي سكن في روع الشاعر، بعد أن بدأ المشوار حاملا
صليبه إلى ذروة الجلجلة، أو بدأ كأبطال السير الشعبية وانتهى كأبطال التراجيديا اليونانية إنه كمالاح صلاح عبد
الصبور في " الظل والصلب":

يا شجر الصفصاف إن ألفت غصن من غصونك الكثيفة

تنبت في الصحراء لو سكبت دمعتين

تصلبني يا شجر الصفصاف لو فكرت

تصلبني يا شجر الصفصاف لو ذكرت

تصلبني يا شجر الصفصاف لو حملت ظلي فوق كتفي

وانطلقت

ومن الواضح الجلي أن دلالة الصفصاف هنا هي الخصاء الذهني والعقم النفسي .

انتهى تحليل حاوي كملاح عبد الصبور وهوى إلى قاع العدم ولكن ملاح عبد الصبور مات من غير جرح، من غير دم بينما مات حاوي منتحرا ببندقيته بعد أن ملأت الدماء غرفته . وهكذا أسدل الستار على حياة شاعر كبير مشى إلى النهاية بيديه وتحدى الموت الذي كان يدب نحوه بأن حث هو الخطى إليه !

وفي الواقع فإن القائمة لا تتسع للكثيرين من الأدباء الذين أنحوا حياتهم بإرادتهم ويضيق المقام كما لا يتسع المقال لذكر الجميع من شعرائنا وكتابنا الذين رحلوا بأيديهم لا بيد عمرو .

بين ضفتين : الإحساس بالرحيل المبكر عند الشابي والسياب⁽¹⁾

يمثل الشعاعان الكبيران أبو القاسم الشابي وبدر شاكر السياب علامتين فارتقتين في أدبنا الحديث فقد حققا من النجاح وأحرزا من التفوق ما لم يحرزه شاعر آخر على الرغم من حياتهما القصيرة فقد ولد الشابي بقرية "الشابية" ناحية توزر عام 1906 وتوفي عام 1934، بينما ولد بدر شاكر السياب في "جيكور" قرب البصرة عام 1926 وتوفي بالكويت عام 1964 .

وكان الرسالة التي بدأها الشابي منضويا تحت جناح جماعة "أبولو" التي أسسها الدكتور أحمد زكي أبو شادي، كانت تلك الرسالة تحمل هم التجديد وقلق الإحياء وهاجس البعث لأدبنا العربي بعد أن نام أحقابا طويلة في مغارات التاريخ مغمضا جفنيه عن مباحج الحياة، مخلصا ضميره من هم النهضة والتقدم مكنتيا بالاجترار والتقليد والرياء والتصنع وفي تصيد اللواتم والمناسبات ومباركة السلاطين والأمراء.

كان شعر الشابي الذي يوحى عنوان ديوانه بالحركة والنماء والخصوبة "أغاني الحياة" كما يوحى بالبهجة والفرح والتبشير بقيام طائر العنقاء من رماده صحيحا معافى.

فالشابي إذا شاعر رائد مجدد مطبوع على قول الشعر، رجب الخيال، حار العاطفة صادق النبرة، مستمك أدوات الشعر من سلامة المبنى وسلاسته ومستوفي عناصر ومقومات الصورة الشعرية، وهو إن لم يتشقف بثقافة أوروبية عن طريق إتقان لغة أجنبية، لم يعقه ذلك عن الاطلاع على ما عرب من آداب الغرب وثقافته.

وإذ كان الشاعر يهيم بمغادرة الدنيا في نضارة الصبا ويفاعة الشباب بعد أن أعجزه داء تضخم القلب، وعجزت خلايا حسده عن تجديد نفسها ومواصلة مشوار الحياة الذي كان مليئا بالتوهج والبريق والطموح كان في جيكور يولد شاعر آخر هو السياب، جاء إلى الدنيا ليواصل البشارة وكأنه أحد حواربي المسيح، وفي إصحاحه وثبة جديدة وقفزة عملاقة، تجعل شعرنا الحديث كشعر الدنيا حيا فاعلا خليقا بأن يقرأ، وأن يؤثر في الناس بمضامينه الفكرية وقيمته الجمالية.

(1) . مجلة ديوان العرب 2008.

لئن كان الشابي قد ألقى بالشعر في أحضان الحياة، بعد أن كان في أحداث الماضي، ولئن كانت نزعتة الرومنطيقية برحابة خيالها واستلهاهما من الطبيعة وروعة الجرس الموسيقي المنبعث من استخدام البحور القصيرة التفعيلات واستعمال المجزوء من تلك الأجر إمعانا في الثورة على الماضي ونبذا لروح التقليد وتماشيا مع روح العصر وفلسفته، فقد دفع السياب بالشعر دفعة قوية هي أشبه بالطفرة التي يحدثنا عنها علماء الأحياء، فقد كان إبداعه شعر التفعيلة تذبذبا لدروب الشعر واستئصالا لكل الفطريات التي تعيش على حساب الصورة الشعرية وتشوه معالمها، وقد ساعد السياب في ذلك انتماؤه لبلد معروف بروح الثورة والتمرد الكامنين في أبنائه من جهة وتأثره الواضح بالثقافة الغربية خاصة الإنجليزية حيث كان يقرأ بما مباشرة شعر إليوت، ولاشك أنه أدرك الفرق بين شعرنا وشعرهم ونمط تفكيرهم ونمط تفكيرنا، وهو فرق كبير يوضح حجم المعاناة وحسامة المهمة، وثقل الرسالة .

وفي الواقع لم يكن الشابي وحده في حلبة الصراع فجماعة "الديوان"، وشعراء "أبولو" و"الرابطة القلمية" كلهم تعاونوا على إقامة صرح أدب جديد، وكذلك الشأن بالنسبة للسياب فقد كان إلى جانبه يؤدي نفس المهمة نازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وأحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور وغيرهم، ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون الشابي رائدا والسياب كذلك وإنما هي مقارنة بينهما في أسلوب تصوير المعاناة وبناء الصورة الشعرية التي تسكنها روح الإحساس بالرحيل عن الدنيا ، وانتهاء المهمة بعد أن جاء كل منهما بخيال شاعر وحلم طفل ، وأن المشوار طويل وفي العمر ما يكفي للإبداع والتغني بمباهج الحياة والاستمتاع بطيبات الدنيا ولاشك أن المرأة درتھا ، غير أن القدر أطفأ جذوة الحياة في الشاعرين ، وحكم على خلايا جسديهما بالتلف والانحلال لولا أن شعرهما اكتسى برداء الخلود، وبريق البقاء ، وإشعاع الدوام.

وفي قصيدة الشابي " الصباح الجديد" قناعة بالرحيل المبكر، واستشعار بالنهاية الوشيكة وليس لديه الكثير مما يريد أن يقوله لذا استخدم الشاعر هنا المجزوء، لتجى الأبيات حطفت فكر ومضات نفس تستعد للعبور إلى شاطئ العدمية ولكن الأنا يسكن من روعها - وهي مفضوطة على حب البقاء - ما في اللاوعي من إحساس باستمرار الحياة وتوالد الحياة من الموت وكأنها الفكرة القائلة بتناسخ الأرواح ولقد كان عنوان القصيدة رمزيا يوحي بالبده فالصباح هو بداية اليوم:

وأطل الصباح

من وراء القرون

وفي القصيدة ما يؤكد اطمئنان الشاعر إلى أن موته هو ميلاد جديد وحياة أخرى استنسلت من رحم الموت ذاته إلى الأبد:

إن سحر الحياة

خالد لا يزول

فعلام الشكاة

من ظلام يحول؟

ثم يأتي الصباح

وتمر الفصول

سوف يأتي ربيع

إن تقضى ربيع

والشاعر كعادته في بناء صورته الشعرية يستلهم الطبيعة ويستوحي من عناصرها على عادة شعراء الرومنطيقية، فالصباح والفصول والربيع ما هي إلا إحياءات بالبعث والميلاد من جديد، لأن الحياة في عقيدة الشاعر خالدة والإنسان يجيها في أشكال وألوان شتى ولكن من غير عدمية واضمحلال.

وفي هذه القصيدة حضور قوي لمعاناة الشاعر من المرض وتبارجه وأوجاع أعراضه وما يستتبع ذلك من سهاد وآهات وعذاب نفسي يشعر الأنا بالدونية:

أسكني يا جراح
واسكني يا شجون
مات عهد النواح
وزمان الجنون
في فجاج الردى
قد دفنت الألم
ونثرت الدموع
لرياح العدم
وأذبت الأسي
في جمال الوجود

والكلمات هنا على بساطتها وتلقائيتها موحية بمرارة الألم، وقسوة العذاب والصورة الشعرية تستكمل تفاصيلها بمفردات الطبيعة التي كان الشاعر يحاول الاندغام فيها اندغاما وليس جعلها موضوعا . وفي هذه القصيدة تأتي الصورة الشعرية فريدة دالة على عبقرية الشاعر في الخلق والابتكار وكونه يحرث في أرض بكر ويخلق في سماوات جديدة.

وخيال القارئ يستجيب هنا لخيال الشاعر ومعن في الإبحار معه إلى ضفة الموت والصورة الشعرية هنا فيها الحركة كجري الزورق، ونشر القلاع، فضلا عن دلالة الخضم العظيم على رحابة الأفق- أفق الحياة والموت - على السواء:

من وراء الظلام
وهدير المياه
قد دعاني الصباح

وربيع الحياه

قد جرى زورقي

في الخضم العظيم

ونشرت القلاع

فالوداع الوداع

أما السياب ففي قصيدته " دار جدي" وهي من أجمل قصائده وأشدها إيجاء بسلطان صاحب الجلالة الزمن وما يفعله في الموجودات حية وجامدة فينخرها ويذروها هباء منثورا.

إنها قصيدة التذكار والحنين ، وهي حالة سكنت في وعي الشاعر وفي لواعبه وهو كصاحبه الشابي يعاني أوجاع الألم وتباريح الداء العضال، وشبح الفناء مائل له في كل زاوية وحيثما قلب بصره، لقد كان الموت يسكن في روح الشاعر ولا شك أنه كان مدركا أن رحيله بات وشيكاً، غير أن السياب يتميز عن الشابي بقلقه الوجودي واضطرابه العقائدي وتردده بين الشك واليقين ، والإيمان والإلحاد فقد بدأ شيوعيا وانتهى قوميا وقبل رحيله أسلم نفسه للوحدة بيكي شبابه ويرثي عمره الفاني كأنه بروميثيوس استخرجت كبده ينهشها النسر، وهو يتحسر على طيبات الدنيا وفي صميمها المرأة التي اشتهاها الشاعر وتمنى لو تشمم عطرها وسحقها بأسنانه أو مصها فذابت كلها في دمه، إنه الحب بالحواس الذي كان حاضرا في شعر الشاعر دائما.

وفي قصيدته " دار جدي" وهي قصيدة توحى بحنين الشاعر إلى طفولته وفي الصميم إلى صحته وعافيته حيث كان يلهو ويمرح في صحة وعافية ، لا يتمثل له الموت في زاوية من زوايا دار جده، لكن القصيدة تبدأ موحية بالأسى وعطالة الحياة وتهدم حيويتها وراثتها كينونتتها، إنه الزمن قاهر الموجودات والذي سيقهر الشاعر بعد أن قهره الداء العضال:

مطفأة هي النوافذ الكئيب

وباب جدي موصد وبيته انتظار

وأطرق الباب فمن يجيب يفتح ؟

تجيبني الطفولة ، الشباب منذ صار

تجيبني الجرار جف ماؤها فليس تنضح

"بويب" غير أنها تذرذر الغبار!

مطفأة هي الشموس فيه والنجوم

إنه مطلع يرثي بشكل غير مباشر الوجود الحي، وتأتي دلالة الغبار تثير في النفس الإحساس بالعبثية، فالزمن قاهر الوجود هو علة الفناء والسيف المسلط على رقاب الجميع:

فنحن لا نلم بالردى من القبور

فأوجه العجائز

أفصح في الحديث عن مناجل العصور

من القبور فيه والجنائز

وحين تقفر البيوت من بناها

وساكنيها، من أغانيها ومن شكاتها

تحس كيف يسحق الزمان إذ يدور !

ولأن الشاعر على الرغم من تصارع الحياة والموت في بدنه وعلى الرغم من كونه يحس إحساسا غريزيا أن الموت هو المنتصر فإن غريزة البقاء وقلق الأنا وتشبث اللاوعي بالحياة حيث تقبع الشهوة ، على الرغم من كل ذلك فإن الشاعر لديه ما يقوله ويتشبث به ولذا استخدم تفعيلته سباعية "مستفعلن" ، وجاء السطر طويلا عكس قصيدة الصباح

الجديد حيث استسلم الشاعر للموت لأنه نقله إلى حياة جديدة وفجر ليوم جديد، فحاء البيت قصيرا جدا في القصيدة ومن المجزوء.

وفي قصيدة السياب حلولية كونية لقد حل هو في دار جده وأصبح الموضوع والذات واحدا فجسده متهدم كتهدم دار جده والفناء القار في تلك الدار قار في خلايا بدنه، وغفونة الزوايا ورائحة التراب في السقف وعلى الجدران لها ما يماثلها في بدن الشاعر من رائحة الدواء الذي لم يجد نفعا ورائحة المرض ذاته ، إنه الفناء يستدرج الشاعر إلى قرار العدم:

وهل بكيت أن تضعضع البناء

وأفقر الفناء أم بكيت ساكنيه؟

أم أنني رأيت في خرابك الفناء

محدقا إلي منك ، من دمي

مكشرا من الحجار؟ آه أي برعم

يرب فيك؟ برعم الردى ، غدا أموت

ولن يظل من قواي ما يظل من خرائب البيوت

لا أنشق الضياء، لا أعضعض الهواء

لا أعصر النهار ، أو يمصني المساء.

ولكأن الشاعر بغريزة البقاء المتأصلة فيه وتشبث وعيه ولاوعيه بالوجود واشتهاء حواسه للحياة ولطبيباتها وهو في طور الشباب لكأنه يجسد خرائب البيوت على ما تبقى منها من أطلال أما هو فسيتعفن ثم يتحلل بدنه ويصير هباء أو عدما ولا تبقى منه ذرة تستنشق الهواء أو ترى صحب الحياة.

وقد عرف ولع الشاعر بالأساطير خاصة الإغريقية التي قرأ عنها في الأدب الغربي ورأى كيف يوظفها شعراء الإنجليز لأنها تكتنف المعنى ويظل إبحارها مستمرا فضلا عن فعلها في الوعي واللاوعي الإنسانيين، والسياب في توظيفه أساطير الإغريق بين قدرة الشعر العربي الحديث على مواكبة الشعر الغربي، شكلا ومضمونا وعلى أن الأدب في النهاية تلاقح العقول وتماهي الأحاسيس، وهو موقف إنساني واحد على الرغم من اختلاف اللغة والحضارة وهو يوظف تلك الأساطير بلا إسفاف أو حشو ليدلل على غزارة ثقافته ، ولكن بوعي واقتصاد، وفي هذه القصيدة تحديدا وظف أسطورة من أساطير الإغريق أسطورة الشاعر الغنائي " أورفيوس" وهو من شعراء ملحمة هوميروس الذي نزل إلى عالم الموتى ليستعيد زوجته فسحر الآلهة بروعة إنشاده ولما فشل في تحقيق رغبات الآلهة فقد زوجته إلى الأبد.

غير أن السياب القلق الشاك يدرك أنه لن تحدث المعجزة التي تعيد إليه صحته وتستأصل مرضه ولكن الأنا قلقة خائفة واللاوعي مرعوب من فكرة الموت الحتمي لولا أن بعض هدوئه يعود إليه لأن عروسه التي افتقدها أورفيوس في عالم الموتى وفشل في استردادها على الرغم من روعة إنشاده سيظل هذا الإنشاد مقابلا موضوعيا للفناء وهو بدمومته وسرمديته يتعالى على الموت ذاته ويدحضه. وما عروس السياب إلا خلود فنه وبقاء اسمه، لكن قضى عليه الزمن وهم الموت بالإجهاد عليه ، فقد قضى هو على الزمن ، وهزم الموت بخلود شعره الذي يبقى بقاء الكلمة وخلود الحرف:

وبالغناء يا صباي، يا عظام، يا رميم

كسوتك الرواء والضياء

وقد أمعن الشاعر في مخاصمة الزمن وانتهى إلى أنه مجرد ظاهرة شكلية وطلاء على حقيقة الوجود وماهية الموجودات، فالأرض لا تدور، والشمس بغياهما تستريح فقط ، والمرء لا يقتله الزمن، لأن الحس خالد والشعور أبدي والحياة وجدان حي وقلب مشبع برغبة الحياة والإحساس بها وهذه أشياء لا ينال منها الزمن:

وكل ضاحك فمن فؤاده، وكل ناطق فمن فؤاده

وكل نائح فمن فؤاده، والأرض لا تدور

والمرء لا يموت إن لم يفترسه في الظلام ذيب

أو يختطفه مارد، والمرء لا يشيب

فهكذا الشيوخ منذ يولدون

الشعر الأبيض والعصي والذقون

وإذا كانت هذه هي الصورة التي ينتهي إليها الوليد، الذي تمثله الشاعر شيخا بذقن وعصا وكانت حقيقة لا مرء فيها تشعرننا بسطوة الزمن وسلطانه، كان المعادل الموضوعي لهذا المأزق الوجودي هو الحياة الشاعرة المنفعلة التي تسري كالنهر خالدة وما الضحك والنواح إلا مظاهر لها وهذه لا تشيب ولا ينال منها الزمن.

لكأن الشاعر أقام القيامة على الزمن خصمه اللدود ، وأدخله قفص الاتهام ثم حكم عليه في النهاية بالبراءة لا بالإعدام فحريرته مفتعلة لا حقيقية والمقطع الأخير في القصيدة هو المؤثر وهو المقطع الذي يتقاطع مع بعض مقاطع " الصباح الجديد" لأبي القاسم الشابي، إنه مقطع عاد فيه الشاعر إلى الحديث عن علته ومعاناته وعجزه البدني وعطالته الحركية، وما أشد إيجاء " السعال" و"الهزال" بالضمور والديب نحو قعر الهاوية ، ولئن كان السهاد هو سهاد المرض وتباريح الداء، فإن خيال الشاعر مازال يعمل وغريزة البقاء فيه تصارع موج الفناء بجهد وإصرار عظيمين ولعله آمن بمقولة أبقراط " الطبيعة هي الشافية من الأمراض" فلم لا يجمع قطرات الندى من أوراق الشجر ويشربها لتزيل السعال وتبعث الشاعر كطائر العنقاء من رماده صحيحا معافي بعد أن فشل الطب في مداواته؟:

وفي ليالي الصيف حين ينعس القمر

وتذبل النجوم في أوائل السحر

أفيق أجمع الندى من الشجر

في قدح ليقتل السعال والهزال

وها هو خيال الشاعر يجنح به إلى الآفاق وينسيه نوعا ما عاهته ويسكن من روع الأنا وفجعة اللاوعي بالفناء ، ها هو الشاعر قد صار سندباد في حل وترحال، ليس على الأرض وفي غياهب البحار ولكن في السماء وفي آفاق الفضاء الرحبة:

وفي المساء كنت أستحم بالبحوم

عيناى تلتقطهن نجمة فنجمة وأركب الهلال

سفينة كأني سندباد في ارتحال

شراعى الغيوم ومرفأى المحال

وأخيرا سيستسلم الشاعر لحقيقته الموضوعية ويصدع بقرب موته، لقد صار كالشجرة التي ذبلت أوراقها وجفت
أغصانها والميت فيها أكثر من الحي:

أهكذا السنون تذهب؟

أهكذا الحياة تنضب؟

أحس أنني أذوب، أتعب

أموت كالشجر !

إن في قصيدة الشابي اليقين والاطمئنان والتلقائية والمعاني الفطرية البسيطة كما فيها المعاناة والتباريح التي تؤثر في
وجدان القارئ، وفي قصيدة السياب الثورة ، والتردد والشك والمعاني الفلسفية المركبة، وفيها كذلك الحديث عن الداء
وتباريحه والفرق بينهما هو الفرق في عمر الأدب العربي وفي نضجه بين عهد "أبولو" وعهد "شعر التفعيلة" وما أحدثه
من ثورة في أدبنا الحديث.

تأملات في عالم حنا مينه الروائي⁽¹⁾

(1) . مجلة المعرفة الدمشقية ،التيبين مجلة الجاحظية/ الجزائر العدد28 السنة2007

كان سوفوكليس عميد أدباء اليونان يقول أنه وصحبه كتاب الإغريق إنما يلتقطون ما يتساقط من فتاة مائدة هوميروس ومعنى ذلك أن سوفوكليس ويوربيدس وإسخيولوس وهم كبار كتاب الإغريق يكتبون على هدي من أدب هوميروس ويتخذونه المثل الأعلى ويستوحون من آثاره الخالدة المعاني البكر والجمال الباقي على مر الزمان. وقياسا على قول سوفوكليس هذا فإنه يجوز لنا أن نقول أن كتاب الرواية عندنا وهم أكثر لا يحصيهم عد ولا يشملهم حصر إنما يلتقطون ما يتساقط من مائدتين لا مائدة واحدة كمائدة

هوميروس، وهاتان المائدتان إحداهما للأستاذ نجيب محفوظ والأخرى للأستاذ حنا مينه.

فهذان الكاتبان أحلصا لفنهما إخلاصا منقطع النظير ولم يخوضا في غيره بجمّة ودأب عجيبين فكون كل منهما عالما روائيا متميزا شاغنا يعلو على كل العوالم الروائية التي كونها كتاب آخرون- وما أكثرهم- ونحن في هذا المقال نقف متأملين في عالم حنا مينه الروائي مستكشفين آفاقه الرحبة ومعمار الفني ونظرة الإنسانية التي تميز أدبه وحياته.

وفي آخر ما أدلى به الكاتب من تصريحات ذكر أنه إذا كان نزار قباني غزا البيوت العربية بشعره فإن ثمانين في المئة منها لا تخلو من رواية من رواياته.

ولهذا القول معنيان أولهما أن فن الرواية هو الفن الذي نشطت سوقه وراجت بضاعته واستولى على عقل ووجدان القارئ العربي بعكس الشعر الذي تراجع نفوذه وقل مقدروه ومتذوقوه لندرة مبدعيه وفشلهم في جذب القارئ ومد جسور التواصل معه.

وأما المعنى الثاني فيخص كاتبنا وهو تقدير من القارئ العربي لهذا الكاتب العربي واهتمامه بما يكتب وإطلاعه على ما يبديع وهو عرفان قلما حظي به كاتب عربي معاصر.

في رواية " الثلج يأتي من النافذة " يستطن البطل فياض نفسه، وينزل إلى قرارة ضميره ليميز بين الغث والسمين وفي رحلة الكشف هذه التي بدأها بقناعته أن يكون حديدة تلقى

في المصهر ثم يطرقها الحداد، وهذا يعني مصارعة الحياة والكدح والنزول إلى قاع المجتمع ومزاولة الأشغال الشاقة لتتطهر اليد من نعومة القلم وحده، ولتنجلي الغاشية عن البصيرة بعد أن أنعمت النظر في صفحات الكتب، غير أن النضال

القسري والمفتعل سرعان ما يضمحل ويتلاشى تماما كالطلاء، إنما النضال فعل طبيعي إنساني تلقائي صادر عن ذات واعية ملتزمة لا تكلف ولا قسرية في تصرفاتها.

وفي حياة الأستاذ حنا مينه وفي أدبه من الوعي والاحترافية ما جنبه من الوقوع في هذا المأزق الوجودي ، فهو لم يكن كاتباً من كتاب الأبراج العاجية ولا مناقضاً يتكلف النضال ويفتعل الكدح، وهو مدين للحياة القاسية الخشنة والمدمية التي عاشها والتي تضمنتها سيرته الذاتية " بقايا صور " و " المستنقع " بما حققه من إبداع اشتمل على المقومات الجمالية للفن الروائي والنظرة الواقعية والرؤية الإنسانية وهي ميزات جعلته من كبار كتاب العصر ومثقفيه.

لكأن هذه الحياة الخشنة كانت المشيمة التي تغذت منها خلايا روحه وعقله وحبله السري موصول دائماً بالواقع وبالحياة الرحبة خاصة وهي في أشد حالاتها بؤساً وعدمية ولا إنسانية.

وهكذا تتطافر الرؤية الإنسانية والواقعية للحياة والثقافة النظرية واستملاك الأدوات الفنية في شخص الكاتب فتجعل منه روائياً قديراً وجديراً بأن يثير فضول القارئ ويستفزه ثم يضمن صداقته الدائمة لأن الفن عنده صار هو الحياة كما أن الحياة صارت هي المادة الخام لفنه.

ولا شك أن الأستاذ حنا مينه قد وقف في حياته وقفات للتأمل ، واستبطن الذات ووعى التاريخ في حاضره وماضيه ومستقبله وأدرك جدليته، ولا شك أنها كانت تجربة أشبه بتجارب المتصوفة في رحلتهم نحو التطهر والعرفان وإن كان هؤلاء ينتهون إلى هجرة الزمان والمكان ونبذ الحياة بينما انتهى هو إلى الاندغام في الزمان والمكان واحتضان الحياة وتمثل الهم الإنساني وتبنيه كقضية يعيش الكاتب لأجلها.

وعالم حنا مينه الروائي هو عالم الإنسان في صراعه مع الطبيعة ، والإنسان في صراعه مع المجتمع، وفي صراعه مع التاريخ.

فإذا كان التاريخ هو صيرورة وتقدم ، فإنما ذلك بفضل الفعل الإنساني ووعيه لا منة غيبية وتكون حركة الجماعة هي تناغم وتناسق تستولد رحم التاريخ وتستنسل منها تاريخاً جديداً متصلاً منفصلاً ومنفصلاً متصلاً ، والكاتب يعي هذا جيداً وهو ذو نزعة يسارية قارة في أدبه وفي حياته.

غير أن الإنسان ثمرة الوجود وأثنى ما جادت به الحياة يجد ما يعرقل وعيه ويشل طاقاته ويجهز على روح التغيير الخبيثة في نفسه وفي سراديب لاوعيه وأول المعوقات الطبيعية ذاتها وفي روايته " الشراع والعاصفة" وهي رواية تمجد الفعل الإنساني وتبارك روح التحدي والمغامرة لأجل الآخرين الكامنة في شخص الطروسي ، فالبحر إذا صار رمزا وواقعا مثار تحدي، ومصهرا تنصهر فيه الإرادة الإنسانية متخلصة من الأدران فتغدو أكثر قوة وديمومة والإنسان الحقيقي هو الذي يمارس إنسانيته بلا تكلف أو رياء فهو كالماء ينبجس تلقائيا من خوف الأرض، والاستجابة لنداء الضمير في مساعدة الآخرين وهم في لحظة حرجة - حتى ولو كانوا من المسيئين إلينا- هي صفات الطروسي وحنا مينه من الذين يسمون بالجنس في أدبهم عن طريق الرؤية الإنسانية والطبيعية الذي تراه بما أبطاله بلا إسفاف أو بجمية، فيغدو العمل الجنسي في أدبه فعلا تلقائيا طبيعيا تماما كارتواء الأرض من مطر السماء فتصبح ريانة خضراء ويانعة فالجنس والمطر كلاهما فعلا طبيعيا ذريعتان إلى النماء والخصب بلا كبت قاهر مرثي أو تهمك مخل بالشرف والإنسانية ، وأفضل الأعمال الأدبية التي تتجلى فيها هذه الخاصة ثلاثيته " حكاية بحار" "الدقل" " المرفأ البعيد " .

ولنا أن نفهم البحر في هذه الرواية على أنه البحر باصطخاب موجه ورائحة صحوره، ولنا أن نذوق ماءه الأجاج ونتعرف إلى الصاري والشراع والشخنورة- والكاتب ممن رسخوا أدب البحر في إنتاجنا الأدبي بعد أن اقتصر على البيداء في شعرنا القديم وعلى الريف والمدنية في رواياتنا الحديثة ، ولنا أن نذهب بعيدا في فهم هذه الرواية فالبحر هو الطبيعة ككل في تحديها للإنسان وعرفلتها بحتمياتها ومفاجاءاتها للتطور الإنساني، وما الفعل الإنساني إلا مغازلة فمرودة فمواقعة للطبيعة بتمك مخاطرها وإزالة عراقيلها وما التقدم الحضاري إلا فعل الإنسان في الطبيعة بروحه المتحدية وعمله الخلاق لتعود حياة البشر أكثر أمنا وسعادة وتطورا.

وأما المتحدي الثاني للإنسان والمعيق لصيرورة التاريخ وتطوره فهو المجتمع بأعرافه البالية ودجله المؤفين وانتهازية ساسته وإقطاعيه، إن هذا النوع من المجتمع يشكل تحديا للذات الواعية الطامحة إلى الحرية والعدالة والمساواة ومن ثمه يبدو الفعل في المجتمع أشبه بالحرق في الماء أو كما يقول المسيح إلقاء البذرة على الصخر لأن قوانين المجتمع الجائرة، وشلله الفكري وعطالته الروحية وتقاليده المؤفينة كل هذا يشكل تحديا لتطور التاريخ رما أشد خطرا من تحدي الطبيعة ، ولكن لا بأس فالواحد يصير اثنين والاثان ثلاثة وهلم جرا والتغيير في الأجيال يتم ببطء والصراع محتدم ومن جدل التاريخ وصراع المتناقضات تتولد الأفكار البكر وتتجسد المعاني التقدمية أفعالا ثورية خلاقة فتشمخر الحضارة وتتوطلد دعائم المدنية الحققة.

ومن مؤلفات الأستاذ حنا مينة التي تتناول هذا الجانب " الثلج يأتي من النافذة " وقد تناولناها آنفاً، ثم "الباطر" فالبطل الذي هرب الى الأدغال فرارا من جرمته ومن الناس وخوفا على نفسه بعد أن قتل اليوناني " زاخرياس " ، هرب كأوديب فارا من قدره ثم لاقاه في النهاية، وكما يقول سارتر على لسان "أورست" في الذباب "إن أجبن القتل من شعر بالندم " والحياة التي عاشها وحيدا في الأدغال يأكل السمك ويتظلل الأشجار ويلتحف السماء وكأنه حي بن يقظان يكتشف ذاته لا السماء، إن هذه الحياة قد أشعرته بالملل وبالعدمية الوجودية فقد خلق من أجل أن يعطي، ومن ثم سيعود إلى البلدة التي هجرها للدفاع عنها وحمايتها من الحوت العظيم الذي يهددها وهي نهاية رمزية توحى بعودة القطرة إلى النهر وعودة الفرد إلى أحضان الجماعة للعمل سويا .

أما رواية " الشمس في يوم غائم " فهي رواية تصب في هذا المصّب أي صراع الإنسان مع المجتمع البالي وأحكامه الجائرة وقوانينه اللانسانية ، إنهما رحلة كشف قام بها البطل مدركا في النهاية تفاهة الحياة الإقطاعية وعمقها وبلادة ناسها إضافة إلى انتهازيتها واستغلالها للتعساء والضعفاء الذين وجد في أحضانهم الأمان والفرح ومعنى الحياة الحقيقي ، وهذا المجتمع المنقسم الى فئتين، فئة الإقطاعيين وفئة الكادحين يمثل في النهاية المجتمع ككل ويمنع تقدمه والنضال إنما يسعى إلى توحيد الفئتين ليغدو المجتمع متجانسا .

وهذه الرواية من أمتع ما كتب الأستاذ حنا مينة والجانب الرمزي فيها لا يعانى إسفاً أو تمهلا فرقص الفتي المستوحى من الصورة ، صورة رمزية للواقع والمثال فيصير الواقع مثالا والمثال واقعا بالحركة والفعل الحي الذي تشارك فيه الأعضاء والوجدان ، إنه عمل الروح والبدن معا ، والخياط المقتول على يد الإقطاع ما هو إلا الحياة في نضارتها وعفويتها وطيبتها وعطائها اللامحدود إنه الإنسان الحقيقي المناضل بلا عنوان ولا نبرة خطابية ، أو روح ثورية مفتعلة ومقتله على يد قوى الشر والظلام لن يطفئ الشمعة ولن يذهب ببصيص الأمل واليوم الغائم ستنتشع غيومه وما أشد عنوان الرواية إبحاء رمزيا بانتصار القيم الإنسانية على الرذائل والمظالم .

إن قارئ هذه الرواية ينحذب إليها انجذابا شديدا لأنه يحس بنض قلب الكاتب وعرق أصابعه وخلجات نفسه بل بنض قلوب شخصيات الرواية وخلجات نفوسهم ، عكس رواية " الثلج يأتي من النافذة " التي يطفى عليها الطابع التجريدي والنبرة التعليمية مما يعث بعض الملل في نفس القارئ في بعض صفحات الرواية ، لقد كانت الإيديولوجيا

طاغية في هذه الرواية على قيمها الجمالية ومعمارها الفني ولم تكن خبيثة فيهما أو على الأقل مسابرة لهما ، وهو ما تفاداه الكاتب في روايته الرائعة " الشمس في يوم غائم " .

وأما الصراع مع التاريخ فقد تضمنته رواية " المصايح الزرق " وإذا كان الاستعمار هو قدر الشعوب العربية ، فهو في الواقع سرطان يفتك بالروح والبدن معا ، ويترك الأوطان في دياجير الجهالة والعماء ، بل يعيدها إلى عصور ما قبل التاريخ والنضال ضد الاستعمار وتحدي وسائله القمعية وفلسفته العنصرية ، وروحه التدميرية واجب الإنسانية وله الأسبقية والأولوية على صراع المجتمع و الطبيعة .

إن رواية " المصايح الزرق " تعود بنا إلى البلد " سوريا " أثناء الحرب العالمية يوم كانت تحت الانتداب الفرنسي ، وما لاقاه الشعب من ضيم وهوان وماعاناه من مرض وفقر وجهالة ، وتنحج الرواية نجحاً منقطع النظير في جذب القارئ ، لكأنه يعيش تلك المرحلة ويشترك مع ناسها الفقراء التعساء في جدهم وهزلهم ويشم رائحة العفن في الأقبية ورائحة الأبدان التي تتركم الأنوف ، ويتقزز من بركة المنتنة ، ومن معيشتها المضنية في ذلك الحي الفقير ، لكن العبودية تنتهي حين يعي العبد وضعه كما يقول ماركس ويسعى للتخلص من نير الظلم بالكفاح ونشر الوعي السياسي بين أبناء الشعب ، وليتحمل المناضل السجن والمنفى والتشريد ، فالوطن قضية والتضحية لأجله واجب ، وهذا ما انبثق في وعي الفتى " فارس " الذي مات على يد الفرنسيين تعذيباً وتنكيلاً ، تاركاً غصة في حلق والده سرعان ما تحولت إلى راحة وسلوى لأن شهادته حفل زفاف ، ولأن فارس بفكرته الثورية وتضحيته زرع في رحم البلد آلاف الفتيان ممن يحملون لواءه ويواصلون رسالته حتى النصر .

هذا ما تقوله الرواية وهي رائعة حقاً ، لا تقع في فخ الخطابية ولا المباشرة ، ويتركزها على الحي الفقير واستقصاء مظاهر بؤسه واكتشاف قيمة الخالدة كالتعاون والفرح والتفاؤل وروح الدعابة تنجح في وصل القارئ بعقل الكاتب ووجدانه .

إن روايات الأستاذ حنا مينه شرائح من الحياة الإنسانية في سعيها الخالد نحو الحق والعدل والخير وتمجيد للفعل الإنساني الذي تكون تلك القيم هي غايته فالحياة أخذ وعطاء وهي عند أستاذنا - الذي تمنى له مزيداً من العمر الحي الفاعل الخلاق - عطاء متواصل لا محدود .

رباعيات الخيام⁽¹⁾

روعة الانتشاء ولوعة الفناء

غدونا لذي الأفلاك لعبة لاعب

أقول مقالا لست فيه بكاذب

على نطع هذا الكون قد لعبت بنا

(1) . بانوراما سورية 2009.

عمر بن إبراهيم الخيام

إذا كان المعري في الشعر العربي هو " شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء " ذلك أنه ضمن شعره آراءه الفلسفية في الحياة وخلاصة تأملاته وقراءته في الفكر الفلسفي وقد جمع ذلك كله في " اللزوميات "، فحق لشاعر نيسابور وعالمها عمر الخيام أن يدعى شاعر العلماء وعالم الشعراء، فقد جمع بين العلم الدقيق والفن الأصيل وزاوج بين التأمل في العدد والتأمل في الوجود، فحاء في شعره كما جاء في علمه فزادة إبداع وأصاله فكر وصدق فزاسة وحرارة وجدان، وحق لزبدة إبداعه الشعري المعروفة بـ " الرباعيات " أن تنال مرتبة الخلود ومرتبة العالمية ، ذلك أنها خير ما أبدعته فارس من الشعر الجامع بين عمق الفكرة وجمال العبارة وصدق الشعور وحق لعمر الخيام أن يستوي بين شعراء فارس شاعرا فذا من كبار شعراء الإنسانية وأن تكون رباعياته زادا فكريا وجماليا وإنسانيا خير ما تحديه فارس إلى العالم .

وحياة الخيام غامضة لا تعرف عنها الكثير وأول شك ينتاب الباحث هو تحديد تاريخ ميلاده وقد تضاربت الروايات في ذلك ومن المرجح أنه ولد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وقد عاش في زمن السلاجقة

وهو عصر تميز بالاحن والدسائس والاختيالات، وأما لقب الخيام الذي اشتهر به فقيل أن والده كان صانع خيام، ولقد عرف الخيام منذ حداثة عهده بالألمعية والذكاء، فحفظ القرآن الكريم وأتقن علوم اللغة والدين وأنس من نفسه الميل إلى الرياضيات والفلك فأبدع فيهما وبهما طار ذكره في البلاد الإسلامية وقربه الملوك والرؤساء وكان السلطان ملك شاه السلجوقي ينزله منزلة الندماء والحقاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه ويحلمسه معه على سريره وأما أصدقاه في شبابه فهما "نظام الملك"

و"حسن الصباح" الداعية الفاطمي الذي فر إلى "الموت" وهي قلعة أسس فيها حكم "الإسماعيليين" الذين قضى عليهم "هولاكو" عام 1256 م ولما استوزر " نظام الملك " جعل لصديقه عمر عشرة آلاف ديناراً من دخل نيسابور إجلالا لمقامه وتقديرا لعلمه، ووفاء لميثاق الصداقة بينهما ، ثم اغتيل نظام الملك وانقطع دخل الخيام وقدمت العامة في دينه ورمته بالزندقة فلزم التقية، واختلف مؤرخو زمانه في عقيدته وسيرته قال فيه البيهقي: " أنه تلو ابن سينا في أجزاء علوم الحكمة وعرفه بالإمام وحجة الحق غير أنه أضاف أنه كان سيء الخلق ضيق العطن وكان يتخلل بخلال من

ذهب، أما ابن الأثير في الكامل فذكر أنه أحد المنجمين عملوا الرصد للسلطان ملك شاه السلجوقي سنة 467 هـ وقال عنه القفطي في تاريخ حكماء الإسلام: "إمام خراسان وعلامة الزمان يعلم علم يونان، ويبحث على طلب الواحد الديان، بتطهير الحركات البدنية لتنزيه النفس الإنسانية" وأما وفاة الخيام فمنهم من يجعلها سنة 515 هـ الموافق لـ 1121 م ومنهم من يجعلها سنة 526 هـ الموافق لـ 1132 م ومن مآثر الخيام العلمية " شرح ما يشكل من هندسة إقليدس " و "مقالة في الجبر والمقابلة" ، إضافة إلى أرصاده وأزواجه الفلكية.

وقد قامت شهرة الخيام على الرباعيات وهي تلك المقطوعات الشعرية المقسمة إلى أربعة أبيات ضمنها فلسفته في الوجود والملاحظ في الرباعيات هو اتفاق البيت الأول والثاني والرابع في الروي واستقلال البيت الثالث برويه وهو ما يشبه كثيرا الدوبيت الرباعي الفارسي الأصل.

ولئن اختلف نقاد الأدب ودارسو حياة الخيام في صحة نسبة الرباعيات إليه أو بعضها، فمن قائل أنها ليست لعمر الخيام الرياضي، وإنما لشاعر آخر بهذا الاسم، إلى ناقد آخر يزعم أن بعضها تصح نسبتها إليه، وبعضها الآخر مدسوس عليه خصوصا ما تعلق بالإشارة إلى الغيب والقدر والإيمان والبعث، وقد تعدد كثيرون تشويه صورة الخيام غيرة وحسدا فظلموا شعرا ونسبوه إليه حتى تثور عليه العامة وينتهي أمره إلى الحاكم الذي سيأمر بقتله رميا بالزندقة، وفي أدبنا نظير لذلك، فالمعري دس عليه الكثيرون شعرا لم يقله بثور فيه على الأديان بل يسفنها وينتقد الرسل ويشكك في عالم الغيب غير أن المعري برئ من ذلك ، ومن قائل أن كثيرا من محبي الخيام والمتحمسين له كلما وجدوا شعرا على شاكلة الرباعيات وخفي عليهم قائله نسبوه إليه عن حسن نية.

ولاشك أن استقصاء الأمر صعب وتتبع مسارب التاريخ المظلمة في ظل غياب الوثائق التاريخية التي تنير حلقاته يجعل من الأمر شبه مستحيل !

ولقد رأى نقاد الأدب عندنا وشعراؤنا المحدثون الرأي الأول أي صحة نسبة بعض الرباعيات إلى الخيام وإنكار البعض الآخر وتحمسوا لها تحمسا منقطع النظر، والحق أن الرباعيات تحفة فنية وكنز أدبي حقيق بالخلود وحقيق بالعالمية لأن مضمونها إنساني، على الرغم من تأخر اكتشاف ذلك ولسكوت فيتزجيرالد Edward Fitzgerald الإنجليزي دالة على الخيام فهو الذي اكتشفها ودرسها وتحمس لها وترجمها إلى الإنجليزية فأحدثت دويا كبيرا تجاوز إنجلترا إلى أوروبا وأمريكا ، بل أسس فيتزجيرالد ناديا في لندن سماه " نادي الخيام " ضم كل محبي الخيام وشعره ، ولم يكتف بذلك

بل سافر إلى مسقط رأس الخيام وزار قبره وأحضر معه زهرة من الزهور الحافة من حول القبر وغرسها في ناديه بلندن حتى تنفتحهم بأريج الشاعر وأريج رباعياته ، ودعك من الأسطورة التي روج لها الكثيرون من محبي الخيام والتي تزعم أن الخيام تنبأ في حياته بنمو نوع معين من الزهور حول قبره ، وهذا اللون من القصص نعرف المغزى منه، فالشخصية التاريخية يخلق محبوبها أساطير حولها حتى يستلوا مشاعر الإعجاب من الناس ويخلقوا هالة من القداسة لأن النفس المحية تنزع إلى أن تشاركها الأنفس مشاعرها ، غير أن الناقد الحصيف لا يفوته ذلك ، وباكتشاف فيتزجيرالد للخيام وترجمته لرباعياته تنبه أديبنا ونقادنا إلى قيمة الرباعيات ومضمونها الإنساني وغناها الشعوري وقيمها الفنية والجمالية وتحمسوا لنقلها إلى لغة الضاد ومنهم من عربها عن الإنجليزية كمحمد السباعي ومنهم من عربها عن الفارسية كالشاعر المصري أحمد رامى الذي سافر إلى باريس لدراسة اللغة الفارسية عامين منقبا وباحثا في الأدب الفارسي ورباعيات الخيام تحديدا ، وعقب عودته عين أمينا بدار الكتب المصرية وكان قد تهيأ له زاد أدبي فأسقط كثيرا من الرباعيات وعرب ما وثق أنه تصح نسبته إلى الخيام وقد شاعت هذه الترجمة بعد أن غنت أم كلثوم بعضا منها .

وربما كان في ترجمة رامى بعض التصرف غير أنه سعى جهده حتى لا يتقول على الخيام ما لم يقله وأن يخرج عن روح الرباعيات ساعيا جهده في ذات الوقت أن تكون الرباعيات في العربية تحفة بيانية وإنسانية وغير السباعي ورامى من الذين ترجموا الرباعيات الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي وأحمد الصافي النجفي وقد عربها عن الفارسية، ووديع البستاني والشاعر البحريني إبراهيم العريض الذي توفي حديثا وقد عربها عن الإنجليزية ، وليست هذه هي كل الترجمات إنما المشهور منها وستبقى بسحرها ومضمونها الإنساني وحيرتها الوجودية مصدر إغراء للأدباء العرب على مر الأجيال وكر الدهور بنقلها ككرة أخرى إلى العربية إمعانا في الدقة والقرب من روحها وروح مبتكرها .

فرباعيات الخيام إذا ترنمة حزينة تنعى إلينا زوال الإنسان وهيمنة الزمن وقهره للموجودات وانقلاب لحظات المنتعة شقوة وهيمنة الزمن وقهره للموجودات وانقلاب لحظات الإنسان مجرد ذكرى شأن الجذوة تشع نارا ونورا ثم تحبو رمادا والإنسان لا حول له ولا قوة أمام هذا القهر الكوني المتجلي في الموت الذي يطال بسيفه الإنسان ثمرة الوجود ومكمن العبقرية وسر الحياة ومستودع المشاعر فيغدو ذلك الكائن رهين للحد والدود والظلام الأبدى كأن لم يكن بالأمس ذلك الشاعر أو العالم أو الحاكم أو الفقيه أو الثري الذي ملأ الأسماع والأبصار ، وتغدو لحظات صفوه

وأنسه مجرد ذكرى، فما الذي ينقذ الإنسان من هذا المأزق الوجودي ؟ لا شيء غير طلب النشوة التي تهيؤها الخمرة
والبهجة التي ينشرها مجلس أنس وذلك عزاؤه وذريعته إلى تناسي فجيعته الموت مادام ليس في الإمكان تفادي قبضته .
قال الخيام (من ترجمة إبراهيم العريض من المتقارب) :

فهاهنا حبيبي لي الكأس هات

سأنسى لهاكل ماض وآت

غدا ويح نفسي غدا قد أعود

وأعرقهم في البلى من لداتي

ويقول أيضا:

أفقد يا ندم استهل الصباح

و باكر صبوحك نخب الملاح

فمكثك بين الندامي قليل

ولا رجعة لك بعد الرواح

وليست فجيعته الزوال مشاعر حوم حولها الخيام لوحده فطرفة بن العبد الشاعر الجاهلي الذي قتل في سن السادسة
والعشرين تناول ذلك في

شعره :

ألا أيهذا الزاجري أن أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي ؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ويقول كذلك :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتي

لكالطول المرخي وثيابه باليد

متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه

ومن يك في حبل المنية ينقد

غير أن الخيام يمتاز عن طرفه وغيره ممن تناولوا فجيعة الرحيل بإبداع معمار في ضمنه فلسفته الوجودية من المقطع الأول إلى المقطع الأخير دون أن ينصرف إلى أشياء أخرى أو يتناقض مع نفسه وذلك هو امتيازه الكبير .

ولللخمرة حضور قوي في الرباعيات بل هي محورها الأساسي أليست مهوى القلوب ومطلب الأنفس الشاعرة وملجأ المعذبين يتوسلون بما عرائس الشعر عليها تجود عليهم بآيات العبقرية بل حتى المتصوفة وهم رهط من الناس انقطع إلى العبادة والتأمل واجاهدة طلبا للعرفان وقد عرف هذا الرهط بالتقوى وقيام الليل وما ذاقوا خمرة في حياتهم قط، لم يجدوا غير الكرمة والخمرة والكأس يكون بما عن الحب الإلهي والانتشاء به، متناسين دنياهم منقطعين عن العالم متوحدين في الأباطح والقلل، ألم يقل ابن الفارض مكنيا بالخمرة عن الحب الإلهي :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بما من قبل أن تخلق الكرم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا

ونور ولا نار وروح ولا جسم !

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما

شربت التي في تركها عندي الإثم !

أما خمره الخيام فهي بنت الكروم وقعدة الدنان، هي خمره حقيقية وليست مجازية هي سلوى الراحل وعزاؤه وذريعته إلى النسيان بما تقر عينه وتنتشي نفسه، ويسكن رأسه فلا جرم أن يطلبها ملحا في طلبها قبل ساعة الرحيل:

سيحيا لحبك قلبي المعنى

لجورك مادام وعدك منا

لطرفك يسقي مع الخمر خمرا

فيبدع فنا وأبدع فنا

ثم يضيف:

فحدد مع الكأس عهد غرامك

وحل مرارتها بابتسامك

وعجل فحوقة هذي الطيور

قد لا تطيل الطواف بجامك

وأما المقاطع التي تغنت بها سيدة الغناء العربي وكوكب الشرق الراحلة السيدة أم كلثوم ومن ترجمة صديق عمرها الشاعر الكبير أحمد رامي فمن البيت الأول يبدأ حديث الخمره والزوال غير أن أم كلثوم وصاحبة العصمة كما كانت تدعى ، والتي كانت تتمتع عن الغناء في مكان تدور فيه الصهباء وهي المعروفة بعفافها وتقواها وحرصها على أداء الصلاة، وقد تميزت عن جل المغنيين في زمنها بثقافة أدبية عريقة، وذوق فني عالي غذته بقراءة دواوين فحول الشعراء وأمهات كتب الأدب كالأغاني والعقد الفريد وخزانة الأدب وغيرها من كتب الأدب، ولم تشأ أن تذكر الخمره فيما تغنت به من شعر

الخيّام فغيرت كلمة " الحان" إلى كلمة " الغيب" وعدلت عن كلمة " الطلى" إلى " المنى" فغنّته وفقا لسلوكها وشخصيتها .

قال الخيام من ترجمة رامى من بحر السريع كما تغنت به أم كلثوم:

سمعت صوتا هاتفا في السحر

نادى من الغيب غفاة البشر

هبوا امألوا كأس المنى قبل أن

تفعم كأس العمر كف القدر

وأما ترجمة العريض عن النص الإنجليزي لهذا المقطع بالذات فجاءت هكذا (من المتقارب) :

لقد صاح بي هاتف في السبات

أفيقوا لرشف الطلى ياغفأة

فما حقق العمر مثل الحباب

ولا جدد العمر مثل السفاة

وبين المقطعين اختلاف في إصابة المعنى الذي أراده الخيام والراجح أن رامى الأقرب إلى إصابة المعنى باعتباره عربي عن الفارسية رأسا، غير أن هذا يخلق إشكالية في الأدب تذهب حد اتهام الترجمة بالخيانة أي خيانة النص الأصلي والخروج عن معانيه الدقيقة وذلك راجع لاختلاف روح اللغة المترجم عنها والمترجم إليها، وقد كان الجاحظ يرى أن الشعر لا يترجم بهذا المعنى !

لقد كان الخيام إذا عقلا باحثا في علة الوجود ونفسا لا تركز إلى يقين، وأراد أن يتجاوز في فهمه للوجود النصوص الدينية معتمدا على تفكيره الحر وثقافته الفلسفية التي استمدتها من الفكر اليوناني وربما الهندي وهو من الذين يحق عليهم قول أبي الطيب :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وفي الرباعيات إشارة إلى مكابدة المعرفة وجحيم الشك والمجاهدة في سبيل اليقين لولا أن العمر لا يفني بذلك (من السريع):

أحس في النفس دبيب الفناء

ولم أجن من العيش إلا الشقاء

يا حسرتا إن حان حيني ولم يتح

لعقلي حل لغز القضاء

وهو في شعره يسمح لعقله بأن يوغل في التفكير في مسائل الغيب وتقليب الأمر على وجوهه كمجيء الإنسان إلى الدنيا اضطرارا والغاية منه، لكن التفكير لا ينتهي بالشاعر إلى يقين:

قال الخيام (من ترجمة رامي من السريع):

لبست ثوب العيش لم أستشر

وحررت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عني يوما ولم

أدرك لماذا جئت، أين المفر؟

فيلطلب الشاعر شيئا من العزاء في حضرة الكأس، ألا إن لحظات النشوة بدل من خلود فما أغلاها من بدل والخمرة تثير في النفس قابليات صوفية، فقد نص ولیم جيمس على أن قوة الكحول راجعة بلا شك إلى قدرته على إثارة القابليات الصوفية وهي ذلك المد من الطوفان الذي ينبثق من الدفء الداخلي والنشاط الحي وهي مستعصية في أوقات الصحو لارتباطها بالمتطلبات والشكوك والانطباعات الذاتية وقوة الكحول تأتي من قدرته على شل هذه

الديدان الماصة للحبوبة، تاركة الحرارة الحيوية لتتجمع وتشكل نوعا من الخزان الداخلي الذي هو في مضمونه تركيز للطاقت للوصول إلى لحظة "الذاتية الداخلية" .

والخيام الشاعر كما يحتفي بالخمرة يحتفي بالجمال ذلك أن قدرة الخمرة في إحداث التركيز تتيح للشاعر طرح كل همومه وأحزانه ووساوسه والتأمل في الجمال والإحساس به وتدوقه في الطبيعة والإنسان، وقد عشق الخيام الفتاة " نسرين" والتي اقتبست من الزهر اسمه وشذاه وجماله لولا أن عصفت بما ربح المنون في مقتبل العمر فأورثت الشاعر حسرة وعمقت فيه الإحساس بجزوت القدر وقهره وعدم استجابته لرغائب النفس وأحلامها، وفي أحضان الجمال يسهو الشاعر قليلا عن لوعة الفناء ومن ترجمة العريض من (المتقارب) يقول الشاعر :

ويا ليت شعري أ تلك الزهور

عرائس نعمى جللتها الستور

فمن قبلة الشمس هذا الحياء

ومن لؤلؤ الطل ذاك السرور؟

وجوهر الجمال هو النزوع إليه وتعشقه تعشق الفراش للنور والخيام به لأن في الحب سلوى عن زوال الموجود:

قال الخيام من ترجمة رامي (من السريع):

أولى بهذا القلب أن يخفقا

وفي ضرام العشق أن يحرقا

ما أضيع اليوم الذي مر بي

من غير أن أهوى وأن أعشقا !

وفي الرباعيات ظاهرة لا يمكن إغفالها تتعلق بنقد الناس والتنديد بالنفاق وتعلق الناس بالمظاهر مهملين الجوهر، ويبدو أن الشاعر عانى من ألسنة الناس وخاصة عوامهم كما عانى من مطاردة الفقهاء له الذين ربما رموه بالمروق عن الدين

والفسق والعريضة، ولذا صب الخيام جام غضبه على هؤلاء الناس متهما إياهم بالنفاق، وقرأ ذلك كله في هذين البيتين من ترجمة جميل صدقي الزهاوي (من الخفيف):

قال شيخ لمومس أنت سكرى

كل آن بصاحب لك وجد

قالت إني حقا كما قلت لكن

أنت حقا كما للناس تبدو؟

قال إني حقا كما قلت لكن

أنت حقا كما للناس تبدو؟

ومع تصريح الشاعر بطلب المتعة والنشوة تناسيا لأوصاب الوجود وحجيم الشك وعذاب الفكر وسلطنة ألسنة الناس ظل في عقله الباطن يحمل تبعه الإحساس بالذنب وهو المسلم الذي يتلو من القرآن آيات تنص على حرمة الخمر واعتبارها من الموبقات، وعن العذاب الذي أعده الله لمتعاطيها إن لم يكفوا عنها، غير أن الشاعر سيجازف بطلبها إلى آخر رفق من حياته معتمدا على إيمانه بالله وبوحدانيته وعلى فعله المعروف وإحسانه إلى الفقراء ليسلم من النعمة وفوق ذلك كله ملتصقا عفو الله الذي أوصى عباده أن لا يسرفوا على أنفسهم لأن الله يغفر الذنوب جميعا.

قال الخيام من ترجمة مصطفى وهي التل (من الطويل):

إلهي قل لي من خلا من خطيئة

وكيف ترى عاش البرئ من الذنب؟

إذا كنت تجزي الذنب بمثله

فما الفرق بينك وبينني يا ربني؟

فليسع الشاعر إلى الحان طالبا لحظات الصفو مع ندمائه، ملتصبا السعادة من ذنان بنت الحان وليشفع له إيمانه بالله
ووحدانيتها، كما قال من ترجمة العريض(من المتقارب):

لئن قمت في البعث صفر اليدين

وعطل سفري من كل زين

فيشفع لي أنني لم أكن

لأشرك بالله طرفة عين

وذلك ما حدا بالشاعر إلى اختتام رباعياته بتلك الأبيات التي تنم عن حرارة إيمانية وتسليم بوحدانية الله وأمل في
عفوه متوسمة عطفه ورحمته:

يا عالم الأسرار علم اليقين

يا كاشف الضر عن البائسين

فنا إلى ظلك فاقبل عن

عبادك توبة التائبين

وهي عودة إلى شاطئ الإيمان بعد التيه في أقيانوس التفكير وفيافي التأمل والبحران وما يلقي صاحبه من مكابدة
ومجاهدة وعذاب نفسي كبير ولربما استعان الشاعر بيقين الرياضيات على شكوك الإنسانيات ولربما أعطته نتائج
الرياضيات بعض الراحة والعزاء فأوغل في هذا العلم إبعالا منقطع النظر فتوصل إلى نتائج قيدت باسمه كحل معادلة
من الدرجة الثالثة بواسطة قطع المخروط، وطبق الرياضة على الفلك ذلك العلم الذي يعني في لاوعيه المطلق والسامي
والعالم الحر بلا حدود وهي مفاهيم يتعشقها الخيام، وله في الفلك بحوث جديدة بالإعجاب والتقدير، ولربما استعان
الشاعر بالخمرة كما يرى وليم جيمس حتى يصل إلى مرتبة الذاتية الداخلية ويشل في نفسه وعقله كل الديدان الماصة
للحيوية فيندغم بنشوة الخمرة في الوجود فتصبح الذات والموضوع واحدا، خاصة إذا رأى الإنسان أن المعرفة لا تنتهي
بالإنسان إلى معرفة كل ما يجمله لأن العمر ذاته قصير ألم يقل المتنبي ذات مرة:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته

أقامه الفكر بين العجز والتعب !

ومن ثمة يغدو الإحساس بالوجود وبمحاولة الاندغام فيه ومعالجته بالذوق خير ما يسعف المتأمل إذا استعصى عليه تحويل الوجود إلى موضوع يشبعه بحثا ودرسا واستقصاء .

كذلك كان الخيام في علمه وفي شعره وفي سيرة حياته عقلا جبارا لا يني يفكر ويدرس ويستقصي، وقبلنا إنسانيا رقيقا انطوى على أنبل المشاعر، ونفسا إنسانية كذلك رهيبة نأت عن النفاق والأناية والكذب والحسد والشره وهي من أزدل الصفات التي ندد الخيام بها.

ولقد أهدى إلينا فتى نيسابور " الرباعيات " وهي في رأينا أجود آثاره وأجل أعماله، ذلك أن العلم الرياضي والفلكي اللذين مارسهما الشاعر تجاوزهما العلم الحديث ولم تعد لهما من قيمة- اللهم إلا تتبع تاريخيهما وآلية تطوريهما - ولقد أهدى إلينا شعراؤنا وأدباؤنا رباعيات الخيام في حلة عربية قشبية فكانت في العربية كما كانت في الفارسية آية من آيات البيان والفكر والشعور .

رومنطيقية القلب الحزين⁽¹⁾

الوصف عند خليل مطران " قصيدة الأسد الباكي نمودجا"

أقحم شعر الوصف في أدبنا العربي ضمن الشعر الغنائي أو الوجداني أو الذاتي وهو الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن ذاته أو "أناه" و بلفظ موجز رؤيا الذات أو موقفها من العالم و الوجود بخلاف الشعر الموضوعي أو التمثيلي حيث يعبر فيه الشاعر عن ذات الأمة ، غير أن شعر الوصف في أدبنا العربي القديم ظل وصفا ميكانيكيا لا تندغم الذات فيه في الموضوع أولا تتصل وشائج القرابة بين الذات الشاعرة وموضوعها ، فيظل الوصف خارجيا ترى فيه أثر كد الذهن في خلق القرائن أو إدراكها بين المقتبس منه (المشبه به) والمقتبس له (المشبه) عن طريق التشبيه الصريح أو الاستعارة وترى التنفنن في ذلك ومحاولة السبق في ابتكار التشبيهات

والاستعارات ولكن من غير أن يصير الشاعر قلب الوجود وروحه فلا يسع العالم حينها إلا أن يكون مظهرًا لتلك الذات، ذلك أن الوصف بغير هذا المعنى يكون أقرب إلى العلم منه إلى الفن لأن ميكانيكيته تجيد به عن روح الشعر التي هي في الصميم رؤيا وذلك لأنك في الشعر لا تطلب الحقائق الموضوعية وإنما تطلب كيانا شعريا في تفاعله مع الوجود ورؤيته له، وذلك الكيان الشعري هو أشبه بالبناء المشمخر الذي تدخله لأول مرة مكتشفا سراديبه ورداته وغرفه متذوقا جماله واقعا على فرادته وأنت واثق أنك لم تقع على مثله من قبل على كثرة ما دخلت إلى الدور والقصور وبالمختصر فالشعر هو الرؤيا والفرادة معا لأن الروح الشعرية لا تقبل الاستنساخ ، والتقليد إعدام لها وتختفي على روح

(1) . مجلة أنوار الكويت العدد 73 السنة 2006.

الشعر، وقد غاب هذا المفهوم العميق للشعر عن أذهان أسلافنا ونقادنا القدامى فانصرفوا إلى النقد الفقهي أو تتبع السرقات الأدبية واكتشاف مصادرها لولا محاولات من هنا ومن هناك تخرج من تلك الصحراء منقذة أناها ملقية بما في إصرار في مملكة الشعر المعروفة بحدودها المتعالية على سواها من الممالك ولعل امرأ القيس أفضل الشعراء الذين فروا بجلدهم من صحراء التيه لائذين بمملكة الشعر وترى الوصف عنده لصيقا في معظم الأحوال بذاته ويغدو الوجود بمظاهره ملونا بلون ذاته وخير مثال على ذلك هو وصفه لليل:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

علي بأنواع الهموم لبيتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه

وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فالليل هنا ليس ليلي وليلك أو ليل الكائنات الذي تسكن فيه إلى بعضها البعض وليس بليل موضوعي نستمتع فيه بجمال النجوم وروعة السكون بل هو ليل خاص ملون بلون الذات الحزينة الخائفة منه والذي ترى فيه غولا يناور ويتهجم محاولا إزهاق روح الشاعر وسكينته وأنت إذا أردت مثلا للوصف الموضوعي أو الذي أمميته ميكانيكيا فلن تعدمه لأنه الكثرة الطاغية في شعر الوصف في أدبنا القديم فمنه قول امرئ القيس في وصف سرعة جواده :

مكر مفر ، مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

أو قول طرفة في وصفه الطلل :

لخولة أطلال ببرقة ثمهد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
أو كقول الأعشى في وصف مشية حبيته:
كأن مشيتها من بيت جارحها
مر السحابة لا ريث ولا عجل
أو كقول المتنبي في وصف جنث الأعداء:
نثرتهم فوق الأحيدب نثرة
كما نثرت فوق العروس الدراهم
أو كقول أبي تمام في نفس الغرض :
تسعون ألفا كآساد الشرى

نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وتستطيع أن تجد لذلك أمثلة كثيرة في شعر البارودي وإسماعيل صبري وحافظ وشوقي ولا يتسع المقام للاستطراد في ضرب الأمثلة.

غير أن الشعر الحديث وفي تأثره بالشعر الغربي الفرنسي والإنجليزي خاصة وفي العب من نظريات النقد عند أعلامه في الغرب تنبه إلى ذلك وأدرك بعض الشعراء أن الشعر في حقيقته رؤيا وكان هذا أهم مظهر من مظاهر التجديد قبل النظر في الأوزان والقوافي لا أثر فيه للتقليد أو الاستنساخ ولعل شاعرنا الكبير خليل مطران أبرز الشعراء المحدثين الذين أدركوا ذلك ونفذوا ببصيرتهم إلى حقيقة الشعر ولبابه.

وخليل مطران (1872-1943) شاعر القطرين العربي الصميم سليل الغساسنة ملوك الشام وكان آخر ملك منهم جبلة بن الأيهم الذي أسلم وقد قال الشاعر مشيرا إلى نسبه العريق هذا:

ألا يا بني غسان من ولد يعرب

وأجدادكم أجدادي العظماء

وبقيت بقية منهم لم تسلم محتفظة بنصرانيتها، ونزحت إلى لبنان بعض العائلات منها كعائلة مطران التي تمذهبت بالأرثوذكسية في البدء ثم تكتلكت وأما اللقب الذي لحق بهم فذلك أن أحد أجداد الشاعر كان مطران كنيسة بعلبك، وقد تعرضت عائلة الشاعر للاضطهاد وإلى مصادرة الأملاك التابعة لهم في وادي البقاع من قبل الولاة التابعين للباب العالي في استانبول فنزحت إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وفيها عاش الشاعر ونبه ذكره مشتغلا بالصحافة في جريدة " الأهرام" ثم أصدر عام 1900 "المجلة العربية" وعام 1902 أصدر " الجوائب" .

والشاعر أحد أركان النهضة الشعرية في العصر الحديث جمع بين الملكة الشعرية والملكة اللغوية ودقة التصوير والدفق العاطفي والتمكن من الأدب العربي قديمه وحديثه إضافة إلى إتقانه اللغتين الفرنسية والإنجليزية ومطالعه للأدبين الفرنسي والإنجليزي خاصة الرومنطيقتي منه كشعر ووردزورث وشلي وجون كيتس وبايرون وألفريد دي موسيه وفرلين ورامبو وهوغو ولامارتين وغيرهم ثم فوق ذلك كله حس إنساني رفيع ونبالة خلق وصفاء ضمير واستقامة نفس فلا يذكر غيره إلا بالخير كما ترفع عن النقد الجارح والقذف والحسد وأخلاقه شهد له بما معاصروه، ويكفي دليلا على رهافة حسه ووفائه أنه دخل مرة إلى حديقة في القاهرة فلقى فتاة في عمر الزهور أعجب بها وخفق لها فؤاده بمشاعر الوداد فحام حولها حومان النحل حول الزهر من 1897 إلى 1903 غير أن الفتاة ماتت مصدرة فحزن الشاعر لموتها وصمم على حياة العزوبية وكتب في رثاء الراحلة قصيدة يقول في مطلعها:

سررت في العمر مره

وكنت أنت المسره

فقد كان مطران إذا رجل عفة واستقامة عانى من شظف العيش وكدح بشرف مترفعا عن سفاسف الأمور وفي نظراته حزن تكشف عن ألم دفين وحسرة متمكنة من النفس لعلها حسرة الزوال وانفضاض المجالس وبطلان الحياة وتحافت ملذاتها ورغائبها ثم سلطة القدر وسيفه المسلط على الإنسان إذ لا يمكن الإنسان من نيل رغبته ولعل موت حبيبته أسوأ مؤشر على ذلك. وفي شعر مطران هدوء وسلاسة فهو غير شوقي المقتفي أثر الشعراء الكبار كالمثنوي وأبي تمام والبحرتي وهو غير حافظ صاحب المزاج الحاد وقد كانت كلماته المنتقاة موحية بذلك ، مجلجلة بتأثير من طفولته

المشردة وكهولته التعيسة من غير زوج وولد وكأنه أراد للناس حياة غير حياته فنار على الخصاصه سليله الفقر والطبقية

أما خليل مطران فهو كالنهر إذ استوى في سهل يجري هادئا متمهلا بلا صحب أو ضوضاء متأملا الوجود بنظرة حانية لا يخفى على المتأمل انكسارها ونفس يغلفها شعور بالأسى ولكنها هادئة لا تتور كالبركان وتقذف بحممها في شعرها فتحرق القارئ معها .

لقد كان الشاعر الإنجليزي ووردزورث ينصح الشعراء أن يتمهلوا فلا ينبغي أن يمسك الشاعر بقلمه كلما خفق قلبه أو اضطرت مشاعره، أي أن يكون الشعر استجابة عارضة لمؤثر خارجي بل يجب عليه أن يتأنى ويترك المشاعر تحداً والزمن يفعل فعله ليذهب الزبد حفاء وما ينفع الناس والفن يبقى وتنجلي الغاشية عن الأشياء لأن العاطفة القوية تلفها كالضباب، وهي قوية صاحبة معرودة تلمع كالشهاب فجأة ثم تحبو رويدا رويدا وتنتهي رمادا.

وقد سلم مطران من هذه الآفة التي تسيء إلى الشعر فصانه عن أن يكون زيدا أو رمادا.

وفي قصيدته "الأسد الباكي" وهي من عيون الشعر الحديث ولا تعني الحدائث أن يكون الشعر على نسق شعر التفعيلة والكثير منه رغاء، إنما الحدائث هي الوعي بالزمن والاندغام في العصر في علاقته الجدلية بالماضي منفصلا متصلا ومتصلا منفصلا وبإضافة شيء إلى المعمار الإنساني لا بكلمة تلوكها الألسن وتمجها القلوب الإنسانية الحقبة.

ولقد كتب الشاعر هذه القصيدة إثر أزمة خانقة عاشها الشاعر وطوحت به ذلك أنه فشل في مشروع من مشاريع حياته حيث عمل من عام 1909 إلى عام 1912 بالتجارة وبيع وخسر ثم قام بصفقة مضاربة خسرها فيها أمواله واعتزل يعين شمس يائسا ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد توسل الأحباب والأصحاب.

والعنوان ذاته موحى بعمق الأزمة فالأسد على سبيل الاستعارة دال على معاني الرجولة وصفاتها الجوهرية كالقوة الروحية والشهامة والترفع عن الصغائر وتأتي الصفة لاحقة بالموصوف لتوحي بالعجز تحت وطأة الظروف وقسوة الزمن فيأبى الشاعر أن يريق ماء وجهه ويتزلف وينافق استجلابا للسلامة أو الرفاه ولا يسعفه غير الدمع أبلغ تعبير عن عمق الجرح وهو في حد ذاته لغة قوامها كيمياء الجسد لا اللفظ السالك بجرى الطعام وسخوته وشفافيته البلورية هما آية الصدق مع النفس والعالم ، والحق أن خصيصة الوصف الحلولي هذه لم يكن مطران وحده هو ممثلها في شعرنا الحديث فقد

تخلص هذا الشعر في صيغته الحدائية من آفة الذات والموضوع فهما واحد وليس العالم إلا حلول الشاعر فيه وتلونه بلونه فهو ليس عالما حياديا بل مزاجيا وفي وسع علم النفس أن يمدنا بمفاتيح تفتح أبواب الفهم وتبهر حلقات الطريق ولعل الإسقاط خير ما يسعفنا به هذا العلم من مكشوفاته في دنيا النفس القريبة البعيدة، ذلك أن عالم اللاوعي وعظمة خطره في الحياة الإنسانية واستعصائه على المراقبة والتحري فهو كالحزب السري ينشط في الخفاء ويجيد المكر والتلاعب ولا يحب العلن لتعوده على حياة الخفاء فيجئ الوصف أحيانا فيه إشارات من العقل الباطن بل هو كضربات الفرشاة التي تكمل رسم اللوحة وكثيرا ما تكون تلك الضربات حاسمة، وهنا تحديدا يتجلى معنى التمايه بين الذات والموضوع وهو ما عيناه بالاندغام، ولا تقف الصورة الشعرية عند هذا الحد فالرؤيا الشعرية تتمرد على الواقع وتحرق المألوف ولا تسامح في حرمتها وشفافيتها واندفاعها نحو الآفاق بقوة عجيبة يضيف عليها الحلم مسحة رومنطقية أو صوفية ويزيدها الرمز أحيانا إيحائية أو ضبابية تحافظ بما على رونقها، وخير مثال على هذا الوصف الذي أسميناه بالحلولي هذا المقطع للسياق في وصف مصباح الإضاءة الليلية في دروب المبعي البغدادي:

وكان مصباحيه من ضجر

كفان مدهما لي العار

كفان بل نعران قد صبغا

بدم تدفق منه تبار

فإذا كان هذا المقطع يعكس حالة الشبقية التي كانت تعذب الشاعر حد

الفناء ، فإن الوصف هنا تجاوز الحدود المألوفة ففيه حركية الكفين والتغرين والتشبيه هنا خلاق فهو من قبيل تشبيه الجامد بالحلي ثم تأتي دلالة العار وهي دلالة دينية أخلاقية في ذات الوقت موحية بالإحساس بالذنب وارتكاب المعصية، غير أن النزوة الجسدية والقوة الشهوانية أقوى وأغلب فتلون الوجود كله بلوغها القاني .

وأما في قصيدة خليل مطران فكثيرا ما نقع على هذا الوصف الذي أسميناه بالوصف الحلولي حيث يتأنسن الوجود بفعل رؤية الشاعر التي ترى الوجود حيا، فاعلا ، ديناميكيا بمظاهرة لا مجرد أحجام وكتل وأرقام فترى الشاعر يحاور محاولا الوقوف على خفاياها كاشفا إياها كقولها:

شاك إلى البحر اضطراب خواطري

فيحيني برياحه الهوجاء

واللمسة الرومنطقية واضحة هنا خاصة في قوله " برياحه الهوجاء" إلا أن البحر هنا صار يجسد جبروت الطبيعة وقهرها وهو موقف للذات المغلوبة التي صارت ترى الوجود وكأنه تأمر عليها، فلتتحمل صليبها إلى ذروة الجلجلة وحيدة في معاناتها ولو كلفها ذلك حياتها !

ثم يأتي الوصف متتابعاً متلاحقاً فالشاعر ود لو أن قلبه كالصخر لا يتألم ولا ينزف وكأنه حسد الصخرة على بلادتها وعدم إحساسها ولو أن السقم والبرحاء نفذاً إلى أعماقها فهدت صلاتها وخففت من غلواء الداء وتبارحه على الشاعر .

لقد غدت الطبيعة والشاعر هنا واحداً ولم تعد موضوعاً وهذا ما يضيف على التشبيهات ديناميكية ويخرجها عن رتبة التشبيهات الكلاسيكية:

ثاو على صخر أصم وليت لي

قلبا كهذي الصخرة الصماء !

بتناها موج كموج مكارهي

ويفتها كالسقم في أعضائي

أما البحر ذاته فعاد إليه الشاعر ليضيف عليه سمة الإنسان فألقه بزمرة البائسين، وأي يأس؟ إنه يأس الشاعر ذاته الذي أسقطه على الوجود فتلون كله بلون أسود ، وكأن مفتاح الرؤيا تجلى في معنى لفظه " كن أيها الوجود" فكان كما أراده الشاعر وجوداً ذاتياً لا حقيقة له إلا في قرارة نفس الشاعر.

ويمكن فهم ذلك كله بالعودة إلى علم النفس حيث تبحث الذات إذا وقعت في كمين عن نظراء لها أصيبوا بما أصيبت به لتخف الغلواء وهو ما يجسده القول المأثور " إذا عمت خفت" وقد عمت البلوى هنا الوجود كله فالصخرة بلواها في بلادتها والبحر في كمدته والوجود كله سأمان والأفق معتكر:

والأفق معتكر قريح جفنه

يغضي على الغمرات والأقذاء

ولن تجد في الشعر العربي قديمه وحديثه شاعرا أبدع في وصف الغروب شأن خليل مطران وفي الواقع فوصفه استبطان للذات وكشف لخفاياها بتصد عناصر اللوحة الطبيعية المتحلية في غروب الشمس ، ولقد رأى فيه الشاعر عبرة، وأي عبرة؟ لعلها عبرة الاضمحلال والزوال وقديما قال الشاعر:

منع البقاء تقلب الشمس

وطلوعها من حيث لا تسمي

وطلوعها حمراء صافية

وغروبها صفراء كالورس

اليوم أعلم ما يجيء به

ومضى بفصل قضائه أمس

غير أن الشاعر يرى الظلام طمسا لليقين وذهابا بالنور الذي تمثل

جنازته، فالظلام يذكر بالمجوع الأبدى لولا أن الشمس تشرق غدا والحياة تبدأ دورتها من جديد لكن وحشة الروح وكآبة النفس ظلمة دامسة لن تشرق عليها شمس السرور وحق للشاعر أن يتألم لها:

يا للغروب وما به من عبرة

للمستهام وعبرة للرائي !

أوليس نزعاً للنهار وصرعة

للشمس بين جنازة الأضواء؟

أوليس طمسا لليقين ومبعثا
للشك بين غلا ثل الظلماء؟
أوليس محوا للوجود إلى مدى
وإبادة لمعالم الأشياء؟
حتى يكون النور تجديدا لها
ويكون شبه البعث عود ذكاء

ولا غرض للاستفهام هنا إلا الإثبات.

أما السحاب فقد تلون بلون الدم والدم في عرف الرومنطقيين رمز المعاناة والتباريح فلا بأس أن يشبهه به خواطره
الحزينة مادام قد رأى الوجود كله بتأثير من نفسه ككيبا:

وخواطري تبدو تجاه ناظري

كلمى كدامية السحاب إزائي

وولع الشاعر بالحمرة يمتد حتى إلى الدمعة وقد عهدناها بلورية شفافة عند الرومنطقيين ولكنها عند الشاعر غدت
حمراء:

والشمس في شفق يسيل نضاره

فوق العقيق على ذرى سوداء

مرت خلال غما متين تحذرا

وتقطعت كالدمعة الحمراء

وقد خان الشاعر التوفيق هنا فكيف نسلم معه بحمرة الدمعة، هل نقول أنها اختلطت بالدم الذي كان الشاعر يinzف به مما به من تباريح؟ وهو يريد وصف احتجاب جزء من قرص الشمس وراء السحاب الأحمر!

وترى الشاعر في النهاية أقام مناحة وجودية وتأبيناً كونياً له، ومادام الشاعر هو قلب الوجود وإذا كان القلب تعيساً حزينا فلن يضخ إلى الوجود إلا الكآبة واليأس، فبكت الطبيعة لبكائه والزمن جسداً للشاعر معنى الزوال بهذا المشهد الرومنظيقي الحزين الجامع بين لوعة المعنى ودلالة اللون:

فكأن آخر دمعة للكون قد

مزجت بأدمعي لرثائي

وكأني آنست يومي زائلاً

فرايت في المرأة كيف مسائي!

وأما البحر الذي اختاره الشاعر لقصيدته فهو الكامل وهو يتسع بتفعيلاته الست المتكررة "متفاعلن" السباعية لتضمن المعنى والشحن والدفق العاطفي ويزيده إضمار " متفاعلن " جرساً موسيقياً عذباً تستلذه الأذن ويعلق بالقلب وأما الضرب بإضمار متفاعلن وحذف النون مع إسكان اللام لتغادو " مستفعل " فهو أعذب ما في الكامل على كثرة أعاريضه وأضره وحتى البارودي في رثائه لزوجته تخير هذا الضرب.

لقد كنا نعد الوصف في الشعر مهارة ذهنية ولغوية معا تظهر براعة الشاعر فيه في تمثل المشبه به وكلما كان فريداً غير مسبوق وكانت علاقته بالمشبه وطيدة كلما كان الشاعر ذا عبقرية مفلقة فحاء مطران وزاد على هذا بأن أنسن الطبيعة واندغم فيها ووصفها من خلال وجدانه على سبيل التمايه أي أن تغدوا الذات والموضوع واحداً وهو بذلك مدين بلا شك للرومنظيقية الغربية التي اغتذى بلباؤها وتمثل " الرؤيا " التي نص عليها وليم بلبك، وقد ساعده على ذلك إضافة إلى الدفق الوجداني وقوة المخيلة وخصبها امتلاك الأداة أي اللغة التي طوعها لأغراضه البيانية ولا عجب فعن يزعم أن الغساسنة أجداده لا جرم أنه يمتلك ناصية اللغة وقد أفلح الشاعر في ذلك إلى حد بعيد وستبقى قصيدته " الأسد الباكسي " خير ما يمثل مذهبه الجديد في فن الوصف على الرغم من مسحة الكآبة البادية عليها .

زكي نجيب محمود وإخفاقات النهضة العربية⁽¹⁾

إن المأزق الحضاري الذي وقعت فيه الأمة العربية منذ سقوط بغداد على يد المغول سنة 656 هـ/1258 م ودخول الأمة عصر الظلمات وما انجر عن ذلك من تردي الأوضاع السياسية، وتقهقر الحياة الاجتماعية، وأكثر النواحي التي تتجلى فيها الأزمة هي الناحية الثقافية، لقد كفت الأمة عن الإبداع واكتفت بثقافة الاجترار وشاعت ثقافة المتون والحواشي والتعليقات، وفي خضم هذه الأزمة غيب العقل وكف عن أداء مهامه، واكتفى المسلمون بالتقليد في حياتهم الدينية، وكفوا عن النظر إلى الطبيعة لإدراك أسرارها واستجلاء نواميسها وترويضها لمصلحتهم واستعاضوا عن ذلك كله بالنظر في الكتب القديمة وكأنها الكلام الذي لا يعلى عليه، والثقافة الحقة، وترتب على ذلك أن لازمتهم عقدة نقص إزاء الماضي ورموزه فهو الكمال وهم النقص وهو الحقيقة وهم الباطل، وحتى الأدب الذي هو مظهر من مظاهر النشاط الفردي البحت حيث يعبر الإنسان - خاصة في الشعر- عن "أناه" دخل في الركافة والإسفاف في القول، وأهمل المضمون لحساب الشكل، وأصبحت الكلمة المأثورة عن ابن العميد في التزامه السجع، وهي لو أنه رأى سحجة تمنق كلامه للزمها ولو تزلزل المشرق

والمغرب أصبحت هذه الكلمة مثار إعجاب الناس وتقديرهم، وهي لعمرى ميزة من ميزات الرداءة وسمة من سمات الانحطاط، وزاد الطين بلة انتصار الغزالي في سجاله وجداله مع ابن رشد - وهو انتصار موهوم - صنعته الدهماء والعامية، إن هذا النصر الزائف قضى على روح الإبداع وألجم العقل، وجعل ثقافتنا ثقافة كلام وأسجاع وولوع بالغيبيات أكثر من اللازم، وإهمال تام للطبيعة وديناميكيته بكشف أسرارها واستجلاء غوامضها وتجذرت في الأمة روح الزهد فالدنيا دار خسار وتباب، والعاقل هو الذي يدير ظهره لدنياه مقبلا على آخرته ووجدت هذه الأفكار المريضة ترجمتها وتجسدها في تجرد التصوف وشيوع طرقه وتأله رموزه عند العامة، وأصبح شعرهم

وكلامهم حجة الله البالغة وأفعالهم آية الرشد والكمال، ونظرة واحدة على تراث هذا العصر تؤكد أن العصر هو عصر الكلام والأسجاع والولوع بالماضي لا عصر الأفعال والمضمون والتعلق بال حاضر ولعل الاستثناء الوحيد في هذا العصر

(1) . جائزة الاستحقاق من دار ناجي نعمان بيروت أيار 2008.

هو ظهور مفكر واحد من طراز ابن خلدون ولعل الأثر الوحيد الخليق بالنظر الجدير بالاعتبار هو مقدمته وأما ما سوى ذلك فاجترار وكلام في كلام .

ولقد دام هذا العصر إلى الحملة الفرنسية على مصر 1801/1798 بقيادة نابليون بونابرت الذي جلب العلماء والمهندسين والأطباء وعلماء الكيمياء، ولقد قارن بعضهم بين ما وصل إليه الفرنسيون من نظافة بدن وهندام وما أحرزوه من علم (كحيل الكيمياء وتجاربها التي كان يجربها العلماء أمام الملام) وبين ما يميز حياتهم من ضعف ووسخ وجهالة وعماء فأدركوا الفرق ومما يبعث على الأسى ويجز في النفس اشتغال البعض الآخر بالبحث في اسم نابليون أهو معرب أم مبني ؟

في هذا التاريخ أي عام 1798 دخلنا عصر بحث المشكلة بإدراك نقصنا وتخلفنا بعد أن ظننا أننا الكمال والنهضة ويفضل مطبعة "بولاق" التي جلبها نابليون ويفضل البعثات العلمية إلى الغرب خاصة فرنسا ظهر لأول مرة جيل من المفكرين المعنيين بجم النهضة ومشكلة التخلف من طراز رفاعة رافع الطهطاوي ويعقوب صروف وعلي مبارك وخير الدين باشا وصولاً إلى طه حسين وعلي عبد الرازق وسلامة موسى.

وفي هذا الجيل عاش واجتهد وفكر وقدر الدكتور زكي نجيب محمود الذي ولد عام 1905 ولقد كانت صحبته للعقاد ودراسته في إنجلترا (قسم الفلسفة) حيث نال الدكتوراه أضف إلى ذلك الهم الذي لازمه والمشكلة التي عني بها وهي مشكلة التخلف المتخلف المتخلفة في الرجعية، والتقليد وإهمال العقل والولوع بالكلام على حساب الفعل، واستبداد السياسة وغياب الحريات ، وإهمال الطبيعة ومباهجها ومجاهلها بالركون إلى الزهد والولوع بالتصوف، والميل إلى الجانب الديني على حساب الجانب الدنيوي، وترك روح المغامرة وبهجة الاكتشاف لحساب روح الجمود والاكتفاء بالاجترار من الكتب القديمة، كل هذه التجليات لمشكلة التخلف كانت في صميم تفكير الدكتور زكي نجيب محمود.

لقد اعتنق هذا المفكر الوضعية المنطقية ، وهي مجال تخصصه وكانت أطروحته لنيل الدكتوراه عن المنطق الوضعي وتتلخص فلسفة الدكتور زكي نجيب محمود في كون مشكلة التخلف التي يعاني منها المجتمع العربي سببها الرئيسي هو إهمال العلم - ونقول العلم- بالمفهوم الكونتي- أي العلم كما مارسه جاليليو ونيوتن وكبلر ، وهو العلم الذي يقصر نشاطه الغالب على الطبيعة حيث يحيا الإنسان وحيث يجب عليه فهم آلية عمل الطبيعة بنواميسها الخالدة ومن ثمة

الاستفادة من تلك القوانين في اختراع ما ييسر حياة الإنسان ويجعلها حياة رخيصة ميسورة ، وهي ميزة مرحلة الوضعية في تاريخ الفكر البشري كما شرح ذلك أو جست كونت.

لقد كان عصر الأنوار في أوروبا بداية لنهاية مرحلة من مراحل التاريخ البشري، ويحدد هذه النهاية دلالتها في نظرية كوبرنيك (الهليوسنترزم) أي مركزية الشمس لا مركزية الأرض للكون (الجيو سنترزم) وكان هذا انقلابا معرفيا جعل الإنسان محورا للكون وسيدا على الطبيعة يستخدم عقله وحده في اكتشاف مناهج البحث العلمي ومن ثمة تطبيق هذه المناهج على الطبيعة والإنسان والتراث ، والعقل هنا حر ، مرن، خلاق لا حد لقدراته ولا رادع لأفأقه، يكتشف ويصل إلى الحقيقة بحرية وديناميكية لا نظير لهما وبلا وصاية كهنوتية. إن هذا العلم كما عرفته أوروبا ومارسته هو الذي أخرجها من الظلمات إلى النور ويسر حياتها ، بأن قضى على الكهنوت واستأصل الاستبداد السياسي والقهر الفكري وأصبح كل موضوع قابلا للبحث وللمتابعة العقلية بموضوعية وأمانة فكرية ليس في الطبيعة وحدها بل وفي الإنسان وتراثه القلم (المقدس والوضعي) معا.

وولع الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود بالعلم لا حد له فهو حاضر في مقابلاته ودروسه ومؤلفاته- العلم كما شرحناه سابقا- فغيابه حسب رأيه أدى إلى الكارثة والعلم كما تفهمه الوضعية المنطقية وكما يفهمه زكي نجيب محمود كل لا يتجزأ، ففي الطبيعة علم ، وفي التاريخ علم ، وفي دراسة نصوص الأدب وتحقيقها علم ، وفي السياسة علم وفي دراسة الحياة الاجتماعية علم، لأن العلم هو النظر إلى الشيء كما هو بموضوعية لكشف غامضه وفهم آلية عمله، فتحقيق نص أدبي قديم هو علم تماما كدراسة ظاهرة طبيعية فالروح العلمية في كليهما واحدة وإنما تتباين المناهج والطرائق.

ونظرة على قائمة مؤلفاته تؤكد هذه الحقيقة: مجتمع جديد أو الكارثة ، تجديد الفكر العربي، في حياتنا العقلية، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، عن الحرية أتحديث، المنطق الوضعي..... الخ

وقد نجح زكي نجيب محمود في أسلوب كتابته فهو من السهل الممتنع قوامه الألفاظ الدقيقة المعنى ، والبعد عن الحشو والإطناب وتجرد الإشارة إلى أن الوضعية المنطقية ترى في اللغة خادما للفكر وأن اللغة السليمة هي التي تعبر عن المعنى بمفردات قليلة، وهذه ميزة أسلوب فيلسوفنا وكاتبنا ، فما عرف في أسلوبه حشو أو إطناب أو خروج عن الموضوع وما عرف عنه التكلف والاهتمام بجودة الصياغة وأناقة التعبير، فهمه كان منصبا على المعنى لا الشكل والمعنى

هو القول الثقيل الذي أراد إيصاله إلينا، على أن هذا لا يعني إهمال اللغة بالخروج على قواعدها- جهلا أو تعمدا- وإنما لكل مقام مقال.

وهو في دراساته النقدية لأدبنا الحديث يكشف عن ذوق فني كما لا يخفي إعجابه بشعر النابغة الذبياني، وهو أول من أطلق على العقاد لقب شاعر الجلال، ولا يخفي إعجابه بالنزعة التجديدية في شعراء الرومانسية الشباب كالمشمري والشايي والتيجاني بشير يوسف، وهو لا يجاري بعض النقاد أو الشعراء في التحلي عن الوزن، فالشعر موسيقى في الصميم وهو يأخذ على أحمد عبد المعطي حجازي إهماله الوزن في بعض قصائده في ديوانه الأول وقد اعتبرها خسارة كأن المعنى سكب على الأرض سكباً بغير قالب يحفظه، وهو مع شعر التفعيلة ولكن كما مارسه الكبار السياب، والملائكة وعبد الصبور وغيرهم وكل هذه الآراء في كتابه القيم " مع الشعراء".

وفي كتابه المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري عاد الدكتور زكي نجيب محمود إلى دراسة التراث العربي فوجد أنه تراث مطبوع بطابع اللامعقول، موسوم بسممة التنجيم، روحه روح الاجترار لا روح الابتكار ومميزته ميزة التقليد لا التحديد إنه تراث عمي عن رؤية الكون والتأمل في الطبيعة بحرية وروح مغامرة واكتفى بتوليد الكلام من الكلام في شكل حواشي وتعليقات يحتل الجانب الديني- فقها وتصوفا- الحيز الأكبر، وتغيب الدنيا بأسرارها ومجاهلها ومباهجها عن أبصار أسلافنا، وانتقلت عدواهم إلينا ، فواصلنا السبب وأسلمنا قيادنا لغيرنا يمارس البحث والتفكير والاكتشاف نيابة عنا مع أننا نحن الذين أعطينا العالم ابن رشد والبيروني وابن الهيثم وابن سينا والتوحيدي وابن خلدون.

لقد كان الدكتور زكي نجيب محمود مفكراً تصدى لمشكلة التخلف والرجعية، وكان عمله أشبه بالطبيب الذي أجرى الفحوص وقام بالتحاليل واستقصى الأعراض فعزل الداء وسمى الميكروب وأوصى بنوع العلاج الذي يستأصل الداء ويجلب العافية ، كان كذلك في عمله الأكاديمي بالجامعة وفي محاضراته وفي مقالاته وفي مؤلفاته، وهو نموذج للمتقف الملتزم بقضية الشعب والوطن المخلص في العمل بلا محاباة أو رياء.

ومما يؤسف له أعمق الأسف أننا مازلنا في موقعنا من خط سير التاريخ نقدم رجلا ونؤخر أخرى ، ضعفت ثقتنا بأنفسنا إزاء أسلافنا، وعدنا إلى الدجل ، والولوع بالكلام والجري وراء السراب، وإطلاق لقب العالم على من لا يستحقه، وفي الطبع اللامتتهي لكتب السحر والشعوذة وتفسير الأحلام .

وكان مما آلم الدكتور زكي نجيب محمود رسالة وصلته من طالب سفه فيها فلسفته ووضعيته المنطقية لأنه نجح بفضل حرز كتبه له أحد الشيوخ، ومرة أخرى حين تمنى لو يقدر فيقوم ليغرس الأشجار حتى يرى سريعا ثمرة عمله فتقر عينه بعد عمر قضاه باحثا وعالما وكاتبًا مخلصا لعقيدته وأمنته فعزل الداء ولكن الأمة لم تلق بالا لنصيحته مصرة على غيرها مدعية أن الداء هو غير الذي عزل الكاتب مواصلة تمددها على خط الزوال كما قال الشاعر صلاح عبد الصبور.

زمن السأم⁽¹⁾

تأملات في قصيدة " الظل والصليب " لصلاح عبد الصبور

لطالما اتهم شعرنا القديم بأنه شعر خالي من الفكرة قياسا إلى الشعر العالمي وتحديدًا الشعر الأوروبي ذلك أن النقاد والدارسين خاصة المستشرقين أخذوا عليه مأخذ تلخص في كون شعرنا القديم سقط في فخ التقليد فإذا كان امرؤ القيس قد وقف على الأطلال فبكي واستبكى حسب كثير من الشعراء أن هذا هو طريق الشعر وحده ، وأن الشاعر الذي لا يبكي على الأطلال ليس بشاعر ، وأن القصيدة التي لا تستهل بذكر الظل ليست بقصيدة ، حتى ولو كان الشاعر ما عرف طلالا في حياته ، وأخذ على شعرنا أنه شعر الانفعال الحاد والعاطفة المشبوبة كأثما فرس جموح لا تسلس القياد للعقل ، وشأن العاطفة الحادة في الفن كشأن الشهاب يلمع فجأة نارا ونورا ثم يخبو ضوئه وينتهي رمادا ، والشعر رؤيا ذاتية وصياغة جديدة للعالم قوامها العاطفة الهادئة والفكرة المتأملمة بغير مبالغة تشط عن حقائق الوجود أو تنكر في صلف ما هو من يقينيات الطبيعة والحياة ، وأما سقوط شعرنا في فخ الخطابية فذلك شأن لا ينكر ومن شأن الروح الخطابية أن تسطح الفكر والشعور وتحنج بصاحبها إلى الرياء، وتدفعه رغما عنه إلى كد الذهن في استقصاء الألفاظ المدوية والعبارات الرنانة والاستعارات البديعة والتشبيهات غير المسبوقة حتى يوصف صاحبها بالبليغ وبالشاعر المقوال ويستل من النفوس الإعجاب ومن القلوب المودة ومن خزائن السلطان المال الوفير .

غير أننا لا نسرف على أنفسنا بأن نتبنى وجهة النظر هذه جملة وتفصيلا دون أن نفهم البنى الاجتماعية والتاريخية للواقع العربي القديم الذي أنتج هذا المفهوم للشعر وبغير هذا الفهم ستكون ظالمين لتراثنا متهمين بالتقصير في فهمه ، وأول المفاتيح التي تفتح مغاليق الفهم الجغرافيا العربية ذاتها ونعي بذلك الطبيعة الصحراوية التي قدرت على العرب الحل والترحال وتمزيق الكيان العربي إلى قبائل متحاربة بحثا عن الرزق وخوفا من فواجع القدر ، وقد جر ذلك العربي إلى تلمس القوة في سببين: السيف واللسان وليس العقل فالكلمة البراقة الحماسية من شأنها أن تلهب الحماسة إلى القتال ولو كان عدوانا أو تبعث في النفس الإعجاب ولو كان افتراء ويلخص ذلك كله قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا

(1) . مجلة سهيل 2007.

فنجعل فوق جهل الجاهلينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا

وظهر البحرملؤه سفينا

إذا بلغ الفضاء لنا صبي

تخر له الجبابر ساجدينا

إن غياب الأفكار الكبرى عن العالم العربي قبل الإسلام ذات الأصل الديني والتي هي وراء نشوء الحضارات الكبرى في التاريخ حتى حضارة روما وأثينا القديمتان إذ تبدوان وضعيتين وما ذلك بصحيح لأن الروح الوثنية المسلمة بكمال الآلهة في معتقدات وأساطير الحضارتين والتي هي دينية في الصميم كانت الجامعة بين أفراد المجتمعين الإغريقي والروماني والباعث على الإبداع والإنتاج الفكري .

إن غياب هذه الأفكار عن العالم العربي هو الذي قضى على الاتحاد العربي وحكم بالفرقة وبالبعضاء، ولم يعرف للعرب من الإنتاج الأدبي والفكري إلا الأدب الحماسي في الشعر تحديداً ذلك أن الحياة العربية الفكرية كانت شفوية فالمعول على الحفظ والذاكرة والرواية وآليات ذلك كل الموسيقى الخارجية للنص وطلاوة اللفظ واندفاع العاطفة وبراعة الصور البيانية وفي النثر يزيد السجع ليحل محل الموسيقى الخارجية للنص في الشعر ، وهذا كله للتستر على فقر المعنى ، وذلك أن الهدف من النص الأدبي القديم هو إثارة الحماسة واستلال الإعجاب والإعجاب ولو أن ذلك كله يجبو بعد الفراغ من سماع تلك النصوص الأدبية .

كذلك كان شعرنا القديم في ملمحه العام إلا من استثناءات قليلة تتمرد على هذا الطابع العام القسري مشكلة جدولا صغيرا رقيقا يصب في محيط الشعر الإنساني العالمي، إلى أن جاء العصر الحديث فانفتح العالم العربي على الثقافة العالمية وعب منها مغذيا عقله ووجدانه بما فاته من ثقافة آباءه وأجداده ، فكان إبداع الشعر الحديث ، تداركا لنقائص الشعر القديم ومحاولة الاندغام في الشعر العالمي بتبني النظرية الشعرية الغربية والإبداع على ضوئها، فكان شعر السياب والملائكة والبياتي وصلاح عبد الصبور الذي سنقف متأملين في قصيدته الرائعة " الظل و الصليب " .

وستظل هذه القصيدة فاصلا بين عهدين من الشعر عهد النبرة الخطابية واستظهار القدرات البلاغية وإثارة الانفعال وعهد التأمل العميق يلفه شعور إنساني هادئ ، وآية ذلك كله أن هذه القصيدة تتمرد على الذاكرة وعهدنا بالشعر القديم يسعى إليها فتحضنه أما هذه القصيدة وكثير من أمثالها في شعرنا الحديث فتغريك بالوحدة لتخلو إلى نفسك أو تراودك هي على الخلو مغرية إياك بقراءتها وإعادة قراءتها لتغذي وجدانك وعقلك بمضمون إنساني رفيع يقصر عنه الشعر القديم ، ذلك أن هذه القصيدة قد سلمت من عيوب الشعر القديم متنزهة عن النظمية والتكلف اللغوي والشطط البلاغي محتفية بالتجربة الإنسانية والمضمون الوجودي مشكلة لوحدها ساقية تصب في محيط الشعر الإنساني العلمي .

أما السأم فمضمون وجودي بل إنساني ، إنه شعور برتابة الأشياء وتبدل نوااميس الكون ، وعطالة الحياة الإنسانية بل خصاء العقل وجذب النفس ولم تعد الميتافيزيقا بعواملها الإنسانية وإغراءاتها الغيبية بقادرة على تدمير هذا الشعور في أنفس رهيبة جبلت على البحث العميق والاستقصاء الدقيق والتعمد على المؤلف ، مؤثرة كرامتها الإنسانية مضحية بنصبيها من الأمان في عالمي الغيب والشهادة تاركة ذلك لغيرها من عامة الناس .

ولعل الفيلسوف الدائمركي الوجودي "كيرغارد" خير من عبر عن هذا المضمون الوجودي في قوله: " كان الآلهة ضحجرين ولهذا خلقوا الإنسان، وكان آدم ضحرا لأنه كان وحيدا ولهذا خلقت حواء ، وكان آدم ضحرا وحده ، أما الآن فقد ضحج هو وحواء ثم شعر آدم بالضحج هو وحواء وقاييل وهابيل وازداد سكان العالم فصار الناس يضحرون ضحرا اجتماعيا وشعروا بأن عليهم أن يتمتعوا أنفسهم فبنوا برجا عاليا ليصلوا بواسطته إلى السماء وكانت هذه الفكرة ذاتها تزداد إثارة لضحجهم كلما ازداد البرج ارتفاعا حتى أربعهم أن يروا أن الضحج صار صاحب اليد الطولى في العالم "

ولكن أترى سأم عبد الصبور سأمًا وجوديا عاما يتماهى مع سأم كيركغارد وسأم الروائي ألبرتو مورافيا صاحب رواية السأم أم هو سأم خاص رهين الواقع العربي المتردي في دياجير الجهالة والعماء والاستبداد السياسي وتأسن الوضع الثقافي الذي استسلم للشعارات اليمينية واليسارية الجوفاء وإلى التقليد وانسحاب عفونة الماضي على طراوة الحاضر ؟ وفي القصيدة ما يؤكد هذا المنحى بدليل قوله :

هذا زمن السأم

نفخ الأراجيل سأم

دييب فخذ امرأة ما بين أليتي رجل

سأم

وفي السطر الثاني ما يؤكد خصوصية هذا السأم فنفخ الأراجيل عادة شرقية لولا أن الشاعر يعود فيقول:

لا عمق للألم

لأنه كالزيت فوق صفحة السأم

لا طعم للندم

لأنهم لا يحملون الوزر إلا لحظة

ويهبط السأم

يغسلهم من رأسهم إلى القدم

طهارة بيضاء تنبت في مغاور الندم

تدفن فيها حنث الأفكار والأحزان

ترايها

يقوم هيكل الإنسان

إنسان هذا العصر والأوان

وفي السطر الأخير ينجلي هذا السأم إنه سأم وجودي إنساني عام ينسحب حتى على همميات الإنسان كممارسة

الحب بدليل قوله:

إنسان هذا العصر والأوان.

فهذا السأم إذا حالة وجودية تتضمن القرف من الوجود والإحساس بعماء الكون وتبلد الموجودات تنسحب على الشرق كما تنسحب على الغرب وتتماهى مع سأم كيركغارد ومورافيا، والجلي أن عبد الصبور قد درس الوجودية الساترية وتمثلها أحسن تمثيل، ألم يقل ساتر على لسان أورست في الذباب "أن أجبن القتلة من شعر بالندم" فهذا المقطع ينفذ إلى لباب الوجودية ويلخصها في التركيز على الشعور بالندم الذي يشظي ويسفه الفعل الإنساني ويرجعه حرثا في الماء أولقاء بذرة على الصخرة ولأن الندم سليل الخوف الشرعي ترى الإنسان يلوذ به فارا من عذاب الخوف على حساب الحرية الإنسانية العميقة الشاملة، وحتى لا يضبط الإنسان متلبسا بجرمة الوزر، وأي وزر؟ لعله الوزر الذي ارتكبه آدم أول مرة حين أكل من الشجرة محاولا إثبات وجوده بتمرده، لكن آدم قد ندم وسنها شريعة في عقبه، فكل تفكير حر، وكل خروج عن السياج الدوغمائي وكل تمرد على الأعراف والرتابة في القوانين والأطر الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية هو "وزر" يحمله صاحبه لحظة ثم يهن عظمه وتنقل خطاه ويعيش رهابا نفسيا ذريعا ينتهي به إلى التطهر من هذا الدرر بالندم

إنه زمن يرفضه عبد الصبور ويرفض الاندغام فيه بل يتأمله كموضوع مفضلا دور الراصد على الهامش مستخدما دلالة فنية أو ربما حيلة لاشعورية باستخدام اسم الإشارة " هذا " والتي تعني حالة الانفصال أو الطلاق بين الذات والموضوع (الزمن) .

وفي تفكير عبد الصبور مرونة وحرص على الحرية في الفكر والتعبير فتراه يوظف مضامين إنجيلية وهي خصيصة يشاركه فيها معظم رواد الشعر الحديث .

فهو يستلهم قصة يسوع حين حمل صليبه ومشى إلى ذروة "الجلجلة" مؤثرا الحرن على أفكاره والدفاع عنها إلى آخر لحظة في حياته ولو اقتضى الأمر الموت في سبيل الموقف الحر .

فبعد الصبور بمذه الرؤية المستلهمة قصة المسيح يؤكد بعدا مهما في الإنسان هو الحياة لأجل قضية أو موقف ولعل المثقف في طبيعة المعنيين بذلك خاصة إذا تعفنت الحياة و أصابها الجذب والخضاء واستبد الإنسان بالإنسان وهو ما يدعو " ساترر " بالالتزام وما يعبر عنه عبد الصبور تعبيرا فنيا جميلا بالمجد والأمد .

وأما " الظل " فدلالته رمزية إيحائية مضامينه الإنسانية والشعورية والفكرية لا تنتهي ، فالإنسان ليس كيس لحم كما يقول سارتر ، بل هو صاحب قضية وموقف من الوجود والإنسان وإذا تنازل عن هذا الموقف فقد شرفه وإنسانيته وتحول إلى كيس لحم والموقف الفريد في الفكر والشعور و النضال من أجله هو ما يعبر عنه الشاعر تعبيرا فنيا ورمزيا بالظل و إذا تنازل عنه الإنسان لحساب الرفاه المادي أو الفرار من الخوف تنازل عن كرامته الإنسانية و إذا أصر عليه لقي حتفه حقيقة أو رمزا يقول الشاعر :

أنا الذي أحيا بلا أبعاد

أنا الذي أحيا بلا آماد

أنا الذي أحيا بلا ظل... بلا صليب

الظل لص يسرق السعادة ومن يعيش بظله يمشي إلى الصليب في نهاية الطريق .

وهناك ملاحظة لا ينبغي أن نفوتنا فإذا كان عبد الصبور الشاعر الذي أبقى أن يساير التيار متحملا الوزر ذلك الإنسان الذي رافع ضد القهر السياسي والفكري الذي راح الحلاج ضحيته وحاول في مسرحيته أن ينتصر له، ترى لماذا إذا يصبر على استخدام الضمير " أنا " إذ ينعى الجبن في مواجهة المصير وعدم الصمود على ذروة الجملجة وهو الذي انتهى كأبطال التراجيديا اليونانية، غير أن الشاعر يتميز بالصدق مع نفسه ومع القارئ فضلا أن يعمم هذا الموقف المتخاذل على جيله غير مستثني ولو نفسه اقرأ قوله :

أنا رجعت من بحار الفكر دون فكر

قابلني الفكر ولكني رجعت دون فكر

أنا رجعت من بحار الموت دون موت

حين أتاني الموت لم يجد لدي ما يميته

وعدت دون موت

وفي خاتمة المقطع الأول تأتي لفظة " الصنصاف " في محلها من القصيدة، دلالاتها الفكرية والفنية لا تنتهي ولعبد الصور قدرة كبيرة في اقتناص هذا النوع من الألفاظ وتوظيفها في شعره وفي عنق الحساء يستحسن العقد كما يقول المتنبي.

فالصنصاف شجرة تتميز بالضخامة وكثرة الأغصان والتدافع إلى عنان السماء لتبدو أطول من غيرها على سبيل المباهاة لكنها غير مثمرة فهي رمز للحدب والحساء وللشاعر القدرة على استنبات ألف غصن من غصونها الكثيفة في الصحراء وتأمل هذه اللفظة وما توحى به من عقم ، فإذا كان في مقدور الشاعر أن يعيش كشجرة الصنصاف سامقة مشمخرة عن خواء وكذلك كان له لو قبل بنمط الحياة والفكر واندمج فيهما إثارة للسلامة غير أنه يأبى ذلك يقول الشاعر :

يا شجر الصنصاف إن ألف غصن من غصونك الكثيفة

تثبت في الصحراء لو سكبتم دمعين

تصلبني يا شجر الصنصاف لو فكرت

تصلبني يا شجر الصنصاف لو ذكرت

تصلبني يا شجر الصنصاف لو حملت ظلي فوق كتفي

وانطلقت.

أما المقطع الثاني فقد تضمن أربعة أسطر تعمق فيها الشاعر مسألة الخصوصية الفردية ومسألة الالتزام وعلاقة الفرد بالمجتمع وهو صاحب ديوان " الناس في بلادي" ذلك أن الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية وهو كائن اجتماعي بطبعه يعنيه تقدم المجتمع ورفاهه كما يعنيه تخلفه وعظالته، له ماله وعليه ما عليه ، غير أن الأوامر والنواهي من لدن المؤسسات الرسمية (السياسية والدينية والثقافية) تشجب مبدأ التدخل في حياة الجماعة حفاظا على طابعها التدريجي مقهورة ومستعبدة بأفكارها كما يقول فوكو وهي إذ تشجب ذلك تعمد إلى انتهاك خصوصية الفرد بمحاولة تجريده

حتى من وسائل الإدراك أي حواسه لكي يتم تدجينه وإدخاله إلى داخل السياج الدوغمائي رافضة تميزه و تمرده ولو بمقاييسه الذاتية وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله "مرآتي"

يقول عبد الصبور :

قلتم لي لا تندس أنفك فيما يعي جارك

لكني أسألكم أن تعطوني أنفي

وجهي في مرآتي مجدوع الأنف ؟

ويأتي المقطع الثالث في محله من القصيدة إنه مقطع يتعمق الذات العربية باحثا في سراديبها مكتشفا تضاريسها وهو ليس من قبيل السادية التي تستلذ جلد الآخرين بالتعالي عليهم وتنفيه حياتهم ، بل هو ربما من قبيل المازوشية حيث تستمر النفس المرارة وتستلذ الألم ياسا وخيبة ، والشاعر يبادر بإعلان الهزيمة وخواء الروح وغياب الطموح و أول لفظة يجدر بنا الوقوف على دلالاتها الفنية والحضارية هي لفظة " الملاح " ذلك القائد الطليعي الذي يخوض بسفينته عباب البحار مصارعا موجها قاهرا رعبها سالكا مسالك النجاة بركابها ، إنه السندباد الذي يكتشف العوالم مستحليا حلاوة الكشف مبهجا بنشوة المعرفة مليبا نداء إنسانيا عميقا فيه هو نداء المغامرة حتى لا تتأسن الذات وتركذ الروح ، وأما الملاح فهو كما أسلفنا القائد الطليعي لعله المثقف أو رجل الدولة أو الزعيم الذي في يده مفاتيح النصر وفي عقله مشروع الأمة ودستور الرقي والتمدن ، وأما البحر فهو الحياة الصاخبة أي الدنيا التي نعيش فيها مزدللين صعبا بثمرات عقولنا وكدح سواعدنا غير أن ملاحنا وجد الراحة في اليأس وعاف دور السندباد وخاف من أن يكون بروميثيوس العربي الذي يسرق نار المعرفة وينير بها دنيانا حتى تنجلي الغاشية عن أمتنا ويمنح بنا إلى شاطئ الحضارة والرقي .

فملاحنا مازال كائنا ميتافيزيقيا من العصر الوسيط يرفض تبني فلسفة العصر والدخول إلى ساحة أنواره وهو في نظرتة إلى السماء يعاني ازدواجية فهي تارة في صفه إن توسم فيها الخير وتارة ضده إن ظن منها العسر، إنه موقف ميتافيزيقي ضبابي غير حاسم ، على العكس من المجتمعات الراقية التي جعلت الحضارة ذات بعد أفقي ومضمون إنساني خالص، أما ملاحنا فيكتفي بالبعد الرأسي متخليا عن دوره في الكشف

والإبداع والجهد والمغامرة ، مستسلما إلى أحلامه الميتافيزيقية ، إنه مسكون بالخوف بل الرعب هاجسه الأساسي وهو الذي يمنعه من ارتكاب الوزر ، مؤثرا السلامة ، لا تمذا بالإحسان في صيغته الساذجة دفعا للإحساس بالذنب ، مطلقا الزمان الذي يأبى في صلف أن يندغم فيه لحساب الماضي وما أشد إجماء كلمة " الزوال" في هذا المقطع التي توحى بالتلاشي رويدا رويدا :

ملاحنا ينتف شعر الذقن في جنون

يدعو إله النعمة المجنون أن يلين قلبه، ولا يلين

يدعو إله النعمة الأمين أن يرعاه حتى يؤدي الصلاة

حتى يؤتي الرّكاة ، حتى ينحر القرين ، حتى يبني

بحر ماله كنيسة ومسجدا وخان للفقراء التاعسين

من صعاليك الزمان .

وانظر إلى كلمة " الصعاليك" والتي تعني الشعب أو العوام فهم في وعي ولا وعي الملاح مجرد قطيع من الصعاليك الممّج الخارجين على القانون وهي نظرة استعلائية راصدة لهم من البرج العاجي، والإحسان إليهم إنما يكون بتأكيد قصورهم وتثبيت عطالتهم وذلك ببناء مسجد أو كنيسة أو خان أو إطعامهم إمعانا في إذلالهم وتحسيسهم بالمسكنة لا الارتقاء بإنسانيتهم

والدخول بهم إلى عصر الأنوار .

ومن العناصر الأساسية في استكمال صورة الوجدان العربي من الداخل

- وهذه القصيدة تعد "بورترية" له - يأتي العنصر الجنسي ، وللعربي حنين إليه وعذاب لأجله وفيه حد الشبقية تلك الأجواء التي رسمتها "ألف ليلة وليلة" و"الروض العاطر" وأشار إليه لفيف من الشعراء العرب

والمرأة في الوجدان العربي مصدر متعة وفتنة ومبعث شرور اجتماعي كما أنها مصدر عذاب وحرمان جنسي وملاحنا المسكون برغائب جنسية شبقية يحب الجنس ويستقذره في ذات الوقت ، أي أنه يملك شخصية" الدون جوان " التي تقوى المغامرة وصيد النساء بمجرد الاستمتاع ثم تبعات ذلك من الإحساس بالذنب وارتكاب الدنس ثم محاولة التطهر منه بصيانة العرض فهو لا يفهم من الشرف غير غشاء البكارة ، إنها شخصية السيد " أحمد عبد الجواد " في " ثلاثية " نجيب محفوظ ، وهكذا وقع الملاح فريسة لعقدة " الفصام" وهي حالة مرضية في الوجدان العربي ناتجة عن ضبابية الموقف و لا علمية الفكرة وتعدي على قوانين الطبيعة

وانتهاك نواميس الضبط البيولوجي في الجنسين وقد أدى هذا إلى الاعتداء على الأنوثة ذاتا ومعنى والاحتفاء بالرجولة ولو كانت فظة لا واعية

وأعطت للذكر سلطات واهمة في ممارسة قهره على الأنوثة أنى وجدها في الإنسان و الكائنات وإصباغ المعاني الموحية بالعجز والعطالة عليها وعلى كل ما لا يجب من مظاهر الطبيعة والحياة ، مكتفيا هو من الأنوثة المتجلية في المرأة بجانبها الجسدي مقتصرًا في علاقته الشوهاء بما على الجانب الغريزي وهذا المفهوم المريض سيؤدي إلى حف الرجل نفسه بقافلة من النساء لإشباع نزواته .

وتؤدي هذه الدلالات كلها في النص كلمة" البكر " وكلمة " حجاب " بالنسبة للبنات خضرة، وأما إثارة الذكورة على الأنوثة فهذه العقيدة تفصح عنها دلالات الأسماء ، ولعله من عبث الأقدار أن يجنب الملاح ثلاثة ذكور مقابل بنت واحدة بل حتى الأسماء التي تسمى بما ذكوره لها خلفيات في قرارة اللاوعي فمحمد وأحمد أسماء ذات مضامين دينية وهي توحى بحمية الدين وسلطانه القوي على العربي ولو كان مثقفا وتثير في النفس حيننا غامضا إلى معانقة الماضي واحتضانه ، ولعلها تكفير عن عقدة الذنب، تلك العقدة التي يحسها الملاح مؤلمة نتيجة عيشه بطريقة مخالفة للنصوص الدينية وفي الصميم حالة الشبقية التي تطوح به ذات اليمين وذات الشمال ثم تأتي دلالة الاسم " سيد" وهي موحية بحمية الرجولة وسلطانها المغربي الخفي وهي تصم المجتمع العربي عموما بالتحيز للذكورة وإضفاء السلطة والهبة والجلال عليها مقابل إضفاء صفة العبودية والانحطاط والعجز البدني والدنس المتجلي خاصة في " العادة الشهرية " على الأنوثة لتؤكد على مر التاريخ تبعية المرأة للرجل وقصورها البدني والعقلي والنفسي يقول عبد الصبور :

ينشده أبناءه وأهله الأذنين

والوسادة التي لوى عليها فخذ زوجته أولدها محمد وأحمد وسيدا

وخضرة البكر التي لم يفتزع حججها إنس ولا شيطان .

ثم إن الملاح مات رمزيا قبل الموت البيولوجي حين اكتفى من الدنيا بالاستسلام لواقعها والإيمان بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، حين رفض تميزه الإنساني بالوثبة الحضارية والفعل الخلاق بل نظر إلى ثمرات المعرفة وأطياب المدنية نظرة الثعلب إلى العنب فلما استعصى عليه ادعى أنه حصرم وهي حيلة نفسية تجنح بصاحبها إلى إثارة السلامة تعبيرا عن العجز بل وخداع النفس بتفتيه الأشياء وهو ما عبر عنه الشاعر بالملح والقصدير :

أشار بالأصابع الملوية الأعناق نحو المشرق البعيد

ثم قال :

هذي جبال الملح والقصدير

فكل مركب تجيئها تدور

تحطمها الصخور

ملاحنا أسلم سؤر الروح قبل أن نلامس الجبل

وطار قلبه من الوجمل

كان سليم الجسم دون جرح دون خدش، دون دم

حين هوت جبالنا بجسمه الضئيل نحو القاع

ولم يعيش لينتصر

ولم يعيش لينهزم !

فهو ملاح زائف إذا لأن جسمه ضئيل والعادة في الملاح أن يكون قوي البنيان هرقلي القائمة مفتول العضلات ومقابلاتها الحضارية الوعي الحضاري والالتزام والإخلاص للقضية والرغبة الملحة في خلاص الناس ، مع الاستعداد للمغامرة، أما المشرق البعيد ، فالموصوف هو النهضة والصفة هي الاستحالة أو الاستعصاء في أحسن الأحوال.

إذا مات الملاح حثف الأنف ، من غير شهادة بمقارعة الخطوب وفضل خلاصه الفردي بالجنوح إلى السكينة والرتابة .

ولقد تحول الخوف إلى مارذ خرج من قمقمه وأدخل فيه ملاحنا ورماه إلى هاوية العدم حيث العماء والظلام .

ولما تخلى الملاح عن دوره الريادي ترك ركاب سفينته في فوضى وعشبة وجود وعماء ومصير وانتفاء قصدية وأسلم مركبه لهبات الريح تتلاعب بها ذات اليمين وذات الشمال مكتفيا ربما بالتوسل إلى السماء أن تكتب له السلامة . فقد مسخت القيم إذا وحال الباطل حقا والقبح جمالا والجهل علما والتقليد شريعة والتخلف رقيا ومدنية ولم تعد الحياة إلا مسرحا للجنث العفنة ، جثث الحيوانات والناس على السواء وهو تعبير رمزي يفصح عنه المثل القديم " اختلط الحابل بالنابل "

يقول عبد الصبور مختتما المقطع والقصيدة :

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومن قتله

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات

ورؤوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسس رأسك !

فتحسس رأسك !

و أما اللغة فجاهت بسيطة من المؤلف المتداول غير أنها لا تفقد صفة الشاعرية والإيجاء وقد أفصح الشاعر عن موقفه من اللغة في ديوانه

" الناس في بلادي " إصرارا منه على النزول إلى القاع محتفيا بمجمومه متعاليا على البلاط وشعر المناسبات مصرا على أن الشاعر الذي هو في صميمه إنسان من نتاج القاع وليس القمة.

وأما الموسيقى الداخلية فتتمو متصاعدة بتأزم الموقف وحدة اللحظة ثم تجبو رويدا رويدا تاركة المجال للتأمل العميق ثم تتصاعد متسقة مع الموقف الجديد، فيطول السطر ويقصر، وأما المضمون الإنساني والوجودي فلا نعرف قصيدة حديثة نعت إلينا الواقع العربي يمثل هذه المرثية الخزينة، وستظل هذه القصيدة شاهدا فكريا وإنسانيا وفنيا ووجدانيا على نكبتنا الحضارية وعطالتنا الفكرية.

ولئن رحل "بروميثيوس" مصر في أوج العطاء مشحنا بالجراح، منهوش الكبد، مسمر الأنامل على قمة الجبل فقد برعمت هذه القصيدة في ضمائر بعضنا كما ستبرعم في ضمائر من هم في ضمير الغيب لعل الربيع في دورة من دوراته يعيد الجذب خصبا والصحراء جنة وشجرة الصنصاف شجرة خوخ وينقلب الملاح سندباد يحوض بنا آفاق البحار ويخلق بنا في أقطار السماوات لندخل التاريخ من جديد كغيرنا من أمم العالم الناهضة.

شاعر الجلال عباس محمود العقاد⁽⁴⁾

(4) . مجلة ديوان العرب كانون الأول 2007.

يعتبر العقاد ظاهرة أدبية وفكرية خارقة في دنيا الفكر والأدب فهو كالمحافظ أديب موسوعي لم يقصر نشاطه على حقل من حقول المعرفة وإنما سعى إلى الثقافة ككل ونظر إليها على أنها كل لا يتجزأ.

والذي يبهز في هذا الكاتب عصاميته فهو إن اكتفى في تعلمه النظامي بنيل الشهادة الابتدائية فقد كدح في سبيل المعرفة كدحا وأخلص في طلبها مضحيا بالزوجة والولد ومتاع الدنيا مكتفيا بما يسد الرمق ويحفظ ماء الوجه.

وأما الصفة الثانية الباهرة فيه فهي حبه للحرية وإيمانه بأنها أساس صلاح الفرد وتعلقه بالحرية دفعه إلى الذود عن كرامته والاعتزاز بنفسه حتى لكأنه أحد آلهة الإغريق. ولقد كان لويس عوض على حق حين قال :

" صورة العقاد عندي لا تختلف عن صورة هرقل الجبار الذي يسحق بهراوته الأفاعي والتنانين والمردة وكل قوى الشر في العالم " .

مارس العقاد النقد والتراجم والمقال وأخرج كتباً آية في تحري الدقة العلمية والحقيقة مستعينا بقلمه السيل وبتقافته الجبارة في شتى شؤون المعرفة.

فلقد عرف العقاد "بالعبقريات" وبقصة "سارة" و"بالديوان في الأدب والنقد" وبسيرته الذاتية "أنا" وبهذه المؤلفات شاع بين الباحثين والأساتذة والطلبة.

غير أن الثابت أن الذي كان يحز في نفس الأستاذ العقاد- رحمه الله- أنه

لم يشع كشاعر وأن شهرة حافظ وشوقي كانت تؤلمه أعمق الألم ، ولاغرو

في ذلك فالعقاد يرى أن الشعر مقتبس من نفس الرحمن وأن الشاعر الفذ بين الناس رحمن أوليس هو القائل ؟:

والشعر من نفس الرحمن مقتبس

والشاعر الفذ بين الناس رحمن

بلى فالشاعر تفضي إليه ألسنة الدنيا بأسرارها فهو روح الوجود وضميره والشاعر أعلى درجة من غيره ومن وصل إلى هذه المرتبة فقد حقق أعظم مأرب في الحياة.

ولقد أخرج العقاد عدة دواوين شعرية وأعطاهما عناوين تتماشى وسني عمره " يقظة الصباح "، "وهج الظهيرة" ، " أعاصير مغرب " ، " أشجان الليل " وديوان آخر رصد فيه وقائع الحياة اليومية على عادة شعراء الغرب جعل عنوانه " عابر سبيل".

ويجدر بنا قبل التطرق إلى شعر العقاد أن نعرف موقفه من الشعر فلقد عرف الكاتب الشاعر بخصومته العنيفة لأنصار شعر التفعيلة ولما كان عضواً بالجلس الأعلى للآداب والفنون ومقرراً للجنة الشعر كان يحيل قصائد التفعيلة على لجنة النثر للاختصاص ، فلقد حارب هذا النوع من الشعر وكان يسميه الشعر السائب . فهو من المحافظين على عمود الشعر دون الخروج على الأوزان الخليلية فالوزن والقافية هما حدا الشعر وما يميزه عن النثر، والشاعر الفذ هو الذي يعبر عن أفكاره وأحاسيسه محافظاً على الوزن والقافية دون أن يحد الوزن من قدرته التعبيرية

إن الشعر عند العقاد فن محكوم بالقيود وهو مناورة بما يتميز الشاعر عن الشويعر والشعور.

ولم يقف العقاد عائقاً أمام سنة التطور فالتجديد في الشعر ضرورة من ضرورات العصر وقد مارسه أجدادنا فأبدعوا الموشحات والأزجال والمجزوء ومخلع البسيط ونوعوا القوافي حتى تتأتى المرونة في التعبير وتحقق المتعة الفنية ويتحاشى السأم من الرتابة المملة في الوحدة، وهكذا مارس العقاد التجديد في الشعر بتنوع القافية واستعمال المجزوء والاستعانة بالبحور الخفيفة كالرمل والخفيف والمتقارب والمديد ، وأضاف الى ذلك قصر الشعر على الوجدان وقد كان شعار مدرسة

الديوان بيت لعبد الرحمن شكري:

ألا يا طائر الفردو

س إن الشعر وجدان

وتحاشى المديح الزائف والرياء الكاذب والمبالغة الحمقاء وفي ديوان

"عابر سبيل" قصر الشعر على هوم الحياة اليومية كقصيدة الكواء، ليلة العيد وفي هذا الديوان بالذات قصيدة في طفل صغير شرب على وجه الخطأ الجمعة فاستمرأها واستحلاها فيقول العقاد على لسان الطفل - وهو إمعان في الواقعية الشعرية والصدق الفني - :

(البيلا ، البيلا) عوض البيرة البيرة لأن كثيرا من الصغار ينطقون الراء لاما .

وهكذا فقارئ شعر العقاد يقف أمام عمارة نحتت أحجارها بأزميل وأحجارها من جرانيت أسوان لا يبهرك الجمال في تلك العمارة بقدر
ما يبهرك الجلال .

فالعقاد كما يرى تلميذه زكي نجيب محمود شاعر الجلال ، ولنا في تفسير نزوع الشاعر هذا المنزع رأي مستمد من التركيبة النفسية للعقاد المنبهة بالبطولة المحقدة للأبطال ولعل قامته الهرقلية وعصاميته الأسطورية زادتا في تقديره لنفسه ومواهبه ومن ثمة إعجابه بشخصه وهو موقف يؤدي بصاحبه إلى العزلة في جبل الأوالب مع آلهة الإغريق ويصبح الجليل والعظيم هو ما يتزع إليه ذلك الشخص، ولسنا ننفي صفة الجمال الفني عن شعره ففي بعض قصائده لمحات فنية جميلة ، اقرأ شعره في وصف الشاعر واكتناه أغوار نفسه واستمتع بكلماتها الفنية الجميلة:

يجني المودة مما لا حياة له

إذا جفاه من الأحياء خوان

ويحسب النجم ألحاظا تساهره

والودق يكيه دمع منه هتان

إذا تجهم وجه الناس ضاحكه

ثغر الورود ومال السرو والبان

تفضي له ألسن الدنيا بما علمت

كأنما هو في الدنيا سليمان
والشعر ألسنة تفضي الحياة بما
إلى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت وهي فاتنة
خرساء ليس لها بالقول تبيان
مادام في الكون ركن في الحياة يرى
ففي صحائفه للشعر ديوان

وفي قصيدة " العقاب الهرم " وهي قصيدة موحية بمعاني العظمة المتهورة بالزمن، إنها قصة عقاب هرم فعجز عن الصيد
وصارت فرائسه ترمح أمامه نظرا لعجزه، وينسحب هذا المعنى على الأشخاص العظماء والدول الكبرى إنه الجلال
عندما يشيخ، يقول الشاعر عن العقاب:

يهم ويعيبه النهوض فيحتم
ويعزم إلا ريشه ليس يعزم
لقد رنق الصرصور وهو على الثرى
مكب وصاح القطا وهو أبكم
يللمم حدباء القدامى كأثما
أضالع في أرماسها تنهشم
ويثقله حمل الجناحين بعدما
أقلاه وهو الكاسر المتقحم

إذا أدفأته الشمس أغفى وربما

توهما صيدا له وهو هيثم

لعينيك يا شيخ الطيور مهابة

يفر بغاث الطير عنها ويهزم

وما عجزت عنك الغداة وإنما

لكل شباب هيبة لا تهرم

وفي قصيدته عن "أسوان" وقصرها الفرعوني العتيق الذي زاره الشاعر هنا نقف أمام الجلالين جلال المعمار الهندسي وجمال التعبير الفني عند الشاعر يقول العقاد:

رعى الله من أسوان دارا سحيقة

وخلد في أرجائها ذلك القصر

أقام مقام الطود فيها وحوله

جبال على الشطين شامخة كبرا

وليلة زرنا القصر يعلو وقاره

وقار الدجى الساجي وقد أطلع البدر

قضى نجه فيه الزمان الذي مضى

فكان له رسما وكان له قبرا

فياوجه "أوزيريس" هلا أضأتها

وأنت تضيء السهل والجبل الوعرا

فما رفعت إلا إليك تحجلة

ولا رفعت إلا إلى عرشك الشكرا

ولست ضنيننا بالضياء وإنما

لكل إله ظلمة تحجب الفكر

وأحص مفردات العظمة والجلال في هذا المقطع من مثل :

الطود، شامخة ، كبرا، وقاره، قضى نجبه فيه الزمان، تجلة، رفعت، إله..... الخ

أما ناقدنا الكبير الدكتور شوقي ضيف فيري أن العقاد أفحم الفكر والمنطق في الشعر فجاءت قصائده دلائل منطقية ومسائل عقلية لغلبة الفكر والحجاج على الكاتب الشاعر العقاد وأنت واجد مثل هذا في شعره.

اقرأ هذا المقطع لتقع على صحة هذا الرأي:

وهذا إلى قيد المحبة شاخص

وفي الحب قيد الجامح المتوثب

ينادي أنلني القيد يا من تصوغه

ففي القيد من سجن الطلاقة مهربي

أدره على لي وروحي ومهجتي

وطوق به كفي وجيدي ومنكبي

ورب عقيم حطم العقم قيده

يحن إلى القيد الثقيل على الأب

فهذه فلسفة عميقة تؤكد أن لا حياة بلا ضرورة وأن القيود مهماز القريحة والإرادة الإنسانية .

أما هذا المقطع فهو زبدة التأمل والتفكير لا يتأتى إلا لأولي الفكر والحجاج:

والعقل من نسل الحياة وإنما

قد شاب وهي صغيرة تتزين

والطفل تصحبه الحياة وما له

لب يصاحب نفسه ويلقن

إن العواطف كالزمام يقودنا

منها دليل لا تراه الأعين

على أن في بعض قصائد العقاد غنائية شجية استلها من مكنون ضميره وسلخها من تباريح وجدانه وآهات نفسه وقل
في الشعر العربي من بلغ هذه الغنائية الحزينة حتى المتنبّي الذي يقول :

يا ساقبي أحمّر في كؤوسكما

أم في كؤوسكما هم وتسهيّد؟

إن طلبت كميت اللون صافية

وجدتُها وحبيب النفس مفقود

يقول العقاد :

ظمآن لا صوب الغمام ولا

عذب المدام ولا الأنداء ترويني
حيران، حيران لا نجم السماء ولا
معالم الأرض في الغماء تهديني
يقظان، يقظان لا طيب الرقاد يدا
نيني ولا سحر السمار يلهيني
غصان، غصان لا الأوجاع تبليني
ولا الكوارث والأشجان تبكيني
سأمان، سأمان لا صفو الحياة ولا
عجائب القدر المكنون تعينيني
أصاحب الدهر لا قلب فيسعديني
على الزمان ولا حل فيأسوني
يديك فامح ضني يا موت في كبدي
فلست تمحوه إلا حين تمحوني
وبعد : فهل العقاد شاعر ؟

وجوابنا:

نعم إنه شاعر ولئن طغت شهرته كناقذ وقصصي وكاتب مقالات وباحث في سير العظماء فلن نبخسه حقه في إلحاقه بمملكة الشعر ، ونزعم أن له في وادي عبقر الهاتف الذي يزين له زخرف القول، وفي تقديرتنا أن الشعر الحديث الذي جدد بماءه وأحبي مواته البارودي وحافظ وشوقي ، ونفخت فيه روح الحياة جماعة "أبولو" برومانسيتها الحزينة والرابطة

القلمية بانطلاقتها الوثابة، إن هذا الشعر بحاجة إلى دواوين العقاد وإن موقفه من الشعر صحيح سليم ولو أنه يفهمه كما فهمه كبار شعراء الإنجليز وديوان

"عابر سبيل" يعتبر فتحاً في الشعر العربي بعد أن عفر جبينه أحقاباً أمام قصور الخلفاء، فالشعر صورة من الحياة ونسل مبارك من رحمها وفي الحياة أطياف ومشاعر و طرائق قد يتسع لها الشعر جميعاً بما فيها الفكر وثمار العقل وهذه هي أهمية العقاد كشاعر.

ولعل نقيصته الوحيدة تحامله الشديد على شوقي لسبب نفسي أكثر منه فني ثم حملته الشعراء على شعر التفعيلة الذي توطدت دعائمه وبذخت صروحه وكان فتحاً جديداً في حياتنا الأدبية.

شعرنا بين مد التجديد وجزر التقليد⁽¹⁾

ألا ياطرر الفردو س إن الشعر وجدان (عبد الرحمن شكري)

الشعر صورة من الحياة ونسل من رحمها ، وهو ترجمان الشعور ، وفيض من توتر الروح وسحات الوجدان، وكل موضوع من مواضع الحياة ،سما أو انحطّ متاليا كان أم واقعبا، وكل همسة أو خفقة قلب أو شرارة انقدحت في الوجدان هي مجالات الشعر.

وليس يعني الشاعر في شعره بالمثل والقيم العليا فما هو بفيلسوف ولا داعية ولا مصلح إنساني ، وإذا جاء شيء من هذا في شعره فهو من طريق غير مباشر وإلا فسدت رسالة الشعر ، ورسالته تحمل في كلمة فحوها أن الشعر تعبير عن الوجدان.

إن الشاعر الحقيقي صنو للإنسان الحقيقي فكما لا يكون الشاعر شاعرا إلا إذا امتلك زمام اللغة وتبحر في بلاغتها وعرف أوزان الشعر وقواعده فليس هو بشاعر إن خلا قلبه من الحب – حب الكائنات والطبيعة – والسعي إلى إضافة شيء في المعمار الإنساني.

ومن ثم تسقط الدعوة التي يروج لها بعض الناس وهي أن الشعر لا يكون شعرا إلا إذا تضمن الأشياء العظيمة وحلق في سماء الفضيلة وما عداه ففحش ومجون.

وفي الواقع فشاعرية الشاعر لا تقاس بنوع الموضوع الذي يتطرق إليه في شعره ومن ثمّة الحكم بالإبداع أو الرداءة وإنما بطريقة الأداء وكيفية التصوير ودلالة اللفظ على المعنى وتدفق الشعور كتيار مصاحب للصور الشعرية وهي وحدها العناصر التي يجاسب عليها الشاعر.

وفي تراثنا الشعري القديم كثير من المنظوم الذي ليس بشعر، فمنه ما يخلو من صدق الشعور وأكثر شعر المديح من هذا القبيل ، وفي دواوين الشعراء الكبار كالمثنبي وأبي تمام والبحرزي كثير من هذه السقطات التي ابتغى بها هؤلاء الشعراء حطام الدنيا مقابل

(1) . مجلة تعابير المملكة العربية السعودية يناير 2008.

التزييف والقفز على قناعات عقولهم وأحاسيس وجدانهم فالمتنبئ الذي يقول في كافور:

قواصد كافور توارك غيره

ومن قصد البحر استقل السواقيا

يعود ليقول فيه:

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة

ليضحك ربات الحداد البواكيا!

ولا لشيء إلا لكونه انتظر إمارة من كافور ولم ينلها:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله

فإني منذ حين أغني وتشرب ؟

فأين هو صدق الشعور الذي انقلب من الضد إلى الضد في أمد قصير؟ ولم يسلم شعراء الجاهلية على علو كعبهم في الشاعرية من آفة تسيء إلى الشعر وهي آفة التقليد فإذا كان امرؤ القيس قد وقف على الديار فبكى واستبكى حسب غيره من الشعراء أن عليهم سداد دين لآلهة الشعر ليترصدن خطى الملك الضليل حتى ولو لم يكن لأحدهم في سوق الهوى الذبوع وما وقف حقيقة على طلل. ولذا عد أبو نواس شاعرا بحق لأنه قال:

عاج الشقي عن رسم يسائله

وعجت أسأل عن مخارة البلد

لقد جعل الشعر ترجمانا عن وجدانه ولسانا يبين عن حاله، وقد كان أبو نواس رجلا غاص في الرذيلة إلى الأذقان، ولم تكن حياته إلا السكر والإمعان في الفحور وهو يبعد حين يصف عريده ودعارته وليس أبعد في وصف الخمرة وتأثيرها من قوله:

صفراء لا تنزل الأحران ساحتها

إن مسها حجر مسته سراء

وحياة أبي نواس لا ترضي المثل ولا يرضى عنها أهل المروءة ولكن شعر أبي نواس هو في القمة من حيث استيفائه على عناصر الشعر ومكوناته.

والشعر إذا تخلى عن جوهره وساير مجالا غير مجاله فقد صفة الشعاعية وتحوّل إلى نظم وقل مثل هذا عن الشعر الأخلاقي والوعظي المباشر وديوان الشافعي ولامية ابن الوردى خير مثال على هذا.

والشعر موسيقي في الصميم فهو على حد تعريف القدماء له الكلام الجميل الموزون المقفى، وقد حافظ الشعر العربي على نسقه العمودي أحقابا طويلة، واقتضت ضرورة الحياة وتطوراتها وتباين البيئة من إحداث تجديد فيه دون التخلي عن الأوزان الخليلية وأفضل مثال على ذلك الموشحات الأندلسية واستعمال الأبحر المجزوءة واستحداث التغيير في بحر بعينه كمثل البسيط وقد نظم عليه ابن الرومي هجائته المشهورة:

وجهك ياعمرؤ فيه طول

وفي وجوه الكلاب طول

ولكن في العصر الحديث ونتيجة لاحتكاك الشعراء بالثقافة الغربية الوافدة وتأثير من الشاعر الإنجليزي توماس إليوت، ثار لفيف من الشعراء العرب على عمود الشعر، ذلك أنهم رأوا فيه إكراهات وقيد تعيق حرية الشاعر ولعل أهمها تبعية الشاعر للغة قصد الاستجابة لدواعي الوزن، وعلى الرغم من أن هؤلاء الشعراء بإمكانهم تنويع القافية كسرا لهذا الغل، إلا أن هذه الحرية في معتقدتهم لا تشفي الغليل، فالشعر تيار نفسي مسكون بالرغائب والهواجس والانفعالات مسكوب في قوالب لفظية ودرجة الانفعال وحدته هي التي تتحكم في طول وقصر البيت وهو ما يسمونه بالسطر ولقد كان السياب ونازك الملائكة والبياتي وصلاح عبد الصبور وخليل حاوي وأمل دنقل ونزار قباني خير من يمثل هذه الحركة التجديدية، التي لاقت معارضة شرسة من قبل المحافظين على عمود الشعر ولعل أبرز المعارضين العقاد، وله في ذلك حجة ذكية تستحق النظر وفحواها أن الشعر حركة ومناورة في فن محكوم بالقيود (الوزن والقافية) والشاعر الحقيقي هو الذي يتحرك بخفة ورشاقة دون أن تحد تلك القيود من مرونة حركته، فهو يعبر عن رغائبه وبنات أفكاره

ومشاعره أتمّ تعبير وأكمل تصوير وكأنّ تلك القيود غير موجودة أصلا وله في ذلك قصيدة طريفة بعنوان " حانوت القيود".

لا ريب أن العقاد قد غالى في حملته على الشعر الجديد، وقد جانب الصواب حين أحاله على لجنة النشر للاختصاص، فالبحور الشعرية وشكل القصيدة العربية المتوارثة ليست وحيا منزلا وما على الخلف إلا الاتباع، فأبناء هذا العصر ثقافتهم وظروف حياة تختلف عن حياة آباؤهم وعالم يعيشون فيه يتألا حركة ونموا ومرونة فمن السخف غض النظر عن كل هذه الأشياء والركون إلى ميراث الأجداد لاستهلاكه دون أن يضيف إليه الأبناء شيئا جديدا.

إن في الشعر الحديث إنجازات شعرية كبيرة هي ترجمان الشاعر والعصر على السواء وهي قصائد تستحق البقاء حتى وإن كانت الذاكرة قد ألفت حفظ الشعر العمودي وترديد حكم المتنبي وغزليات امرئ القيس وخمريات الأعشى ومواجه ابن الفارض .

وإن القارئ الحصيف الحي الضمير ، المرهف الإحساس ، الغني العقل ليجد في قصائد من مثل " دار جدي " و " أنشودة المطر " للسياب و " الظل والصليب " لصالح عبد الصبور ، الفن الكبير الذي يغذي العقل والوجدان على السواء .

ولا أدل على ذلك من هذا المقطع لخليل حاوي من ديوان " نهر الرماد ":

خليني للبحر، للريح، لموت

ينشر الأكفان زرقا للغريق

مبحر ماتت بعينه منارات الطريق

مات ذاك الضوء في عينيه مات

لا البطولات تنجيه ولا ذل الصلاة !

فهو مقطع قد تكاثفت فيه الروح الشعرية ، وتعددت فيه صور الضياع ومشاعر الكآبة و الانسحاق ، وموسيقاه مناسبة تماما لهذا الغرض أي الأزمة الوجودية الخائقة التي يجيهاها الشاعر .

والشاعر يعتمد تكرار (فاعلاتن) من بحر الرمل في كل سطر حسب حاجته النفسية:

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

فمن غير المقبول اعتبار هذا الإبداع الشعري المحكم البنيان، الغني بالصور الشعرية، والطاقة الشعورية المتدفقة من وجدان الشاعر محالا على لجنة النشر للاختصاص.

وأزمة الشعر الحديث في رأينا تأتي من كون الجيل اللاحق لجيل الكبار (السياب، الملائكة، البياتي، دنقل، عبد الصبور) لم تستقم له الملكة الشعرية ولا تهيأت له أسباب السيطرة على اللغة العربية ولا تعمق في دراسة الشعر العربي الكلاسيكي، ولا تمرس بدراسة المذاهب والنظريات النقدية الغربية والشرقية على السواء، ناهيك عن الجهل التام بالعروض وقواعده والقافية وأصولها، وأغلبهم يعجز عن إنشاء قصيدة عمودية، ولذا تراه تحت دعاوى التجديد والحدأة وما بعد الحدأة يحاول إخفاء عورته والتستر على فقره بهذه الرطانات التي يسميها صاحبها شعرا حديثا وفي الواقع هي مؤشر الأنيميا الشعرية والسقوط الفاضح.

وما نحسب أن هؤلاء الكبار الذين أشرنا إليهم كانوا يعجزون عن النظم حسب أصول القصيدة العمودية، وللملائكة والسياب بل ولعبد الصبور قصائد عمودية، تدل على تمكن هؤلاء الشعراء من القصيدة العمودية، ولكنها الروح التجديدية الوثابة هي التي حدت هؤلاء الكبار إلى إنتاج شعري جديد شكلا ومضمونا.

قدموس ثائرا أ جبران ونزعة التمرد⁽¹⁾

من غرائب هذه الدنيا التي لا تنتهي وأعاجيبها التي لا تفي تفاجئ الإنسان أن بعض المناطق المعزولة في أعالي الجبال أو المشردة في الفيافي

والتي لا تعدو أن تكون قرية صغيرة في أحسن الأحوال تصيب من الحظ ومن الشهرة ما لا تصيبه أكبر المدن في الدنيا وذلك كله بفضل شخصية تولد في تلك المنطقة إذ تبدأ مغمورة في أسرة يائسة فقيرة، يتناوب عليها الفقر والجوع والداء العضال ثم تنتهي تلك الطفولة المشردة سلبية الجوع والعري والمرض إلى كهولة ناضحة تشع علما وعبقرية وعطاء يجتهد الدارسون في فهم أسرار عبقريتها وفي كيفية قهرها للظروف كما لا يفوتهم أن يدرسوا الظروف الحياتية التي أنتجت تلك العبقرية فنال تلك المنطقة الشهرة ويقترن اسمها باسم ابنها الذي غدا شخصية من شخصيات التاريخ الكبيرة .

كذلك كان الشأن مع " بشري " إحدى قرى لبنان المعزولة وكذلك كان الشأن مع فتاها جبران خليل جبران الذي ملأ العالم العربي أدبا وقرمدا وشغلا للناس لم ينته برحيله عن هذه الدنيا ، وليس من شأن هذا المقال أن يهتم بالتاريخ لحياة جبران وقد أشبعها الباحثون درسا وتحليلا، ولم يعد فيها ما هو خاف على القارئ العربي ، إنما يهدف إلى تسليط الضوء على جملة الظروف التي حفت بكاتبنا فأثرت فيه وأثر فيها سلبا وإيجابا ووجدت صداها في كتاباته النثرية والشعرية على السواء وإذا كان لا بد من ذكر بعض التواريخ وتتبع مراحل حياة الكاتب فلخدمة غرض المقال ذلك أن الإنسان ابن بيئته وإذا كانت الهندسة التحليلية تعين كل نقطة في الفضاء بفواصلها وترتيبها وذلك ما يسمونه بإحداثيات نقطة في مستوى، فكذلك الشأن مع الإنسان فاصلته الزمان وترتيبه المكان لتتشكل إحداثيات الكائن البشري وأما الفاصلة أي الزمان بالنسبة لكاتبنا فهي العام 1883 وأما الترتيب أي المكان فقرية " بشري " من قرى الشمال اللبناني ، وأما الظروف السياسية السائدة في لبنان في تلك الحقبة وفي الشام عموما فطغيان سورة الاستبداد العثماني وقد خضع الشام لسلطة الأتراك الذين استبدوا به عن طريق ولاته وقد كانت شمس الدولة العثمانية آيلة إلى أفول منذ انزها أسطولها في معركة " نافارين " عام 1827 ، وقد كانت أوروبا الناهضة تنهياً لاقتسام تركة الرجل المريض والحلول مكانه في شرق العالم العربي وفي غربه ، ولم يبق من العثمانيين

(1) . مجلة المغترب العربي كندا 2007.

وشوكتهم آنذاك غير استبدادهم بالعرب وبطش ولائهم بهم ومصادرة الحريات بل وإزهاق الأرواح و فرض الإتاوات والضرائب على السكان لدفع رواتب الجيش

وإغراق ضباطه في النعيم حتى لا يثور الجيش على الباب العالي وينهي حكمه وتحمل العرب ذل العثمانيين واضطهادهم بكبرياء وشموخ حتى إذا أشرقت شمس القرن العشرين رأيت العرب في الشام وفي لبنان خاصة يؤسسون حركة قومية تناهض الحكم العثماني واستبداده وتدعو إلى الاستقلال عنهم وتناضل في سبيل ذلك سرا وعلانية وقد انتهى شأن الكثيرين من أحرار لبنان والشام إلى الإعدام شنقا وجرائم السفاح جمال باشا في العالم العربي مشهورة ومدونة .

وما كان وجود العثمانيين في العالم العربي إلا نزولا به في دركات الجهالة والعماء وقد أدت تلك الحقبة المؤلمة إلى انحطاط اجتماعي تميز بالطبقية الجائرة ففئة من الانتهازيين ناصرته العثمانيين وشكلت طبقته البيروقراطية في الشام كما شكل لفييف من ضباط الجيش فئة مستفيدة من ريع الحكم الجائر ماديا واجتماعيا ولعامته الشعب العربي والخصاصة والموت جوعا ومرضا وقد أزهقت الحريات وكمت الأفواه ونصبت المشانق عوض نشر العلم وطبع الكتب وجعل العالم العربي والإسلامي منارة علم وقطب إشعاع ، والحق أن الحكم العسكري لا يجلب إلا البوء الأخلاقي والفكري والاجتماعي لأن العسكر حزمة من الغرائز وقبضة حديدية لا تذيبها شمس أغسطس الحارة، وتلك هي ميزة الحكم العثماني الذي كان حكم سيف لا حكم شورى ودولة جهل لا دولة علم ومدنية ورقية وقد تسرطن كل نواحي الحياة بهذا السرطان العام فلحق الحياة الاجتماعية المسخ والتشويه وانحطاط القيم وشيوع الدجل والشعوذة وروح السحر والخرافة وأخذت العلاقة بين الرجل والمرأة صيغة الحریم التي تنمي في الرجل الشبقية و تختصر المرأة إلى كائن ذي جاذبية جنسية ، وتآمر الإقطاع الزراعي مع الكهنوت الديني ، فعدا الدين الرسمي مباركة للوضع القائم وترسيما له بالنصوص المقدسة وعملا بالقول المأثور " حاكم ظلوم خير من فتنة تدوم " و" ليس في الإمكان أبدع مما كان " إنها إذا حقبة مظلمة هيأت العالم العربي بعد قرون من السبات والتقليد

والاجترار والاستبداد السياسي إلى الوقوع فريسة للمطامع الأوروبية التي اقتسمت عالمنا العربي غنيمة مريحة وزادت من بلاننا وتخلفنا.

هذه هي الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي ولد فيها جبران خليل جبران وقد ذاق ككل الأطفال العرب البؤس والخصاصة والعري في أسرة متواضعة فالأم معدمة مع طبيعتها والأب سكير والإخوة فرائس لداء الصدر، غير أن نور العبقريّة لا يلبث أن ينير الحلكات وترتيب الأقدار سيقوى على الظروف فإذا العزيمة لا تهن وروح المغالبة لا تخمد، وهكذا سار الطفل جبران في طريق المعرفة فتعلم ببيروت وأقام أشهرها بباريس ولا شك أن إقامته تلك بباريس قد حسمت مسار حياته بتوجهه إلى الفن

والأدب وباريس كعبتها فهي موطن الإلهام وممكن الإبداع ومستودع العبقريّة تعج أرضها بعرائس الشعر وحوريات الفن ، فعلى أرضها يستقر اللوفر ويجري السين وفي حداثتها المنسقة والمزينة بالتماثيل كتب موسيه و فيني أشعارها الخالدة، غير أن الفتى جبران هاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة شأن اللبنانيين في تلك الحقبة هربا من الاستبداد السياسي وقهر الحاجة و تفشي البطالة والجوع والمرض ، بحثا عن ظروف حياة أفضل في بلد اتخذ للحرية تمثالا ضخما عند مرفأ مدينة نيويورك وهو بلد فتح ذراعيه للمهاجرين والمغامرين من كل حذب وصوب فلا مناص من النزوح إليه أملا في غد مشرق وقد استقر جبران مع أسرته في مدينة

" بوسطن " أو " باريس أمريكا " كما تسمى وما أن طفق يكتب حتى أحس بالحاجة إلى التعمق في العربية ودراسة علومها والإحاطة بأسرارها لأنه أحس بضعف أدواته، وعاد إلى لبنان ليقوم أربع سنوات في بيروت متفرغا لدراسة اللغة العربية والتمكن من اللسان العربي ، وفي عام 1908 عاد إلى باريس دارسا للفن على يد النحات الفرنسي الكبير " رودان " وقد حاز في آخر الأمر على إجازة في فن التصوير . وللسيدة الأمريكية " ماري هاسكل " فضل كبير عليه في تذليل دروب الإبداع له وذلك باحتضانه والتكفل به بالإنفاق عليه في أمريكا وفي باريس وفي تعريف الأمريكيين به وبفنه وبالمعارض التي أقامتها له ولا ريب أنها كانت تكن له حبا عميقا بدليل مذكرتها وما باحت به من حقائق وقد بلسمت هذه السيدة جراحه بعد رحيل أخته وأخيه ثم أمه بدءا الصادر فكانت " ماري هاسكل " الأم والأخت والزوجة والصديقة، أبدلته أمنا بعد خوف وسكينة بعد قلق

ولبلال وعيشة لا بأس بما بعد خصاصة ومسغبة، فتفرغ لفنه وأدبه واسما وكاتبنا إلى وفاته عام 1931 خلفا دررا في العربية جددت وجه النثر العربي بتأجج المشاعر وانطلاق الخيال وحلاوة الأسلوب مع سلاسته وقد استعار جبران كثيرا من مفرداته من الطبيعة ففعلت فعلها في القلوب ، بالوقوع على معاني بكر لم تتحقق لكاتب من قبل وباقتباساته من

العهدين القديم والحديد ، كما أفاد تمكنه من اللغة الإنجليزية الاطلاع على عيون الأدب الأمريكي والإفادة منه وقد خلف من آثاره باللغة الإنجليزية

" المخنون و" النبي " و" السابق" أما مؤلفاته بالعربية فأشهرها " دمة وابتسامة " و " الأرواح المتمرده " و " الأجنحة المتكسرة " و" المواكب " و " العواصف " وغيرها.

فقد كانت حياة جبران إذا حياة اضطراب و ترحال استهلها بطفولة بائسة معدمه في كنف أسرة يتناوب عليها الجوع والداء الذي ذهب بأفرادها وأما الأب فمدمن خمر تارك لواجباته ، وحياة اجتماعية متفسخة تعفنت فيها جميع القيم وتنقل بين لبنان وفرنسا وأمريكا بحثا عن ظروف مثلى للعيش والإبداع ، غير أن ترتيب الأقدار كان في صالح جبران فقيض له السيدة

" ماري هاسكل " التي احتضنته واحتضنت فنه وأدبه ثم اشتراكه في تأسيس الرابطة القلمية عام 1920 مع لفيف من أدباء المهجر كميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد ورشيد أيوب ووليم كاتسغليس وأمين مشرق

وأمين الريحاني ونسيب عريضة وغيرهم ، كانت تلك الرابطة تجدد في الأدب العربي شكلا ومضمونا وتكتسح العالم العربي حاصدة الإعجاب

والتأييد من جماهير القراء العرب وفي مجلتها كتب جبران ونشر شعره ونثره ، وبفضلها عرف في المشرق والمغرب .

فلا يمكن فهم ترمد جبران بمعزل عن الظروف التاريخية التي نشأ فيها فقد كان روحا وثابة وعقلا بحثا ونفسا طموحة غير أن بيئته تسعى لأن توثقه بوئاق الرجعية وتشده إلى عفونة الماضي وأصار الحاضر بجبال سميكة فتائلها الإقطاع الزراعي والسياسي والديني ولهذا صب عليها جام غضبه فاضحا جبروت الحاكم ونفاق رجل الدين وبلادة ملاك الأراضي الذين اصطلحو على البدن العربي كالسرطان ينهشون لحمه ويمتصون دمه

ويجهزون على البقية الباقية فيه . ثم أن حياة أسرته ذاتها المترنحة بين انحراف الأب وعجز الأم ومرض الإخوة وقهر الظروف عمق في نفس جبران مشاعر الحقد والكراهية للظروف التي تحاول أن تغتال فيهم الروح الإنسانية والكرامة البشرية وهو نفسه في حياته كان مثالا للتذبذب والاضطراب فمن حياة من غير أسرة إلى عشرة بغير زواج مع " ماري هاسكل " إلى تناول المخدرات لتناسي الجرح وقهر الزمن وتسلط القدر الذي عمق في نفسه مشاعر الإحساس

باليتم ، إلى الثورة على السماء التي لا تبالي بعذاب المعذبين والتي تتواطأ بالصمت واللامبالاة و كأنها بكماء خرساء وقد تشفى جبران منها بإنكارها والتعالي عليها لأنها لا تفعل شيئاً لتغيير الواقع فتفضح المتدين المنافق وتغتال السياسي المستبد وتصيب بالشلل الإقطاعي الذي ينمي ثروته من امتصاص دماء الفلاحين واستغلال عرق الجبين.

وهناك شيء لا يفوتنا إغفاله وهو نظرة جبران إلى المرأة تلك النظرة التي لا تختصر المرأة في الجاذبية الجنسية وتلقي بها دمية في مخدع الرجل

ولا يفوته أن يعبرها بقصورها وبحيضاها وهي نظرة العربي اليوم إلى المرأة ، فعلى الرغم من مشاعر الود التي احتفظ بها جبران لماري هاسكل التي وجد في أحضانها الدفء والرعاية والحب إلا أنه بعقله النافذ أدرك أنها ربما مودة أملت لها ظروفه البائسة هو وإشفاق ماري عليه وهذا ليس بحب حقيقي فاتجه بحبه نحو امرأة أخرى هي "ماري إلياس" أو "مي زيادة" تلك الفلسطينية ثم اللبنانية والمقيمة بمصر صاحبة الحس المرهف والخيال الجامح والقلم السيال والذكاء الخارق وصاحبة الصالون المشهور وقد كانت تتألق فيه يوم الثلاثاء فتغدو أشبه بالمصباح يحوم حوله الفراش وما الفراش إلا نوابغ مصري ذلك الزمان كعباس محمود العقاد وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وقاسم أمين وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي ومحمد عبده وغيرهم وقد وجد فيها جبران المرأة الحقيقية التي ظل يبحث عنها ويهيم بها ، امرأة غير نساء الحرم بل إنسان من لحم ودم وروح وكيان متميز وفردية مستقلة ، ليست ظلاً للرجل ولا تابعاً له، وقدبادلها مودة بمودة رغم البعد ، فلم يرها ولم تره حتى فرق الموت بينهما برحيله هو ثم التحاقها بشاطئ العدمية بعده .

وربما أمعن جبران في ثورته وفي تمرده وربما بتأثير من المخدر فتوهم نفسه بوذا أو زرادشت يسوق الحكم ويلقي بالمعاني البكر فشطت أحياناً عن الصواب وموقفه من الأسرة فيه شطط ومغالاة فهو يقول في العواصف " إنما الزواج عبودية الإنسان لقوة الاستمرار فإن شئت أن تتحرر طلق امرأتك وعش خالياً " .

وهو في بحثه عن المعاني ونبشه في بطون الألفاظ وبحثه عن اللباب يغالي في تمرده وفي مواقف مسفها القيم والمثل العليا معتبراً إياها جسداً بغير روح أو جثة محنطة من بقايا التاريخ فهو يقول في العواصف : " قلت أو من بالله وأكرم أنبياءه وأحب الفضيلة ولي رجاء بالآخرة . فقال : هذه ألفاظ رتبها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك، أما

الحقيقة المجردة فهي أنك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تحوى غير أميالها ولا رجاء لك إلا بخلودها ، منذ البدء والإنسان يعبد نفسه ولكنه يلقيها بأسماء مختلفة باختلاف أمياله وأمانيه فتارة يدعوها البعل وطورا المشتري وأخرى الله .

وليس من العسير دحض هذه المقولة التي ترمي إلى إنكار المطلق

والمعياري ، وبغيرهما يتسبب الوجود وتغدو الحياة الإنسانية هملا ، وفي التاريخ من الشخصيات من أنكرت "أناها" وضحت بنفسها في سبيل نصره الحق والانتصار للإنسانية وفضائلها ، وجبران يعرف ذلك جيدا ، إنما هي آثار الظروف وجراح الواقع التي لم تندمل حتى وهو في أمريكا .

غير أن في بعض أفكار جبران معاني بكر تعزز الحرية الإنسانية وتستخلص اللباب من القشور وهي تستفز عقل القارئ وتدعوه للتأمل

والتفكير في مسار حياته معتمدا على "أنا" باحثا عن حريته مشمنا قدراته الشخصية ونوازعه الذاتية ولو استلزم ذلك إنكار الماضي والولوع بالحاضر : "إن بلية الأبناء في هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آباءه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات".

وأما الثورة التي أحدثها جبران في الأدب العربي فتكمن في أسلوبه الأدبي الذي تجاوز به مدرسة الإحياء في النثر العربي خاصة أسلوب المنفلوطي ، وفي نثره شعرية وموسيقى داخلية وروح رومانسية حاملة ثائرة باحثة عن الحرية متعطشة إلى الكمال أوهي ناسوت باحث عن اللاهوت وهنا تكمن عظمة جبران ككاتب، وأي إنسان لا يقرأ هذه الكلمات ولا تحرك وجدانه وتستفز عقله وتقع الألفاظ المستمدة من الطبيعة موقع الرضا والاستحسان من القارئ .. أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة التّن تنبعث منهم "

ولقد تأثر جبران بالشاعر الإنجليزي الرومنطقي وليام بليك بعد أن قرأ شعره وتمثل روحه وهو القائل : "اذهب وطور قابليتك على رؤية الرؤى حتى تصل بها إلى أفضل ما يمكن أن تكون عليه" .

فكان في أدبه صاحب رؤيا وكأنه عراف انسدل شعره، وعبثت الريح بأطراف ثوبه الأبيض وتحركت الطبيعة وهدر الوجود بجفيف شجره وحرير مائه ولمعان برقه وهزيم رعدته و امتدت نظرة الشاعر وثابة نحو الآفاق لا تنكسر ولا تلين باحثة عن عالم تزداد فيه إنسانية وشهامة وعدلا

و أما جبران في شعره فكان ناظما أكثر منه شاعرا فلقد تكلف الوزن والقافية فوقع فيما أنكره على غيره ، وفي شعره حاول أن يبدي موقفه من الوجود وحدية العلاقات الإنسانية ومضمونها ، وهو متأثر بنيتشه وببودا وزرادشت ومحي الدين بن عربي ويسوع فاقتبس معاني كثيرة عنهم وسجنها بين حيطان البيت وسقف القافية فجاءت أدنى مستوى من نثره ذي الروح الشعرية واللمسة الإنسانية :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا

والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا

وأكثر الناس آلات تحركها

أصابع الدهر يوما ثم تنكسر

فأفضل الناس قطعان يسير بها

صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

والعدل في الأرض يبكي الجن لو سمعوا

به ويستضحك الأموات لو نظروا

فالسجن والموت للجانين إن صغروا

والمجد والفخر والإثراء إن كبروا

فسارق الزهر مذموم ومحتقر

وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر

والحق للعزم والأرواح إن قويت

سادت وإن ضعفت حلت به الغير

ففي العرينة ربح ليس يقربه

بنو التعالب غاب الأسد أم حضروا

وتأثر جبران هنا بفيلسوف القوة " نيتشه " صاحب كتاب "هكذا تكلم زرادشت" واضح لا ينكر.

وبعد فماذا يبقى من جبران وماذا يثمن من مواقفه ؟

لقد كان جبران ظاهرة أدبية حقيقة بالإعجاب والتقدير مستحقة للخلود الأدبي، تجاوزت شرطها الحياتي بفاصلته وترتيبه كما يقول علماء الرياضة وقهرت ظروفها بعقريتها وعطائها ومعاناتها الإنسانية ولعل من أثنى مواقفه دفاعه عن الحرية الإنسانية وهي لباب الوجود الإنساني وحملته على التقليد ومقته للتعصب ودعوته إلى التسامح الديني وحرية الشعواء على الإقطاع السياسي والزراعي والديني وتنديده بالطبقية الجائرة تلك الموبقات التي هدت عافية العرب وأسلمتهم لقمة سائغة إلى القوى الإمبريالية الأوروبية ثم الأسلوب الساحر بروحه الشعرية وتراكيبه البديعة وخياله الخلاق وإيقاعه الشعري ، تلك الميزات التي تعرج بالقارئ إلى سماوات الفن والهيام على الرغم من بعض سقطاته اللغوية ويشفع له اضطراب حياته، ثم حياته فيما بعد في المهجر يتكلم بغير لغته الأم، وعلى الرغم من إسفافه أحياناً وتعاليه على قيم الدين والحياة وتسفيههما وهذا كله يفهم بالاستناد إلى الخلفية اللاشعورية فقد تركت ظروف القهر ندوباً في نفس نابغتنا لم تقوا أمريكا ولا الزمن على محو آثارها ولا بلسمة الجرح أو تضميده ، لهذا كله حق لنا بعبارة جبران والعرب أن يخلد في دنيا الإبداع الأدب وحق لقريته " بشري" أن تنال حظها من الشهرة وهي تلك البلدة الصغيرة المعزولة في شمال لبنان .

ملاك لبنان الحزين.. فوزي المعلوف⁽¹⁾

في الحياة تصادف صنفا من الناس يبدو غريبا مختلفا عن غيره من الناس لا تملك إزاءهم إلا التأمل في خفايا سرائرهم والتفكير في مسارات حياتهم وربما أسلمنا هذا التأمل والتفكير إلى الحيرة ثم التسليم بأن لله في خلقه شؤوننا!

كذلك كان شاعر لبنان بل ملاكه فوزي بن عيسى إسكندر المعلوف (1899-1930) شابا جمع بين وسامة الملمح، وأناقة المظهر، وتوقد البصيرة ورهافة الحس ويسر الحال والشائع أن كل من يجمع بين هذه الصفات الفريدة والامتيازات النادرة أن يقبل على الحياة إقبال المتفائل، ويسعى في دروبها سعي الواثق من نفسه بقلب ينضج سرورا ونفس مطمئنة إلى نجاحها فيما أقبلت عليه من علم أو عمل، ولكن شاعرنا ما نضجت نفسه سرورا ولا امتأ قلبه بالثقة في الحياة والناس، بل أسلم نفسه إلى حزن غامض دفين وقلبه إلى بلبال وعقله إلى بحران، وكان شعره المرأة التي عكست تقلب هذه النفس المعذبة وهذا القلب الحزين، ولئن كانت زحلة التي ولد بها شاعرنا أواخر القرن التاسع عشر، مهوى الأفئدة ومهبط الإلهام للشعراء والفنانين بما أفاء الله عليها من جمال الطبيعة والوجوه، لم تستطع هذه الجنة الأرضية أن تثني الشاعر عن حزنه العميق وسويدائه المعذبة، وهو مدين في عبقرته الشعرية لبلدته

وأسرته معا فوالده عيسى إسكندر المعلوف أديب مشهور وأخواه رياض

وشفيق شاعران مطبوعان وآل المعلوف في لبنان أسرة لامعة جمعت بين النجاح في العلم والعمل معا، وقد خدمت هذه الأسرة الجليلة الأدب العربي خدمة لا سبيل إلى إنكارها أو التقليل منها، تماما كما تشهد الثقافة العربية بفضل آل البيازجي وآل البستاني وتراثهما الفكري والأدبي خير ما تركت هاتين الأُسرتين العريقتين للأدب والفكر العربيين.

كان فوزي في صباه شعلة متوقدة من الذكاء، وحزمة حارة من المشاعر النبيلة، وميلا فطريا إلى الشعر تذوقا وقرضا، وأتاح له جو الأسرة الأدبي ومناخ زحلة الفكري، ثم تمكنه من الفرنسية انطلاقة أدبية وثابة وتحليقا فكريا شامخا يأخذ من الشعر القديم الزاد البياني الذوقي ويلقح ذلك كله بثمرات الثقافة الفرنسية في الشعر والفكر حتى استوى شاعرا قديرا حق للبنان أن يفاخر به شعراء مصر والعراق وسوريا الكبار.

(1) . مجلة صوت العروبة أمريكا.

ولأن أهل لبنان أحفاد الفينيقيين سادة البحار، تعاف نفوسهم الركون، يسعون في الأرض كأثم في وطنهم بلا خوف أو إحساس بالذونية فلا يلبثون أن يصبحوا سادة المجتمعات التي عاشوا في رحابها علما وعملا ويصبح سعيهم الناجح مضرب المثل، وهم إن اختلطوا بالمجتمعات الجديدة وتمكنوا من لغاتها وعاداتها وأساليب عملها وحياتها حتى لكأنهم أهلها الأفحاح لا ينسون وطنهم لبنان ولا لغتهم الأم - العربية- بل كانت تلك الهجرة فأل خير وبشارة يمن أكسبتهم تجارب ويسرا ماديا وخبرة عميقة بالحياة وبالنفوس الإنسانية، فجاء أديهم في لغته العربية أدب النضج والاستواء، كذلك كان شعر الشاعر القروي و إلياس فرحات وسعيد الشرتوني وشفيق المعلوف وغيرهم.

ولقد هاجر شاعرنا فوزي عام 1921 إلى البرازيل مع أسرته واستقر في مدينة " ريو دي جانيرو " حيث أنشأ مع أسرته معملا لإنتاج الحرير من دودة القز، ويبدو أن طبيعة الشاعر فيه المنطوية على حب الحرية والنفور من الرتابة ومن أغلال الوظيفة قد انتصرت فيه فترك حينها الوظيفة كمدير لمدرسة المعلمين في دمشق ثم أمين سر عميد كلية الطب ، ولجى نداء الغربة والمغامرة في المهجر الجنوبي .

ولقد أصاب الشاعر في البرازيل حظا عظيما من النجاح جعله من أعيان المدينة وناجيتها ورجال الأعمال فيها وكان في سيرته وعمله مضرب المثل لولا أن القدر شاء للشاعر مسارا آخر هو مسار العطب و الزوال في ميعة العمر ونضارة الشباب ، فقد توفي متأثرا بإصابته بالحمى في مستشفى مدينة " ريو دي جانيرو " وحزنت زحلة لفراق فتاها النابه وشاعرها الغريد.

غلبت على شاعرنا إذا نزعة التشاؤم ومال إلى الحزن العميق الذي لا تبينه عامة الناس ، ذلك أن أثره لا يظهر على الوجه ، وقد تقدم أن شاعرنا كان قسيم الملمح وسيم المظهر ولكن حزنه ظهر في شعره الذي احتوى على فلسفته في الحياة . لقد كان روحا شفاقة تشبعت بفلسفة

" رهين المحسنين " وصاحب "اللزوميات " أبي العلاء المعري القائل :

أنا صائم طول دهري، فطري

الحمام، ويوم ذاك أعيد

كما تشبعت بأفكار ومعاني " رباعيات " الخيام الداعية إلى نهب اللذات قبل الموت وإلى التحسر على عطالة الحياة،
وجريان الزمن في اتجاه إعطاب الإنسان وجعل لحظات المتعة مجرد ذكرى ، ألم يقل الخيام ؟:

غدونا لذي الأفلاك لعبة لاعب

أقول مقالا لست فيه بكاذب

على نطع هذا الكون قد لعبت بنا

وعدنا لصندوق ألفنا بالتعاقب

ففوزي المعلوف شاعر الرومنطيقية الحزينة ، كان نفسا شفافة وروحا قلقة معذبة لم يجد في أطيب الحياة ومتعها إلا
فخا يقود الإنسان - في غفلة منه- باتجاه العدم ومخدرا يخدر الإنسان عن معضلة الفناء، لذا لم ينخدع الشاعر
بصحة أو وسامة أو غنى أو عبقرية وظل يقظ الحواس، قلق الضمير ، شارد اللب كتيب النفس حتى وهو يتصنع
الضحك أو وهو يظهر بمظهر المتفائل مراعاة لأداب اللياقة واقرأ له هذين البيتين تقع على أحص حبايا نفسه :

مرحبا بالعذاب يلتهم العيي

ن التهاما، وينهش القلب نحشا

مشبعا نعمة إلى الدم حرى

ناقعا غلة إلى الدم عطشى

فتراه كشعراء الرومنطيقية يذكر العذاب كأنه يتعمد به ويتطهر من أوصاب الحياة و أمراضها ، وهذان البيتان من آخر
ما كتب الشاعر كما يروي كتاب سيرته، وأما تأثر شاعرنا بأبي العلاء المعري فظاهر لا يخفى و إنما الحيرة تأخذ
صاحبها إن تساءل آكانت فلسفة فوزي تأثرا بفلسفة المعري ، أم أن الشاعر جبل على الحزن ومال إلى التشاؤم ووجد
في رفقة المعري ولزومياته خير جليس و أنيس ؟

وهاهو يذكر المعري تصریحا:

من بمت ألف مرة كل يوم

وهو حي يستهون الموت مرة

تعب كلها الحياة وهذا

كل ما قال فيلسوف المعره

لقد كان شاعرنا صاحب تفكير حر وعقل نفاذ وبصيرة حية لا يميل إلى التسليم بما ورث عن الآباء من نمط تفكير وفلسفة بل ينفذ إلى أعماق المعنى كاشفاً غثه من سمينه وصحيحه من زائفه، وقرأ له هذا المقطع الجميل وهو إن يبدو لقارئه مقطعا رومنتيقيا حزينا إذ يذكر الورود والنسيم والبهار إلا أنها رومنتيقية مفكرة عميقة التأمل ترى في مظاهر الوجود مسارب إلى الفناء والعدمية:

نظرت إلي وردة وقالت

أنت مثلي في الكون للكون كاره

ويح نفسي من الربيع ففيه

أجتنى بين آسه وبهاره

ومن الصيف فهو يحرق أكمامي

على رغمها بلفحة ناره

والنسيم البليل هل هو إلا

قاتلي بين وصله ونفاره؟

يتصابى حتى أسلمه نفسي

فيحفو والعطر ملء إزاره

ثم يرتد وهو ربح فيرديني

وتمشي مهيمنا لانتصاره

بل ترى الشاعر وهو يكتب قصيدة عن قفاز عشر به ملقى على الثلج في يوم اشتد زمهريره سقط من غيداء، تراه دون أن يدري يذكر البعد والعذاب والذل والهجر وهي مشاعر سكنت لاوعيه واستوطنت سراديب روحه وتلا فيف محه فتلون كل شيء كان يراه بلون واحد هو السواد يقول الشاعر عن القفاز اللقيط:

عثرت به في الأرض والثلج باسط

عليها جناحيه النقيين كالطهر

وقد بث فيه البرد والثلج رعشة

كما انتفض العصفور بلله القطر

فساءلته عمن رماه فلم يجد جوابا

بلى كان الجواب شذا العطر

فيا لك قفازا طريحا على الثرى

يعاني عذاب البرد والذل والهجر

نعمت بيمنها وكم لك قبلة

على الثغر منها والغدائر والصدر

وكم مرة منت عليك بزفرة

وكم مسحت دمعاً على تحدها يجري

إلى أن قضى بالبعد دهري عليكما

فلا حيلة في ما قضت حكمة الدهر

فلا مناص من الإقرار إذا بأن شاعرنا كان شاعر الحزن العميق والكآبة الغامضة، قد انتهى في تفكيره إلى عقيدة راسخة وفعالة ثابتة مفادها أن كل سعادة ونجاح في الحياة وكل عافية وغنى ووسامة ما هي إلا أعراض خادعة وسراب مضلل يتستر على هاوية العدم وقرار الفناء وتلك هي حقيقة الوجود ولا ريب أن شاعرنا أبا العلاء المعري هو فيلسوف هذا الاتجاه في الشعر العربي وتجدد حزن الشاعر هذا نظيرا عند لفييف من شعراء الرومنطيقية العرب الشباب كأبي القاسم الشابي وصالح الشرنوبى وبشير يوسف التيجاني بل وتجدد له نظيرا عند شعراء الرومنطيقية في الأدب الغربي كجون كيتس Keats . وشلي Shelley ولامارتين Lamartine وألفريد دي موسيه A.D.Musset وشاعر إيطاليا الكبير ليوباردي Leopardi

ولا شك أن هؤلاء جميعا قد أحسوا بالوحدة وبالغربة كأنهم ليسوا من طينة البشر فصادقوا الطبيعة ووجدوا في القلم الخلد الودود وكأنهم يقولون جميعا بلسان فوزي:

يا يراعي مازلت خير صديق

لي منذ امتزجت بي وستبقى

باسما من تعاسي حين أهدنا

باكيا من تعاسي حين أشتقى

كم حبيب سلا وعهدك باق

فهو أوفى من كل عهد وأبقى

يا يراعي رافقت كل حياتي

فارو عني ما كان حقا وصدقا

وقد اشتهر الشاعر بمطولة " على بساط الريح " ولقب من أجلها بشاعر

" الطيارة" وهي ملحمة شعرية تمجد الصفات الإنسانية النبيلة في الشاعر الحالم الوديع الذي يتنزه عن سفساف الحياة وأدران الحياة الإنسانية ،إنه يسامر النجوم ويصادق الكواكب ويناغي القمر ويتعمد بالنور، ولا حد لأحلامه التي لا تشبه أحلام البشر في النجاح الدنيوي والرفاه المادي، ذلك أن الشاعر ينطوي على روح نورانية ونفس محصنة ضد المطامع البشرية الفانية ، وفي القصيدة كعادة الشاعر تأمل في طبيعة العلاقات الاجتماعية بين البشر وثورة ضد الاستغلال والطبقية وحسب البشرية أن الفناء لها بالمرصاد:

أنا عبد الحياة والموت أمشي

مكرها من مهودها لقبوره

عبد ما ضمت الشرائع من جور

يخط القوى كل سطوره

بيراع دم الضعيف له حبر

ونوح المظلوم صوت صريه

أنا عبد القضاء تملأ نفسي

رهبة من بشيره ونذيره

وعلى الرغم من أن الشاعر عاش شابا ومات يافعا إلا أنه يتصنع أحيانا حكمة الشيخوخة وخبرة من بلغوا من الكبر عتيا غير أن حكمته تأتي مستساغة يتقبلها القارئ دون أن يرى فيها تكلفا، لأن نفس الشاعر مفضولة على التشاؤم و الميل إلى الكآبة يقول حكيمنا الشاب :

بين أوجاع أمه دخل المهدي

وبين الأوجاع يدخل قبره

إن من جاء مهده مكرها يمضي

إلى لحده غدا وهو مكره

هكذا الزهر يسكب الدمع عند

الفجر مستقبلا سنا أنواره

و اقرأ له هذا المقطع يخاطب فؤاده وتأمل الحكمة الكامنة في البيت الأخير:

يا فؤادي وأنت مني كلي

ليت حكمي يوما عليك يصح

فيك كنز لم تعط إلا قليلا

منه والحسن لا زال يلح

إن جود الفقير بالزر جود

حيث جود الغني بالوفر شح

والذي لا خلاف فيه بين النقاد أن شاعرنا الشاب قد امتلك ناصية اللغة فلا تجدد في شعره ركافة أو إسفافا أو إخلالا بقواعد اللغة وقواعد الشعر،

وأني له أن يفعل ذلك وهو سليل بيت تدرس بدراسة اللغة العربية وأتقنها خطابا وتأليفا، وشاعرية فوزي خلاقة لا تتكلف الشعر بل ترى الشعر ينبجس من نفسه بتلقائية تماما كما ينبجس الماء من النبع، وفي شعره حلاوة وطلاوة على الرغم من تضمنه فلسفة حومت حول مرارة الوجود ولوعة الفراق وفجيعة الموت ، وقد عشق الشاعر الطبيعة وحسبه أنه ابن زحلة ملهمة الشعراء والفنانين لجمالها الفتان فاقتبس مفرداته من الطبيعة على عادة الشعراء الرومنطيقية إمعانا في الاندغام في الطبيعة والحلول فيها ولو عاش الشاعر طويلا لأمتعنا بالشعر الحي السلس ولو أمهله القدر حتى الأربعينات لركب موجة شعر التفعيلة ، ذلك أن نفسه كانت بركانا مفضولة على الثورة والتمرد والتعلق بالحرية والبحث عن المعنى

واطراح القشور حرصا على اللباب ، ولربما كان شعر التفعيلة الذي لو عاش له ومارسه أجود وأمتع من الشعر العمودي الذي تركه ميراثا أدبيا لنا ومن يدري لربما كان في شعره الحديث في مستوى كبار الشعر الحديث ورواده كالسياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور .

مي زيادة وصالونها الأدبي⁽¹⁾

لقد وجدت دعوة الإمام محمد عبده وتلميذه قاسم أمين وغيرها من المصلحين آذانا صاغية في المجتمع العربي وهو يدب نحو الرقي ويسعى نحو النهضة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وفحوى تلك الدعوة أن لا رقي

(1) . مجلة ديوان العرب شباط 2007

ولا نفضة بغير إصلاح وضع المرأة التي هي نصف المجتمع وإصلاح وضعها يعني القضاء على عهد الحریم وإتاحة الفرصة لها بأن تتعلم وتنال كامل حقوقها التي أعطها إياها الشرع والفلسفة الوضعية الإنسانية ، تلك الدعوة المباركة التي صدع بها شعراء العربية الكبار مژكين إياها مباركين مضمونها وعلى رأس الشعراء أمير الشعراء أحمد شوقي :

وإذا النساء نشأن في أمية

رضع الرجال جهالة وهمولا

وحافظ إبراهيم الذي صدع بقصيدته في فضل تربية النساء :

من لي بتربية النساء فإنها

في الشرق علة ذلك الإخفاق ؟

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعبا طيب الأعراق

وهكذا دخلت المرأة قاعات الدرس وأسفرت بعضهن إمعانا في الدفاع عن كرامتهن وتعبيرا عن مساواتهن بالرجل فالمرأة ليست كائنا جنسيا وظيفته إمتاع الرجل وإنجاب الأولاد بل إنسانا حيا فاعلا خلاقا، وليست موضوعا غزليا يتغنى بالقد المياس والعين النجلاء والخذ الأسيل فقط.

وقد أثمرت هذه الدعوة المباركة ثمارا طيبة تجلت في ظهور نساء وقفن ندا للرجل في السياسة والفكر والفن والأدب وكان منهن لبيبة هاشم وملك حفي ناصف وعائشة التيمورية وهدى شعراوي ومي زيادة وصولا إلى مفيدة عبد الرحمن وعائشة عبد الرحمن ونعمات فؤاد وفدوى طوقان ونازك الملائكة وسهير القلماوي وغيرهن.

ولا ريب أن الأنسة مي زيادة كانت أكثرهن شهرة وشغلا للرأي العام وإثارة لطبقة المثقفين ورجال السياسة والأدب ، فقد جمعت بين جمال الروح والجسد في تناغم عجيب، وأملت بالثقافة العربية والغربية إماما مدهشا. كما أتقنت اللغات الأجنبية وفضلا عن ذلك كان جمالها الروحي والجسدي مغريا للأدباء مجيها والتعلق بها وقد اشتهر بجيها مصطفى

صادق الرافي وعباس محمود العقاد وجبران خليل جبران الذي عرفها عن بعد وهو في المهجر الأمريكي واقتصرت العلاقة بينهما على تبادل الرسائل ، ولا شك أن صالونها الأدبي الذي كان يجتمع فيه كبار مثقفي العصر، زادها شهرة وتقديرا فالصالون الأدبي فكرة غربية محضنة اشتهرت به بعض كاتبات الغرب فضلا عن كتابه وإنشاؤه وترسيخه في المجتمع العربي الخارج لتوه من عصر الظلمات فكرة خلاقة مدهشة تؤكد أن المرأة ليست مجرد وجه جميل ورحم وولد، هذا الصالون الذي أنشأته الأنسة مي زيادة زاد في شهرتها وفي تقدير المجتمع لها ، خاصة طبقة المثقفين.

والآنسة مي زيادة هي ماري بنت إلياس زيادة المعروفة بمي لبنانية الأصل من أهل كسروان، أقام والدها في الناصرة بفلسطين حيث ولدت مي عام 1886م وتعلمت في إحدى مدارسها ثم بمدرسة عين طورة بلبنان وأقامت بمصر مع والديها حيث كتبت بمجلة " المحروسة " ثم " الزهور " وأحسنت مع العربية الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية.

مات أبوها ثم أمها فشعرت بمرارة الحياة واستسلمت لكآبة اليأس ، وقد قررت عدم الزواج على الرغم من تعلق الكثيرين بها وقد خطبوا ودها وذابوا شوقا وهياما في حضرتها ولربما صح ما زعمه البعض في أن الأنسة مي أحببت جبران خليل جبران المعروف برومانسيته الجارفة وأفكاره الجريئة وعباراته الرشيقة ونزعة الحرية القارة في حياته وفي فنه و أدبه ، ولكنه كان مقيما بأمريكا واقتصرت علاقته بالآنسة مي على الإعجاب والتقدير المتبادل يبعث إليها برسائله من أمريكا وترد عليه برسائلها إليه من مصر وكانت وفاته عام 1931 صدمة نفسية وجرحا عميقا في روحها زادها تصميمًا على العزوبية وتفضيل العيش وحيدة بلا زوج تسكن إليه ويسكن إليها ، ولربما توطدت قناعة مي بعدم الزواج نتيجة لمزاج و فلسفة ذاتية تخرج بها عن المألوف ، فإذا كان الزواج

والإنجاب وتبعاته قدر المرأة حتى ليزهدا في الإبداع ويشلها عن الإنتاج الفني والفكري ، فقد ضحت به في سبيل إخلاصها لذاتها وفلسفتها الشخصية ، حتى تعطي المثل والعبرة في كون المرأة تماما كالرجل تقدر على العزوبية وتبعاتها ، فلن تكون ظل الرجل ولا قاصرة تستكمل قصورها بالركون إليه و الالتزام في أحضانه ، وتؤثر الجانب الروحي والإنساني والعقلاني فيها على الجانب الغريزي والجسدي والجنسي ، وفي الرجال من كانت هذه فلسفته فمخائيل نعيمة عميد أدباء المهجر أثر العزوبية والتنسك في " الشحروب " وقال جملته المشهورة " خلقت لأكون أخوا للمرأة لا بعلا لها " والآنسة مي معروفة بحساسيتها الشديدة كونها امرأة من جهة ، وفنانة شاعرة من جهة أخرى ، وهذه الحساسية المضاعفة هدت عافيتها الجسدية وتوازنها النفسي خاصة حين تعرضت لأزمات الحياة التي قصمت ظهرها

بدءا بوفاة والديها ووفاة صديقتها جبران خليل جبران ، وازدادت حالة المرض سوءا عليها عام 1936 واتناهما الاضطراب العقلي تبل منه قليلا ثم يعاودها حتى توفيت في مستشفى المعادي ودفنت في القاهرة عام 1941 .

وقد قالت السيدة هدى شعراوي في تأبينها "كانت مي المثل الأعلى للفتاة الشرقية المثقفة " .

وقال فيها شيخ فلاسفة العرب في العصر الحديث مصطفى عبد الرزاق " أديبة جيل، كتبت في الجرائد والمجلات، وألفت الكتب والرسائل،

وألقت الخطب والمحاضرات، وجاش صدرها بالشعر أحيانا، وكانت نصيرة ممتازة للأدب تعقد للأدباء في دارها مجلسا أسبوعيا، لا لغو فيه ولا تأثيم ولكن حديث مفيد وسمير حلو وحوار تتبادل فيه الآراء في غير جدل ولا مرء

وللآنسة مي عدة مؤلفات منها " باحثة البادية " و" بين المد والجزر " و"سوانح فتاة " و" كلمات وإشارات " و"ظلمات وأشعة " و"بتسامات ودموع " ولها ديوان شعر بالفرنسية بعنوان "أزاهير حلم" .

لقد كانت مي زيادة محبة للعروبة ملمة بالأدب العربي وعلومه إلماما أدهش الرواد من أدباء مصر وحبها للعربية وتعلقها بالعروبة دفعها إلى نحت اسم لها عربي خالص من اسم "ماري" هو الذي عرفت به، وإن كان "ميه" اسم عربي تردد في شعر النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند

أقوت وطال عليها سالف الأمد

وكانت ميه هي حبيبة الشاعر ذي الرمة، التي تغنى بها في شعره.

وصالون الآنسة مي كان فتحا جديدا في الثقافة العربية وتنويرا للمجتمع وتغييرا من سلوكياته البائدة وأعرافه الرثة خاصة عرف الحريم وإحجاءاته برجعية المرأة واستبداد الرجل .

كان مجلس مي يعقد يوم الثلاثاء وكان يحضره عمالقة الأدب ورواد السياسة ومشاهير العلماء وأعيان البلد كمحمد عبده، ومصطفى عبد الرزاق، وأحمد لطفي السيد، وقاسم أمين، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي ، وخليل مطران وإسماعيل صبري وعباس محمود العقاد وغيرهم .

وهكذا اجتمع أعلام الدين وأقطاب السياسة ورواد النثر وفرسان الشعر في صالون الآنسة مي، وهذا تقدير للمرأة العربية التي استطاعت جمع الرجال من حولها يتناقشون فيما بينهم نقاشا حرا في السياسة والأدب والدين والثقافة العالمية، وكان جمال مي الروحي والجسدي وكلامها الحلو ونبرتها الهادئة، وثقافتها الكبيرة ، كان كل ذلك يضيء على المجلس بماء ورقيا وإحساسا راقيا بالجمال في أرقى تجلياته، ولم يكن أحد يغيب عن المجلس إلا لظرف قاهر، حتى غيب الموت صاحبة الصالون، تاركة وهج الذكرى وبريق الماضي وأصالة الفكرة وروعة المغامرة والتحدي والخروج عن الرتابة المملة والمألوف المقرف.

ولصالون مي في شعرنا الحديث حضور، فقد ذكره الشعراء في أشعارهم والكتاب في مقالاتهم، وكان الشاعر إسماعيل صبري يقول عن صالون مي يوم الثلاثاء :

روحي على بعض دور الحي حائمة

كظامي الطير تواقا إلى الماء

إن لم أمتع بمي ناظري غدا

لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء !

أما الشاعر شفيق المعلوف شقيق شاعر الطيارة فوزي المعلوف فقد قال عن الآنسة مي :

بنت الجبال ربيبة الهرم

هيهات يجهل اسمها حي

لم تلق سحرا سال من قلم

إلا هتفتنا هذه مي

وقد كان رحيل مي وانفضاض مجلسها وغياب نبرتها الموسيقية وملاحمها الهادئة الرشيقة، وكلماتها العذبة المليئة بالأفكار الخلاقة والمعاني البكر، كان ذلك حدثاً مؤملاً لشاعر القطرين خليل مطران الذي أقضته الذكرى، وأبكنته حسرة الرحيل ومرارة الفراق وغياب اللحظات الجميلة وهو الشاعر المهرف الحس الرقيق الكلمة، الرحب الخيال، الصادق القول فقد قال في رحيل مي :

أفقر البيت أين ناديك يا مي

إليه الوفود يختلفونا ؟

في مجال السبق آل إليك السبق

في المنشعات والمنشعينا

نعمة ما سخا بما الدهر حتى

آب كالعهد سالباً وضمنينا

أيهذا الثرى ظفرت بحسن

كان بالطهر والعفاف مصونا

لهف نفسي عل حجى عبقرى

كان ذخرنا فصار كنزا دفيناً

وما أوجع الحزن، وما أشد الغصة، غصة الرحيل التي فعلت فعلها في نفس الشاعر كما يوحى بها البيتان الأخيران.

لقد كانت الأنسة مي بأدبها وثقافتها، وبجمالها الروحي والجسدي رمزا للمرأة العربية الطامحة إلى عصر غير عصر الحرم، وإلى شعر لا يكتفي منها بوصف النهود والأرداف والحدود، بل يشيد بعبقريتها وإنسانيتها وعطائها وإنتاجها العلمي والأدبي .

ولقد كان صالونها حدثاً فريداً في تاريخ المجتمع العربي، وإن كانت له سوابق في تراثنا فالسيدة سكينة بنت الحسين وهي شاعرة وناقدة كانت تستقبل الشعراء في بيتها وتكلمهم ولكن من وراء حجاب، وحدث مرة أن استمعت إلى زاوية جرير ينشدها :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

حين الزيارة فارحجي بسلام

فقال له قبح الله صاحبك وقبح شعره أما كان أحلى لو قال:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

حين الزيارة فادخلي بسلام

غير أن مجلس الأنسة مي يختلف عن مجلس السيدة سكينة فقد كانت مي مجتمعة بالرجال مسفرة كالبدن، ومن حولها أقطاب السياسة وأعلام الأدب وأعيان البلد تناقشهم وتدلي بأرائها التي بمرت الجميع، وكان يوم الثلاثاء من كل أسبوع عيد الأدباء والمفكرين والعشاق يتأقنون ويتعطرون ويخفون إلى المجلس بممة ووجد وهيام عجيب وكلهم يريد أن يكون فارس الندوة ورائد المجلس لعله يحظى بقلب مي وحبها فيجمع بين الثقافة في أرقى تجلياتها والجمال في أكمل صورته .

نزعة الحرية عند شعراء العراق المحدثين (1)

لا يفوت قارئ الشعر الحديث في العراق أن يلاحظ ملاحظة هي غاية في الأهمية، تلك الظاهرة التي تستفز وتثير انتباهه حتى وإن تغافل عنها هو، ألا وهي النزوع إلى الحرية وإبائه الضيم والثورة على الواقع المتردي وعلى نمط الفكر والحياة، إنما نفوس رهيبة الحس، تنفجر منها براكين تململ وتمرد فتسيل حممها من كل بيت ومن كل سطر حتى لتهدد تلك الحمم بأن تحرق القارئ وتكلفه من الأمر عنتا.

وفي ميل العراقيين إلى التمرد وإبائهم الجور ونزوعهم إلى الحرية سبب قوي حتم ذلك يعود إلى تاريخ البلاد الذي أبقى في ماضيه العريق الضيم منذ عهد البابليين وصراعهم ضد الفارسيين ثم العبرانيين وصولاً إلى الإسلام وما لاقاه الإمام علي من تمرد لأسباب سياسية انتهت به مقتولا في الكوفة ثم تمرد العراقيين على دولة بني أمية وإشعالهم فتن الثورة هنا وهناك لولا حزم الحجاج وعزمه على إخماد تلك الفتن بجد السيف وأحار الدم التي سفكت وقد حدثنا عنها التاريخ بإسهاب كبير.

(4) . مجلة ديوان العرب 2007.

ولا تختلف قصة العراق الحديث عن العراق القديم فالبلد الذي أسماه أسلافنا

" أرض السواد" على سبيل الكناية عن كثرة نخيله وكثرة رزقه كان لا يعرف الاستقرار فمن اضطراب إلى آخر ومن ثورة إلى أخرى ، سواء أكان البلد ملكيا أم جمهوريا، وقد انتهت الملكية ذاتها بنهر من الدم وأعلنت الجمهورية لتزداد الانقلابات والاضطرابات السياسية ومن اغتيال سياسي إلى آخر ومن فتنة إلى أخرى ولا يزال شأن العراق ذلك إلى اليوم .

والعراقيون على اختلاف نحلهم وأطيافهم السياسية يمقتون الضيم و يأبون الخسف ويثورون على الجور وينزعون إلى الحرية في الفكر والحياة، وقد شاء حظهم

التعس أن ينكبوا بالمتسلطين في الحكم وكأن قدرهم هو الهيمنة عليهم سواء من

بني جلدتهم أو من الأجانب ولا يتخلصون من عدو بالدم والنار إلا نكبوا بآخر ولعل هذا ما عناه الشاعر محمد مهدي الجواهري :

ولقد رأى المستعمرون منا فرائسا

ورأوا كلب صيد سائبا

فتعهدوه فراح طوع بناهم

يبرون أنيابا له و مخالبا

أعرفت مملكة يباح شهيدا

للخائنين الخادمين أجانبا ؟

مستأجرين يخربون ديارهم

ويكافأون على الخراب رواتبا !

ولعل نزعة التمرد ونقمة الثورة أظهر ما تكون في هذا الشاعر بالذات الذي ذاق مرارة التشريد وألم المنافي غير أن هذا كله لم يثنه عن النضال في سبيل حريته وحرية شعبه ألم يقل الجواهري منددا بسكوت الشعب منكرا عليه عبوديته؟:

لم يعرفوا لون السماء

لفرط ما انحنت الرقاب

ولفرط ماديست رؤوسهم

كما ديس التراب

وفي مطولته " تنويمه الجياع " صب جام غضبه على الرعية الساكنة على جيروت الحاكم المستسلمة لظلمه المفرطة في حريتها وكرامتها وفي هذه القصيدة نزع الشاعر منزع السخرية تنفيسا عن غيظه وبلسمة لجرحه العميق :

نامي جياع الشعب نامي

حريستك آلهة الطعام

نامي فحدران السجون

تعج بالمولت الزؤام

نامي على جوركما

وقع الحسام على الحسام

أعطي القيادة للقضاء

وحكميه في الزمام

واستسلمي للحادثات

المشفقات على النيام

وأما شعراء التفعيلة ورواد الشعر الحديث فقد تبنوا خطأ عروبيا ومسارا قوميا نزعوا فيه إلى حرية بلدهم وحرية الوطن العربي وثورته على الاستعمار الأوروبي الذي اقتسم البلاد العربية ونهب خيراتها وتفرق أبناء الوطن- شذر مذر- أو ذهبوا - أيدي سبأ - وقد التزم هؤلاء الشعراء بقضية الحرية وتحديد الحرية السياسية وأشهر شعراء العراق في هذا المضمار نازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وبدر شاعر السياب .

ولنازك الملائكة قصيدة " الشهيد " وهي من أجود شعرها تحي فيها روح البسالة في الشهيد والثبات على المبدأ والإصرار على الكرامة إنما هبة الدم الزكي في سبيل حرية الوطن و عزة أبنائه :

حسبوا الإعصار يلوى

إن تحاموه بستر أو جدرا

و رأوا أن يطفئوا ضوء النهار

غير أن المجد أقوى

ومن القبر المعطر

لم يزل منبعثا صوت الشهيد

طيفه أنبت من جيش عنيد

حاشم لا يتقهقر

وقد اشتهر السياب بقصائده المؤيدة للثورة الجزائرية لأنها ثورة عربية في الأساس بل ثورة إنسانية، وكان البياتي كالسياب في نصرة قضايا الحرية ليس في العراق وحده بل في العالمين العربي والأعجمي ، وقصيدته عن "جميلة بوحيرد" مشهورة، وتنديده بالعدوان الثلاثي على مصر موقف شهيم وإنساني وقومي مأثور. أما السياب فيقول في قصيدة " المغرب العربي " مباركا الثورة على الاستبداد والظلم:

وكان يطوف من حدي

مع المد

هتاف يملأ الشيطان يا ودياننا ثوري

أيا إرث الجماهير

تشظ الآن واسحق هذه الأغلال

وكالزلازل

تحذ النير أو فاسحقه واسحقنا مع النير.

وأما البياتي فيقول في العدوان الثلاثي على مصر (البريطاني، الإسرائيلي، الفرنسي) :

على جبين الشمس بورسعيد

مدينة شامخة الأسوار

شامخة كالنار كالإعصار

في أوجه اللصوص

لصوص أوروبا من التجار، من مجرمي الحروب

وشاربي الدماء

وأما الحرية الفكرية فله شعراء العراق قصب السبق في المطالبة بها، فلقد نعوا على الإنسان جموده وتقليده كما نددوا بالقهر الفكري ولعل الشاعر جميل صدقي الزهاوي خير من يمثل هذا الاتجاه وما نزع الشاعر إلى العلم إلا فرارا من الجهل وبعدا عن الخرافة وتشغيا في أمس عقيم سيطر فيه الجهل وحكم فيه الدجل وأظهر ما تظهر فيه هذه النزعة في مطولته "ثورة في الجحيم" وهي مطولة تنحاز إلى الفكر الحر وتثور على ثقافة العامة وتنعى عليهم الاستسلام والخنوع، وإذا كان الفكر الحر ينتهي بصاحبه إلى الخروج على السائد والمألوف ويجعل منه مضغة في الأفواه ويرمي في دينه وعقله وعرضه، بل ربما يدفع حياته ثمنا لإصراره على حرية فكره حتى ينتهي به الأمر إلى الجحيم، فترى الشاعر يرحب بهذا

المصير مادام في صحبة سقراط وديكارت ونيوتن وهوغو ولامارتين وأبي نواس وكل أفذاذ الإنسانية وأنصار الفكر الحر ،
وما ترجمة الزهاوي " لرباعيات الخيام" إلا تأكيد على مبدأ الحرية الفكرية وقد كان الخيام من أكبر أنصارها وفي
الرباعيات مقاطع تنتصر لهذا المبدأ على الرغم من تبعاته النفسية والاجتماعية والفكرية.

ولقد دافع الزهاوي عن العقل في شعره دفاعا مستميتا على الرغم من وصمه بالزندقة والمروق عن الدين وما لاقاه من
مضايقات العامة وعتنتهم وأنصار الثقافة الرسمية إلى الحد الذي جعل شعره خاليا من الدفق العاطفي والحرارة الوجدانية
وهو ما أخذه عليه نقاد الشعر، وتحيزه للعقل وللفكر الحر واضح جلي يعبر عنه هذان البيتان :

غير أني أرتاب من كل ما قد

عجز العقل عنه والتفكير

لم يكن في الكتاب من خطأ

كلا ولكن قد أخطأ التفسير

والشاعر معروف الرصافي كان في شعره كما كان في حياته مثلا للاستبسال في الدفاع عن الحرية ضد القهر السياسي
والفكري وقد أعطى بحياته المستقيمة وخصاصته المثل للمثقف الذي يأبى أن يتنذل عرضه لقاء أي عرض من أعراض
الدنيا وهو القائل :

كسبت لنفسي عهد تحريرها شعرا

وأشهدت فيما كتبت لها الدهرا

ومن بعد إتمامي كتابة عهدها

جعلت الثريا فوق عنوانه طعرا

وعلقته كيلا تناله يد

منبعث الأنوار من ذروة الشعري

وقد خاطب الحرية أجمل خطاب:

أحريتي إنني اتخذتك قبلة

أوجه وجهي كل يوم لها عشرا

وأمسك الركن مستسلما

وفي ركنها استبدلت بالحجر الحجرا

إذا كنت في قفر اتخذتك مؤنسا

وإن كنت في ليل جعلتك لي بدرا

وإن لآمني خطب ضممتك لآثما

فقبلت منك الصدر والنحر والثغرا

وإن لآمني قوم عليك فإني

لملتمس للقوم من جهلهم عذرا

واقراً هذه الأبيات وقدر ما في نفس الشاعر من غضب ، إنها صرخة في وجه الاستبداد الذي عاث في البلد فسادا ودجن الناس ونهب أرزاقهم وكمم أفواههم ولقد حالت الكلمات هنا حمما نارية تسفع الجلود وتلهب النفوس وتحرض الناس على الثورة لقاء حريتهم المهضومة:

أما أسد يحمي البلاد غضنفر

فقد عاث فيها بالمظالم سيدها ؟

عجبت لقوم يخضعون لدولة

يسوسهم بالموبقات عميدها

وأعجب من ذا أنهم يرهونها

وأموالهم منها ومنهم جنودها !

ولقد جر التحمس للعقل والإيمان بالفكر الحر الشاعر أحمد الصافي النحفي إلى الإقبال على كل فكر والاعتراف من كل نبع والأكل من كل مائدة فكرية ذلك أن القهر الفكري الذي عاناه أسلافه والسياس الدوغمائي الذي أجبروا على الإقامة داخله قرونا قد عفن نفوسهم وأصاب بالبلبلى عقولهم وبالصدأ قلوبهم فليتشرف الشاعر من ذلك القهر بالإقبال على الأفكار الجديدة والعقائد الوافدة يحتضنها وينزلها من نفسه منزلة الحقائق حتى إذا شك عقله فيها اطرحها وطلب غيرها

وكأنه نحلة حوامة تطير من روض إلى روض وتشرب الرحيق من كل زهرة ولو أدى ذلك إلى عذاب الشك وجحيم التناقض ولكن لا بأس فالحرية أغلى مكسب :

تناقضت الأفكار عندي كأنما

أنا جمع أشخاص وما أنا واحد

أرى كل فكر حل عقلي بوقته

صحيحا وفكر وقته مر فاسد

فكم ذرة تفتى وتولد ذرة

بجسمي كما تحيا وتفتى العقائد

فلي كل حين ماتم وولادة

وشخصي مولود وشخصي والد

ولا نعجب إذا رأينا شاعرا كبيرا بحجم بدر شاكر السياب يتبنى الشيوعية مسفها أحيانا الأديان ثائرا في وجه الحاكم ،
ناقما على الظروف قهرها وجبرها ، فقد كانت تلك الثورة بحثا عن الحرية في الأساس ، فالفقر والخصاصة قيذان يغلان

الإنسان ويهناك حرته وربما اضطراه إلى ابتذال كرامته وشرفه لقاء لقمة يتبلغ بها ، لقد كانت يسارته كما كانت يسارية غيره المطرقة نأرا من الظروف وتنديدا بهذا القهر التاريخي الذي يحد من الحرية بل يشظيها ، حتى إذا اكتشف الشاعر أن الشيوعية ذاتها لا تخلو من عيوب وأنها قهر آخر يمارسه الحزب عبر قاداته و أمثائه ، طلقها الشاعر إشارا لمرونته الفكرية وتعطشه للحرية الإنسانية التي ظل يحلم بها و يبحث عنها كما ظل " أورفيوس " يبحث عن زوجته في عالم الموتى .

وليس أدل على نزوع شعراء العراق منزع الحرية وإيثار المرونة الفكرية وحرية المناورة من إحدائهم تلك الثورة في الشعر الحديث فقد ظل الشعر إلى الأربعينات من القرن الماضي شعرا كلاسيكيا في ملمحه العام يسير على طريقة القدماء ويسلك طريق المتنبي وأبي تمام والبحري في توشي الألفاظ الفخمة والمدوية

واقتناس الحكم والتشبيهات البديعة والاستعارات غير المسبوقة، ذلك ما عهدناه في شعر البارودي وشوقي وحافظ ، غير أن شعراء العراق واستجابة لنداء المغامرة ودعوة الحرية في أنفسهم وهي دعوة فطرية كامنة فيها ، ضاربة بجذورها في غور التاريخ و بتأثير من الثقافة الغربية التي تشجع على الحرية وتعضدها خالفوا المسلك المألوف وتبنوا شعرا جديدا يستجيب لروح العصر وثقافته وسواء أذهبنا مذهب من يضع السياح رائدا لهذا الشعر بعد صدور قصيدته " هل كان حبا " أو ذهبنا مذهب من يقدم عليه نازك الملائكة بصدور قصيدتها " الكوليرا " فكلا الشاعرين من العراق يؤكدان ما زعمنا أن التمرد والثورة كامنتان في أنفسهم وهو نفس النهج الذي سار فيه شعراء العراق الآخرون كعبد الوهاب البياتي ثم مظفر النواب من بعده .

وهي الحركة الشعرية التي أتت أكلها فتجدد وجه شعرنا ليصبح شابا طافحا بالقوة والمناعة مستجيبا لروح العصر وفلسفته متخليا عن طرائق الماضي وأشكاله التعبيرية شكلا ومضمونا وكانت تلك الثورة المستجيبية لنداء عميق في النفس العراقية هو نداء الحرية سببا قويا في استجابة شعراء العالم العربي لهذه الحركة فما هي إلا سنوات قلائل حتى صار شعر التفعيلة حدثا فكريا وفنيا وجماليا مشمخر الصروح وطيد الأركان ، غالبا على أمره ، له شعراؤه الكبار في العالم العربي كعمود درويش و سميح القاسم و أمل نقل و صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي وأدونيس ونزار قباني وغيرهم .

وإنه ليحز في النفس ما آل إليه العراق اليوم عراق البابليين وحدثاتهم المعلقة وعراق الرشيد والأمين والمأمون، ودار الحكمة، وعراق " أرض السواد" وعراق الرافدين، وكان بود كل عربي أن يظل العراق في طليعة البلدان العربية حركة فكرية وشعرية وعلمية واصلًا الحاضر الزاهر بالماضي التليد لولا نكد السياسة وتآمر المطامع الإمبريالية على حاضر ومستقبل هذا البلد التي نأمل لها أن تقبر في هذا البلد الكريم، بفضل وحدة ووعي ونضال الشعب العراقي الذي سيعيد وجه دار السلام الخالد الخلاق والمتألق كما عهدناه بالأمس القريب والبعيد.

عراق البراري أو: الصورة السلبية للمثقف في الشعر الحديث (1)

لا نريد أن نخوض في المسؤولية الأخلاقية الملقاة على عاتق المثقف في بلده فهي مسؤولية مجمع الاتفاق بشأنها خاصة إذا كانت الشعوب متخلفة وفي مرحلة المنعطفات الكبرى، ذلك ما أسماه فيلسوف الوجودية الكبير جون بول سارتر بالالتزام أي التزام المثقف بقضايا شعبه وبالمدافع عن حريته وكرامته ولو اقتضى الأمر معارضة النظام السياسي القائم، وذلك ما حدث له بالضبط حين تظاهر مع المعارضين في حرب فرنسا في الجزائر وأصدر من أجل ذلك كتاباً بعنوان "عارنا في الجزائر"، والتزام المثقف بقضايا أمته ونزاهة فعله وصدق قوله ليست بالقضايا المستحدثة في تاريخ الأمة العربية، فأبو حيان التوحيدي وهو من كبار الأدباء ومن مؤسسي النزعة الإنسانية في الفكر العربي أخذ على الوزيرين "الصاحب بن عباد" و"ابن العميد" ما أخذ سجلها في كتابه "مثالب الوزيرين" فقد أخذ عليهما العيش الرغيد في قصور مترفة وقصر الثقافة على جمع لثيف من الفلاسفة والمناطقة وعلماء البيان والكلام والشعراء والنثر والتتطرق في كل ليلة إلى موضوع من موضوعات الفلسفة أو الأدب أو الدين، في حين تعيش الرعية في الخارج في ظلام وتخبط في تيه عماء. وهو موقف للتوحيدي يجعله في قمة رواد المذهب الإنساني الذي عرف به كبار مفكري أوروبا.

(1) . مجلة ديوان العرب 2007

ونحن في مقالنا هذا راصدون لخبية المثقف العربي وردته وفي تخليه عن مهمته الرئيسية في تنوير الرعية في عصر عادت فيه الشعوب العربية إلى السبات بالحنين إلى الماضي ومحاوله إحيائه ويغلبة الفكر الفقهي على الفكر العلمي ، وشيوع الدجل والشعوذة والبهلوانية الخطائية على التحليل العلمي ، أضف إلى

ذلك الهم السياسي المتمثل في استبداد الحاكم وحاشيته وغياب الحريات والضوابط الأخلاقية والسياسية، وقد كان رهين المحبسين أكثر جرأة من كتابنا ومثقفينا وهو المتوحد في داره حين

قال :

يسوسون الأمور بغير عقل

فينفذ أمرهم ويقال ساسه

فأفّ من الحياة وأفّ مني

زمن صارت رئاسته حساسه

أما مثقفنا في العصر الحديث الذي كان ينتظر منه أن يكون مسيحاً يحمل صليبه إلى ذروة الجلجلة، أو صرخة مدوية في أذن الزمان تجذ صداها في عقول الناس وقلوبهم، فتغير ما بأنفسهم وهكذا ندخل عصر الأنوار ونودع حياة الكهوف ونلغي ثقافة المتون ونستأصل الدجل والشعوذة من جذورهما بانتصار الفكر العلمي الصحيح ، وسيادة الحياة السياسية السليمة فيجني المجتمع ثمار ذلك حياة اجتماعية عادلة ورخاء اقتصاديا وإبداعا علميا وأديبا وفنيا وحضاريا يدخلنا في ركاب الحضارة كغيرنا من الأمم بعد أن خرجنا من السباق قرونا طويلة واكتفينا باستهلاك نفايات الصناعة الغربية من الناحية المادية ، واستهلاك رطانات الماضي من الناحية العلمية والمعنوية.

● وصورة المثقف في عصرنا الحديث لا تخرج عن ثلاثة أطر : مثقف هو أشبه بعرف البراري كان كلامه أشبه ما يكون بالأحاجي والألغاز وقد أخذ بنصيحة ابن باجة في " تدبير المتوحد" فطلق المجتمع والزمان وانزوى في كهفه. ومثقف لزم التقية وأخذ بالحيلة وأتقن الرياء الماكر دفعا للضرر واستجلابا للعافية والسلامة .

ومثقف غلبته نفسه الشهوانية فاتخذ من الثقافة مطية إلى قصر الحاكم ومن ثقافته وعلمه تساييح يرددها على مسامع البلاط آتاء الليل وأطراف النهار لعله يرضى ، فيملاً الحاكم فمه ذهباً وصدرة نياشين ، ويدعوه إلى الولايم لأنه رمز الثقافة في البلد .

ويستثنى من ذلك كله القليل القليل الذي عاش فكرة أبي حيان عقلاً ووجدانا وكان صرخة مدوية في ضمير الزمان وموقفاً أيبا في لحظات التاريخ الحاسمة.

وفي قصيدة عبد الوهاب البياتي " مهرج الملك " صورة فنية للمثقف من الطراز الثالث وهو المثقف الذي غلبته نفسه الشهوانية فاتخذ العلم مطية لإشباع الغرائز يقول البياتي عن هذا الطراز من المثقفين :

يداعب الأوتار

يمشي فوق حد السيف والدخان

يرقص فوق الحبل

ينثني مغنيا سكران

يقلد السعدان

يركب فوق متنه الأطفال في البستان

يخرج للشمس إذا مدت إليه يدها اللسان

يكلم النجوم والأموات

ينام في الساحات

فهي صورة لمثقف درويش يكلم النجوم والأموات وينام في الساحات ، أو صورة لمثقف بملوان يجيد تلفيق الكلام وإجادة الرياء ودلالاتها هنا قول البياتي :

يمشي فوق حد السيف والدخان

يرقص فوق الحبل، يأكل الزجاج .

وهي في النهاية صورة هزلية لمتقف مستعد لكل شيء حاضر لإجادة كل شيء في سبيل مرضاة الحاكم وبطانته:

يركب فوق متنه الأطفال في البستان

وهو في النهاية مصاب بالعتة وبالبله مهما نال من مرضاة الحاكم ومهما أعطته الدنيا من متاع ورياش ومهما وصل إليه من دوي زائف أو شهرة كفقاقيع الصابون، وهل أشد من بلهه إخراجة اللسان للشمس وهي رمز الحرية والنور والعطاء ؟

يخرج للشمس إذا مدت إليه يدها اللسان

وهذا النوع من المتقفين هو الذي أشار إليه الشاعر اللبناني الكبير خليل حاوي ، وتقريبا تأتي الدلالات متطابقة فنيا وفكريا مع دلالات نص " مهرج الملك " للبياتي

يقول خليل حاوي :

أراك تستحيل لساحر يموه الأشياء في العيون

مهراج حزين

في مسرح الغجر

يروض الأفعى ويمشي حافيا

يمشي على الجمر ، على الإبر

يعجن في أسنانه الزجاج والحجر يضم في كفيه وهج الشمس والظلال

ينسج منها هالة وشال

حورية تهبط من أكامه الطوال .

فهي صورة اختلط فيها الهزل بالجد والضحك بالبكاء إنه مثقف في شكل فقيه مستعد لإخراج فتاوى ترضي الحاكم أو خطيب مقوال أو شاعر بليغ يديج القصائد ويبدع الأمثال لتخرج آية الزمان ، إنها القدرة على الترميم كما يقول خليل حاوي ، والقدرة على تجاوز وخز الضمير وعذاب النفس :

يمشي على الجمر على الإبر

وما أكثر ما خدعنا في حياتنا الثقافية بهذا النوع من المثقفين الذين زادوا في سبات الأمة ومدوا في عمر جبروت الحاكم، وفي ردة الجماهير إلى حياة الكهوف واجترار الماضي.

وأما الصورة الثانية للمثقف فهي صورة مثقف أكاديمي تخرج من جامعات الشرق أو الغرب وتخصص في حقل من حقول المعرفة ، اتخذ من شهادته العليا مصدر استزاق ولذا فلا علاقة له بالخارج -خارج الحرم الجامعي - وهو أشبه ما يكون بعرف البراري كلامه طلاس ومصطلحات ، وزادته الشهادة وربما الحياة الحرة التي عاشها في الغرب عقدة نفسية تستلزم محللا نفسيا ، إنها عقدة الاستعلاء والنظر إلى الناس من قمة جبل الأولمب أو من البرج العاجي - وأعتذر لأستاذنا الكبير توفيق الحكيم في رقدته الأبدية على استخدام هذه الكلمة - البرج العاجي - فالحكيم لم يطلق الزمان والمكان وهو صاحب عودة الروح ويوميات نائب في الأرياف وعودة الوعي... الخ .

إنما أستاذنا الجامعي لم يعرف بمساهمة علمية تثير البصائر ولا عمل يزلزل به العقول والقلوب ولا رفض يدوي به في سمع الزمان وضميره، ويتعلل لذلك بحمق الناس وغباء الشعب واستبداد السلطان، وحاجة في النفس ما إن لها ثمن هي غريزة البقاء والاستمتاع بطيبات الحياة ومفاتيح الدنيا وشعاره مع طلبته " بضاعتنا ترد إلينا " ولذا تحولت جامعاتنا إلى محاضن أو مداجن أو آلات رهيبة لتعليب المشاعر والأفكار ليكون المنتخرج على المقاس في الخنوع وفي الولوع باللامعقول والجري وراء السراب ، أو قل ما قاله أحد مفكرينا ولا يحضرنا اسمه عن الجامعات العربية إنها محتشدات ، وكان الأجدد أن تكون الجامعة بوصلة المجتمع باتجاه الرقي والمدنية ، وأن تؤثر في المجتمع . لكن المضحك- وكما يقول شاعرنا وشر البلية ما يضحك- أن المجتمع بغوغائه ودهمائه هو الذي يؤثر في الجامعة ويجعلها على مقاسه !

أما الصورة الثالثة فهي صورة المثقف الذي أصابه اليأس ودب الوهن في قلبه وسكن الخمول خلاياه فأصيب بخدر واليأس على حد قول بعضهم راحة ، لا أثر للمغالبة في روحه ولا للكفاح في حياته، تسلل الخوف إلى وجدانه إلى درجة التقيؤ من التغيير والانقلاب الجذري والوثبة الحضارية الخلاقة، ولهذا المثقف الطلائعي شكلا الرجعي مضمونا الساكن سكون الحجر صورة في قصيدة الظل والصليب لصالح عبد الصبور ، وهي من أجمل قصائد الشعر الحديث ، لا تنتهي دلالاتها ولا مضامينها الفنية والفكرية إنما بورتريه الوجدان العربي، وفي هذا المقام يحضرننا هذا المقطع وهو يرسم صورة لهذا النوع من المثقفين:

ملاحنا هوى إلى قاع السفين واستكان

وجاش بالبكاء بلا دمع بلا لسان

ملاحنا مات قبيل الموت

حين ودع الأصحاب والأحباب والزمان والمكان

عادت إلى قمقمها حياته، وانكشمت أعضاؤه ومال

ومد جسمه على خط الزوال.

فهذا الطليعي هوى إلى القاع دلالة على النكوص والردة والقاع دلالة على التردى في هاوية الماضي وغور التاريخ وهو لا يملك حتى الدمع لأن الدمع رديف الوجدان وصنو الإنسانية وهو مجرد منهما وكذا اللسان رمز الفعل بالقول في تحريك مسار التاريخ وهو خلوه منه.

لقد خرج من التاريخ حين أبى في صلف أو حمق أن يعيش عصره وتمدد على خط الزوال ، وعبد الصبور يبدع هنا إبداعا غير مسبوق في قوله " خط الزوال " فالمعلوم أن خط الزوال يمثل بداية السقوط والانحدار والتردى ويواصل لصالح عبد الصبور رسم صورة هذا المثقف والقائد الطلائعي :

ملاحنا أسلم سؤر الروح قبل أن نلامس الجبل

وطار قلبه من الوجمل

كان سليم الجسم، دون جرح دون خدش دون دم

حين هوت جبالنا بجسمه الضئيل نحو القاع

ولم يعيش لينتصر

ولم يعيش لينهزم

وفي هذا المقطع الأخير تأتي دلالة الجبل الموحية بالنهضة والصعود والرقى ، ولكن ملاحنا مات قبل معانقة الفعل الحضاري والوثبة التاريخية ولا بد أن نشير إلى أن الملاح قال قبل هذا المقطع في إشارة إلى الجبل :

هذي جبال الملح والقصدير

وهو تمويه يوحى بالزهد في مغالبة الحياة ومعانقة أسرارها وترويضها والاستمتاع بطيبات الحضارة وتجذ هذه المعاني كلها دلالتها في كلمتي " الملح " و "القصدير" وهما رمز التفاهة والقيمة البخسة.

لقد مات هذا القائد الطلائعي حنق الأنف من غير جراح ولا دماء ومن غير قراع ومغالبة خطوط الحياة ومن غير انحرام لأنه لم يصارع أصلا فهو الاستسلام للواقع الرديء والتكيف مع رداءته

والعيش في أحضانه بل وتزويق هذه الرداءة والادعاء بأنها أصالة ومدنية وتنخدع العامة بهذا القول مواصلة تمددها على خط الزوال .

الفهرس

- 02 ● إهداء
- 03 ● توطئة
- 06 ● جمانة حداد وأنطولوجيا الشعراء المحدثين
- 11 ● طه حسين ورسالة التنوير العربي
- 19 ● ابن الرومي باكيا
- 30 ● أبوالعالء المعري فلكيا
- 37 ● أغار على شمسي أو الحنين إلى الأوطان في شعر المهجريين
- 49 ● الجواهري شاعر الرفض والإباء
- 57 ● الرفض في الشعر الحديث
- 69 ● المعاناة الخالدة أو الإبداع في حضرة الألم
- 76 ● النزعة الإنسانية في الأدب المهجري
- 94 ● النهر الخالد تأملات في شعر ميخائيل نعيمة
- 101 ● بشارة الخوري نشوة الفرح وحسرة الزوال
- 109 ● بيدي لا بيدك عمرو ظاهرة الانتحار في أدبنا
- 115 ● بين ضفتين الإحساس بالرحيل المبكر عند الشابي والسياب

- 124 ● تأملات في عالم حنا مينة الروائي
- 130 ● رباعيات الخيام نشوة الفرح وحسرة الزوال
- 143 ● رومنطيقية القلب الحزين الوصف عند خليل مطران
- 153 ● زكي نجيب محمود وإخفاقات النهضة العربية
- 158 ● زمن السأم تأملات في قصيدة الظل والصليب لصلاح عبد الصبور
- 170 ● شاعر الجلال عباس محمود العقاد
- 180 ● شعرنا بين مد التجديد وجزر التقليد
- 185 ● قدموس ثائراً أو جبران ونزعة التمرد
- 193 ● ملاك لبنان الحزين فوزي المعلوف
- 201 ● مي زيادة وصالونها الأدبي
- 208 ● نزعة الحرية عند شعراء العراق المحدثين
- 217 ● عراف البراري أو الصورة السلبية للمثقف في الشعر الحديث

More Books!

Yes I want morebooks

اشترى كتبك سريعاً و مباشرة من الأنترنت, على أسرع متاجر الكتب الإلكترونية في العالم
بفضل تقنية الطباعة عند الطلب, فكتبتنا صديقة للبيئة

اشترى كتبك على الأنترنت

www.get-morebooks.com

Kaufen Sie Ihre Bücher schnell und unkompliziert online – auf einer der am schnellsten wachsenden Buchhandelsplattformen weltweit!
Dank Print-On-Demand umwelt- und ressourcenschonend produziert.

Bücher schneller online kaufen

www.morebooks.de

OmniScriptum Marketing DEU GmbH
Bahnhofstr. 28
D - 66111 Saarbrücken
Telefax: +49 681 93 81 567-9

info@omniscrptum.com
www.omniscrptum.com

OMNIScriptum



